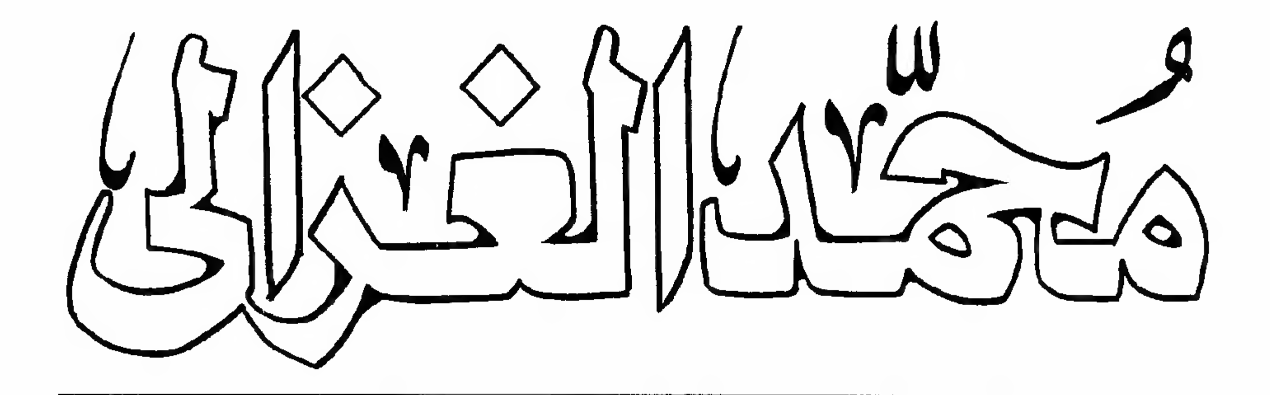


عقيدة المسلم

42

طبعة مراجعة ومنقحة



العنوان: عقيدة المسلم.
اسم المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالي .
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر: الطبعة الرابعة يونيو 2005م .
رقم الإيداع: 2004/5870
الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2691-5
الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)–3472864 (02) فاكس:3462576 (02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة - ص . ب : 96 الفجالة - القاهرة.
ت : 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5230569 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



المقدمة

هذه بحوث فى العقيدة ، دفعتنى إلى كتابتها قلةُ الرسائل التى تُعْنى بهذا اللون من علوم الدين ، وتعرضه فى أسلوب يتفق مع حاجة المسلمين المعاصرين .

وقد رأيت أن أسوق الأصول العلمية لعقيدة المسلم ، فى نسق يخالف ما أَلِفَ الناس قراءته من هذه الأصول فى مظانِّها من ثقافتنا الدينية .

لا لأنى سأتى بجديد فى هذا الميدان ، بل نزولاً على منطق التجارب ، وانتفاعًا بما اكتنف جوانب التاريخ الإسلامى من أحداث ، وتوخيًا للسير فى هدى النصوص المجردة من الكتاب والسنة .

فالذى يقرأ شيئًا عن عقيدة المسلم فى العلم الموسوم بـ «علم الكلام» أو «علم التوحيد» ، لا يعوزه أن يسجل ملاحظات مهمة عن المسائل التى خاض فيها العلماء ، والمجادلات التى دارت بينهم ، والنتائج التى تمخضت عنها مناظراتهم ، وعن أثر ذلك كله فى إيمان العامة والخاصَّة جميعًا !

والذى آخذه على منهج البحث فى «علم الكلام» – فى حدود ما درسنا من كتبه– أنه :

١– نظريٌّ بحتٌ ، يُنظِّم المقدمات ويستخلص النتائج ، كما تصنع ذلك الآلات الحاسبة فى عصرنا هذا ، أو الموازين التى تضبط أثقال الأجسام ، ثم تسجل الرقم وتقذف به للطالبين .

كذلك سارت الاستدلالات فى هذا العلم الخطير ، فتكلمت عن الله سبحانه وتعالى ، وعن صفاته الكريمة ، وانتهت إلى حقائق جيدة ، يستريح إليها العقل الحصيف .

بَيْدَ أن الإسلام فى تكوينه للعقيدة يخاطب القلب والعقل ، ويستثير العاطفة والفكر ، ويوقظ الانفعالات النفسية مع إيقاظه للقوَى الذهنية .

وقد كنت أرقب - عن كثب - ما تخلفه دروس التوحيد من كتبه المقررة ، فما كنت أجد فارقًا يُذْكَر - لدَى السامعين - بينها وبين شروح المعادلات الجبرية مثلاً .

كلاهما ترويض للعقل ، مبتوت الصلة بالفؤاد . فكأن الطالب يذكر طائفة من الأدلة على الوجود الدائم «لواجب الوجود» ، ولا يستشعر فى قرارة نفسه عظمة الخالق المتعال ، أو يختلج فى بدنه عرْقٌ من الرغبة أو الرهبة نحو مَنْ سوَّاه ، وألهمه فجوره وتقواه .

أفهكذا تُدرس العقيدة ؟

وقد فزع العامة إلى علوم التصوف يستكملون منها ما عزَّ عليهم إدراكه فى علم الكلام ، ولكن التصوف ميدان كثير المزالق ، وشطحات السائرين فيه أكثر من سدادهم .

ولاشك أن هذا العلم أنعش عاطفة الحب الإلهى ، وربط قلوب الناس ربطًا رقيقًا ببديع السموات والأرض ، إلا أن مخاطر الشغل به تجعلنا نتوجس منه .

وقد حاولت فى أثناء الكتابة عن عقيدة المسلم أن أرطب جفاف التفكير العقلى برشحات من المشاعر الحيَّة ، ولم أتكلف لذلك إلا أن أجعل نصوص الكتاب والسنة نُصْبَ عينى .

فلا يستكثرن القارئ إيراد الشواهد منها ، فإن لذلك حكمة مقصودة تعرف بعد مطالعتها فى سياقها .

٢- وللظروف التى نشأ فيها «علم الكلام » أثر سيئ فى سَرْدِ حقائقه وصَوْغ دقائقه ، فإن جحيم السياسة ، وتطاحن الأحزاب المختلفة ، أرسل شواظًا منَ الأحكام الإسلامية ، لا نزال إلى اليوم نشقَى بها ، برغم القرون الطويلة التى مرَّت عليها !! .

وفى ضجيج الخصومة السافرة يعسر البحث عن الحقيقة! ولو أمكن الوصول إليها ، فإنه يصعب الاقتناع بها!

ومن الغفلة أن نحسب تكوين العقيدة يتم فى مجلس مناظَرة ، تُتَصَيَّدُ فيها النصوص ، ويُنْشَدُ فيها الغَلَبُ ، ويُلْعَبُ فيها بالألفاظ ، ويُستَغل منطق «أرسطو» فى المخاتلة وإيقاع الخصم أمام العامة!

وعفا الله عن أجدادنا ، فقد أُولِعُوا بذلك ، وأعانَهم عليه أن الدولة الإسلامية

كانت سيدةَ العالَم ، فلا بأس على رجالها أن يشتغلوا بالترف العقلى ، وأن يحوِّلوا فراغَهم من الجهاد فى سبيل الله إلى الجهاد فى هذا الميدان الخطر ، فانشغلوا بأنفسهم عن أعدائهم ، ثم ذهب الرجال وبقى الجدال . . بقى إلى اليوم يهدِّدُ وحدة الأمة ويهزُّ كيانها! ومع أن الدولة الإسلامية جَثَتْ على قدميها أمام الصليبية الغازية ، واقترب الخطر على الإسلام من صميم عقائده وصميم دياره ، فإن الريح النَّتِنَةَ لهذا الجدل ما تزال تهب من بعض الجماعات التى تحترف ـ للأسف الشديد ـ خِدمة الإسلام .

ولا أحسب أمة تحتاج إلى وحدة الأفكار والمشاعر مثل هذه الأمة الإسلامية .

فإذا نشب خلاف على شىء ما ، فإن تحويل هذا الخلاف من الأدمغة المفكرة إلى صفوف الأمة يُعَدُّ جريمة فى حق الله ورسوله ﷺ وجماعة المسلمين . . .

يقول الأستاذ الجليل « أحمد عزت باشا» – معلقًا على الخلافات الناشبة فى علم الكلام : «كانت هذه الخلافات فى الأصل مما لا ينبغى أن يتجاوز حدود المَناظرات المنطقية والعلمية والفنية ، ولكنا أقحَمْنا اسم الله فى مناقشاتنا التى لا معنى لها .

فحاول كل فريق منا إسناد الكفر والإلحاد إلى الفريق الآخر ، فقَلَبْنا الخلاف البدائى خصومة دينية لا تهدأ .

فاختلاف الجهمية والمعتزلة نشأ ـ فى أصله ـ عن التعبير بأن العبد خالق لفعله ، بدل التعبير بأنه فاعل لفعله ، وعن تصور الاستقلال التام فى الإرادة البشرية .

وهذه العقيدة ـ خطأ كانت أو صوابًا ـ صالحة لتكون موضع مناقشة علمية يستطيع فيها الطرفان مناقضة بعضهما بعضًا ونقده ، بل استجهاله واستحماقه! ولكن المسألة لم تقف عند هذا الحد .

فقالت القدرية : إن عدم القول بعقيدتنا يعنى إسناد الظلم إلى الله فى عذاب الآخرة .

وقال معارضوهم : إنكم تنكرون عموم القدرة والإرادة الإلهية . . وهذا كفر .

نشأ أولاً هذا الخلاف ، ثم توسَّعَ على مرور الزمن ، حتى تولدت منه مبادئ غريبة غير معقولة . .»

والولع بالخلاف سَرى حتى ضمَّ إلى العقائد أمورًا مضحكة .

فهناك خلاف بين المعتزلة وأهل السنة على حقيقة السحر ، وعلى تكون السحب ، فأى خلط هذا؟

وبين المسلمين اليوم نزاع يفصم وحدتهم حول ما دار بين على بن أبى طالب وغيره من الصحابة فى مسائل الخلافة .

فهل على وجه الأرض أمة تجتر ماضيها السحيق لتلوك منه خلافات قاسية كهذه الأمة؟

ولماذا نقحم هذه الأمور إقحامًا فى شئون العقيدة؟

ولماذا لا تبقى فى نطاق الذكريات التاريخية التى تُدْرَس كأى تاريخ لتؤخذ منه العبرة فحسب؟

وما صلة الإيمان بالله واليوم الآخر بحُكمنا أن هذا أصاب ، وهذا أخطأ ، والله يقول : ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (البقرة : ١٣٤)

وإنى لأقرأ فى صحفنا الدينية اليوم نِزاعًا بين أتباع السلف والخلف ـ كما أسمَوْا أنفسَهم ـ وأسمع ألفاظ الكفر تتبادل كما تتبادل الكرة أرجلُ اللاعبين ، فأهزُّ رأسى عجَبًا ، إن أعراضَ المرض لا تزال تعرو الأمة المنهوكة ، وما تزال بحاجة إلى عناية الراشدين المخلصين من الأطباء الماهرين .

***

وقد استقَرَّتْ رواسب هذا الخلاف الطائش فى أذهان العامة ، ثم سيطرت على سلوكِهم بعدما أخذوا أسوأ ما فيها ، ورفضوا أفضل ما فيها .

فإذا اختلف القدامى : هل العمل ضرورة للإيمان أو كمال فيه؟ ترجَّح لدَى العامة أنه كمال فقط .

فيستفيد المجتمع من هذا الخلاف ترك العمل!

وإذا اختلف القدامَى : هل للإنسان قدرة وإرادة يفعل بهما ويترك؟ أو هو مقهور مكتوف اليدين؟ ترجَّح لدى العامة أن المرء لا عزم له ولا حول ولا طول . فيستفيد المجتمع من هذا الخلاف سقوط الهمة وخَورَ العزيمة!

وإذا تجادل القدامى : هل للمسلم حق الالتجاء إلى الله دون وساطة الصالحين من الأحياء أو المقبورين؟

ترجح لدَى العامة أن المسلم لا يستغنى عن معونة الأولياء ، وأنه إذا ذهب إلى ربه من دونهم فالوَيْلُ له!

فيستفيد المجتمع من هذا الخلاف شيوع الشرك ، وضعف الصِّلة برب الأرض والسماء!

وهكذا لصقت بالمجتمع الإسلامى مجموعة خسائس لاشك فى أنها بعيدة الأثر فيما لحقه من اضمحلال وهَوان .

وقد بذلت جهدى - حين تصديت لتصوير عقيدة المسلم - أن أتجنب أشواك هذا الخلاف ، فإذا استطعت طَيَّه فى السياق المطرد ؛ طويته وتجاهَلْته . وإذا اضطررْت إلى خوضه عالجته على كُرْه ، وذكرت ما استبان لى - أنه صواب ، وقد أستجهل الطرف المقَابل ولا أكفره ، لأن الجهل الفاضح - كما ظهر لى أساس كثير من المشكلات العلمية المبهمة .

وربما لمحت فى أخلاق بعض المجادلين عوجًا ، وفى أسلوبهم عنفًا ، فأوثر مغفرة هذا على مقابلة السيئة بمثلها ؛ لأننا أمة فقيرة جدًا إلى التجمع والائتلاف . فلندفع ثمن هذا من أعصابنا ، والمرجع إلى الله .

٣- وإذا كان علم التوحيد على النحو الذى وصفنا ، فإن كتبه التى تشيع بيننا الآن فشلت فى أداء رسالتها شكلاً وموضوعًا .

فمن ناحية الشكل لا معنى البتة لعرض علم ما فى توزيع مضطرب بين متن وشرح وحاشية وتقرير ، وفى لغة ركيكة اللفظ ، سَقيمة الأداء ، لغة تصوِّر سقوط البلاغة العربية على عهد الحكم التركى .

وتطور الأدب فى عصرنا هذا لا ينكر ، وقد بلغ من تمكن المؤلفين والمتأدبين فى اللغة العربية أن تناولوا الموضوعات التافهة فأخرجوها فى ألبسة زاهية ، ووجَّهوا ألوف القرَّاء - بسحر بيانهم - إلى ما يريدون .

فهل يبقى الكلام فى العقائد وحدها حِكْرًا على هذا النمط الزرى من الحواشى والمتون؟!

على أننا إذا تغاضَيْنا عن الشكل ، وتعرضنا للجوهر بالنقد والتمحيص ، لا نلبث أن ندرك أن هذا الجانب الإلهى من الثقافة الإسلامية طغت عليه الفلسفات الغربية التى نقلها السريان عن اليونان وغيرهم ، فإذا بعلوم العقيدة تتحول عن مجراها العتيد ، وإذا بكتب التوحيد تزدحم باصطلاحات الفلاسفة وطرائق تفكيرهم .

ويبدو أن الأسلاف الباحثين فى هذه الناحية من الإسلام قد فتنهم الإعجاب بما نقله إليهم التراجمة من ثمرات العقل اليونانى .

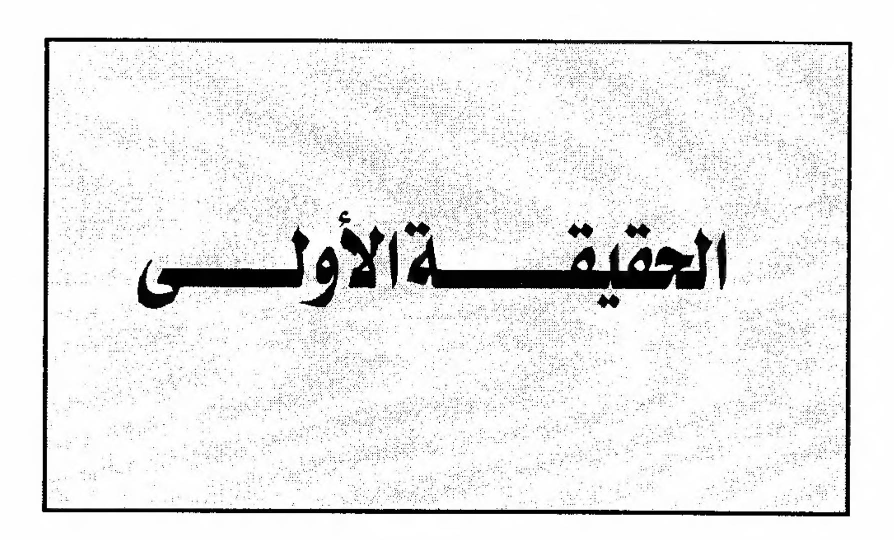
ولسنا بصَدَدِ الحكم على قيمة هذا العمل وحكمته ، وإن كنا ننَوِّه بدلالته على مدى الحرية التى منحها الإسلام أتباعَه ، وعلى أن الدائرة التى يعمل فيها العقل الإسلامى تسَعُ العالَم أجمَعَ ، فليست مغلقة على عصبية جنسية أو فكرة محلية . غير أن عناصر العقيدة كادت تتيه وسط هذا الركام من النقول والأقيسة والمصطلحات ، فوجب تجميعها فى نسق متقارب .

ثم إن غرسها فى الأفئدة لن يثمر ويزدهر إلا بأسلوب الإسلام نفسه .

ومن العجيب أنك تقرأ فى أمهات الكتب الكلامية ، وتطوى الصفحات الطوال ، فلا تكاد تعثر على آية أو حديث ، إلا اقتباسات يسيرة تبدو كالزهرات المنفردة فى الأرض السبخة .

ربما استراح عشاق البحث الفلسفى المجرد لهذه الكتب ، ولا عليهم! لكن هذا لا يغنينا عن عرض العقيدة الخالصة من خلال حقائق تتصل عن قربٍ بمصادرِها الأولى ، ﴿ **وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ** ﴾ (الأحزاب : ٤) .

محمد الغزالى


الحقيقة الأولى

اللَّـــهُ

هذا الاسم الكريم عَلَمٌ على الذات المقدسة التى نؤمن بها ونعمل لها ، ونعرف أن منها حياتنا وإليها مصيرنا .

والله تبارك وتعالى أهلُ الحمد والمجد ، وأهل التقوى والمغفرة ، لا نحصى عليه ثناء ، ولا نبلغ حقه توقيرًا وإجلالاً .

لو أن البشر- منذ كتب لهم تاريخ ، وإلى أن تهمد لهم على ظهر الأرض حركة- نسوا الله وكفروا به ، ما خدش ذلك شيئًا من جلاله ، ولا نقص ذرة من سلطانه ، ولا كفَّ شعاعًا من ضيائه ، ولا غضَّ بريقًا من كبريائه ، فهو - سبحانه - أغنى بحوله ، وأعظم بذاته وصفاته ، وأوسع فى ملكوته وجبروته من أن ينال منه وَهْمُ واهمٍ ، أو جهل جاهل .

ولئن كنا فى عصر عكف على هواه ، وذَهَل عن أخراه ، وتنكر لربه ، إن ضير ذلك يقع على أم رأسه ، ولن يضر الله شيئًا .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (الحج : ٣ ـ ٤) .

وُجُـــودُه

وجود الله تعالى من البداهات التى يدركها الإنسان بفطرته ، ويهتدى إليها بطبيعته ، وليس من مسائل العلوم المعقدة ، ولا من حقائق التفكير العويصة .

ولولا أن شدة الظهور قد تلد الخفاء ، واقتراب المسافة جدًا قد يعطل الرؤية ، ما اختلف على ذلك مؤمن ولا ملحد .

﴿ **أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ (إبراهيم : ١٠)

وقد جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس عن الألوهية .

فإنهم وإن عرفوا الله بطبيعتهم إلا أنهم أخطأوا فى الإشراك به ، والفهم عنه .

﴿ **هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾ (إبراهيم : ٥٢)

﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ** ﴾ (محمد : ١٩)

والبيئة الفاسدة خطر شديد على الفطرة ، فهى تمسخها وتشرد بها ، وتخلف فيها من العلل ما يجعلها تعاف العذب وتسيغ الفجَّ .

وذاك سر انصراف فريق من الناس عن الإيمان والصلاح ، وقبولهم للكفر والشرك! مع منافاة ذلك لمنطق العقل وضرورات الفكر وأصل الخلقة .

«**إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، فأتتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم . .** » .

وقد اقترنت حضارة الغرب ـ التى تسود العالم اليوم ـ بنزوع حاد إلى المماراة فى وجود الله ، والنظر إلى الأديان ـ جملة ـ نظرة تنقُّص ، أو قبولها كمسكنات اجتماعية لأنصارها والعاطفين عليها .

ولاشك أن المحنة التى يعانيها العالم الآن أزمة روحية ، منشؤها كفره بالمثل العليا التى جاء بها الدين من الحق ، والإنصاف ، والتسامح والإخاء .

فلا نجاة له مما يرتكس فيه إلا بالعودة إلى هذه المثل ، يهتدى إليها بفطرته ، كما يهتدى سبيله الجنين فى ولادته ، والفرخ من بيضته .

ومتى هُدِىَ العالم إلى الفطرة ؛ هُدِىَ إلى الإسلام ، فإن الإسلام هو دين الفطرة .

ولا بأس من سوق طائفة من الدلائل التى تفتق للذهن الغافل منافذ يبصر بها ويلتفت لما وراءها .

(أ) إن الإنسان لم يخلق نفسه ، ولم يخلق أولاده ، ولم يخلق الأرض التى يدرج فوقها ، ولا السماء التى يعيش تحتها .

والبشر الذين ادعوا الألوهية لم يكلفوا أنفسهم مشقة ادعاء ذلك .

فمن المقطوع به أن وظيفة الخلق والإبراز من العدم لم ينتحلها لنفسه إنسان ولا حيوان ولا جماد .

ومن المقطوع به كذلك أن شيئًا لا يحدث من تلقاء نفسه ، فلم يبق إلا الله . وقد قرر القرآن الكريم هذا الدليل :

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾ (الطور : ٣٥ ـ ٣٦) .

ويلفت أنظار العرب إلى مظاهر الإبداع فى المجتمع الساذج الذى يحيون فيه .

﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية : ١٧ ـ ٢٠) .

ويسمى هذا الدليل : دليل الإبداع .

(ب) لو دخل المرء دارًا ، فوجد بها غرفة مهيأة للطعام ، وأخرى للمنام ، وأخرى للنظافة ، وأخرى للضيافة . . . إلخ ، لجزم بأن هذا الترتيب لم يتم وحده ، وأن هذا الإعداد النافع لابد قد نشأ عن تقدير وحكمة ، وأشرف عليه فاعل يعرف ما يفعل . والناظر فى الكون وآفاقه ، والمادة وخصائصها ، يعرف أنها محكومة بقوانين مضبوطة ، شرحت الكثير منها علوم الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان والطب ، وأفاد منها الناس أجل الفوائد .

وما وصل إليه علم الإنسان من أسرار العالم حاسم فى إبعاد كل شبهة توهم أنه وجد كيفما اتفق .

كلا . إن النظام الدقيق المختفى فى طوايا الذرة مطرد فيما بين أفلاك السماء الرحبة من أبعاد .

﴿ **تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** ﴾ (الفرقان : ٦١ ـ ٦٢)

﴿ **اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (الجاثية : ١٢ ـ ١٣) .

وفى القرآن الكريم آيات شتى ، تقرر هذا الدليل ، **ويسمى : دليل العناية .**

(ج) هل فكرت فى هذه السيارات المنطلقة – أعنى هذه الكواكب التى تخترق أعماق الجو والتى تلتزم مدارًا واحدًا لا تنحرف عنه يمينًا ولا يسارًا ، وتلتزم سرعة واحدة لا تبطئ فيها ولا تعجل ، ثم نرتقبها فى موعدها المحسوب فلا تخالف عنه أبدًا ؟

إن الكرة تنطلق من أقدام اللاعبين ثم لا تلبث أن تهوى بعد تحليق ، أما هذه الكرات الغليظة الحجم ، الحى منها والميت ، المضىء منها والمعتم ؛ فهى معلقة لا تسقط ، سائرة لا تقف ، كل فى دائرته لا يعدوها .

وقد يصطدم المشاة والركبان على أرضنا وهم أصحاب بصر وعقل .

أما هذه الكواكب التى تزحم الفضاء فإنها لا تزيغ ولا تصطدم .

﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ (يس : ٣٨ ـ ٤٠) .

من الذى هيمن على نظامها وأشرف على مدارها؟ بل من الذى أمسك بأجرامها الهائلة ، ودفعها تجرى بهذه القوة الفائقة؟

إنها لا ترتكز فى علوها إلا على دعائم القدرة ، ولا تطير إلا بأجنحة أعارها لها القدر الأعلى .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾ (فاطر : ٤١) .

أما كلمة الجاذبية فدلالتها العلمية كدلالة حرف «س» على المجهول .

إنها رمز لقوانين تصرخ باسم الله ، ولكن الصمَّ لا يسمعون!

ويسمى هذا الدليل : دليل الحركة .

(د) لاشك أن لوجود كل واحد منا بداية معروفة .

فنحن قبل ميلادنا لم نكن شيئًا يذكر : ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ﴾ (الإنسان : ١) .

وعناصر الكون الذى نعيش فيه كذلك ، لها بداية معروفة .

وعلماء الجيولوجيا يقدرون لها أعمارًا محدودة ، مهما طالت ، فقد كانت قبلها صفرًا . وكان هناك ظن بأن المادة لا تفنَى ، اعتمد عليه فريق من الناس فى القول بقدم العالم ، وما يتبع هذا القدم الموهوم من أباطيل .

على أن تفجير الذرة هدم هذا الظن ، ولو لم يتم تفجيرها ما قبِلنا هذا الظن على أنه حقيقة ثابتة ، فإن المفتاح الذى يفتح على العالم أبواب الفناء ليس من الضرورى أن يضعه الله فى أيدى العلماء .

وعدم اهتداء الناس إلى ما يدمر مادة الكون لا يعنى أن مادة الكون غير قابلة للدمار والفناء .

ولم لا يكون ذلك حصانة أقامها القدر الأعلى ، حتى يمنع العالم من الانتحار؟ إننا جازمون بأن وجودنا محدث ، لأن تفكيرنا وإحساسنا يهدينا لذلك . وغير معقول أن يتطور العدم إلى وجود تطورًا ذاتيًا .

إنه إذا وقعت حادثة لم يظهر فاعلها قيل : إن الفاعل مجهول . ولم يقل أحد قط : إنها ليس لها فاعل . فكيف يراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وربه؟

إننا لم نكن شيئًا فكنا .. فمَنْ كوننا؟؟ ﴿ **قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** ﴾ (الأنعام : ٩١) .

ويسمى هذا : دليل الحدوث .

هل العالم خلق صدفة؟

نشوء حياتنا هذه ودوامها يقومان على جملة ضخمة من القوانين الدقيقة ، يحكم العقل باستحالة وجودها هكذا جزافًا !

فوضع الأرض أمام الشمس مثلاً . . . ثم على مسافة معينة لو نقصت ـ بحيث ازداد قربها من الشمس ـ لاحترقت أنواع الأحياء من نبات وحيوان .

ولو بعدت المسافة لعَمَّ الجليد والصقيع وجه الأرض ، وهلك كذلك الزرع والضرع . . أفتظن إقامتها فى مكانها ذاك لتنعم بحرارة مناسبة جاء خبط عشواء؟

وحركة المد والجزر التى ترتبط بالقمر !! أفما كان من الممكن أن يقترب القمر من أمه أكثر ، فيسحب أمواج المحيطات سحبًا يغطى به وجه اليابسة كلها ، ثم ينحسر عنها وقد تلاشى كل شىء؟

من الذى أقام القمر على هذا المدى المحدود ليكون مصدر ضوء لا مصدر هلاك؟ إننا على سطح هذه الأرض نستنشق «الأوكسجين» لنحيا به ونطرد «ثانى أكسيد الكربون» الناشئ من احتراق الطعام فى جسومنا .

وكان ينبغى أن يستنفد الأحياء ـ وما أكثرهم ـ هذا العنصر الثمين فى الهواء ، فهم لا ينقطعون عن التنفس أبدًا .

لكن الذى يقع أن النبات الأخضر يأخذ «ثانى أكسيد الكربون» ويعطى بدله «أكسجين» ، وبهذه المعاوضة الغريبة يبقى التوازن فى طبيعة الغلاف الهوائى الذى يحيا فى جوفه اللطيف الحيوان والنبات جميعًا !!

أفتحسب هذا التوافق حدث من تلقاء نفسه؟!

إنى أحيانًا أسرح الطرف فى زهرة مخططة بعشرات الألوان ألتقطها بأصابع عابثة من بين مئات الأزهار الطالعة فى إحدى الحدائق . .

ثم أسأل نفسى : بأى ريشة نسقت هذه الألوان؟ إنها ليست ألوان الطيف

وحدها . إنها مزيج رائق ساحر من الألوان التى تبدو هنا محففة ، وهنا مظللة ، وهنا مخططة ، وهنا منقطة .

وأنظر إلى أسفل ، إلى التراب الأعفر الذى اطَّلع على هذه الألوان ؛ إنه ـ بيقين ـ ليس راسم هذه الألوان ، ولا موزع أصباغها .

هل الصدفة هى التى أشرفت على ذلك؟ أى صدفة؟

إن المرء يكون غبيًا جدًا عندما يتصور الأمور على هذا النحو . . .

وألوان الزهرة هذه ملاحظة شكلية ساذجة بالنسبة إلى ملاحظة قصة الحياة فى أدنى صورها .

إن إنشاء الحياة فى أصغر خلية يتطلب نظامًا بالغ الإحكام .

ومن الحمق تصور الفوضى قادرة على خلق «جزىء» فى جسم دودة حقيرة ؟ فضلاً عن خلق جهازها الهضمى أو العصبى .

فما بالك بخلق هذا الإنسان الرائع البنيان الهائل الكيان .

ثم ما بالك بخلق ذلكم العالم الرحب . . ؟؟

لماذا يطلب منى ـ إذا رأيت ثوبًا مخيطًا أنيقًا ـ أن أتصور خيطًا قد دخل من تلقاء نفسه فى ثقب إبرة ، اشتبكت من تلقاء نفسها فى نسيج الثوب ، أو أخذت تعلو وتهبط صانعة الصدر والذيل والوسط والأكمام والأزرار ، والفتحات والزركشة والمحاسن . . إلخ؟

إن إحالة الأمور على المصادفات ضرب من الدجل العلمى ، يرفضه أولو الألباب . . لنفرض أن الآلة الكاتبة فى أحد الدواوين وُجدت بجوارها ورقة مكتوب عليها اسم (عمر) ، ماذا يعنى هذا . . .؟

أحد أمرين : أقربهما إلى البداهة هو أن خبيرًا بالكتابة طبع الاسم على الورقة . والأمر الثانى أن حروف الاسم تجمعت وترتبت وتلاقت هكذا جزافًا .

إن الفرض الأخير معناه من الناحية العلمية ما يأتى :

الابتداء بكتابة العين ، أو سقوط حرفها وحده على الورقة دون وعى يجوز بنسبة ١ إلى ٢٨ ـ وهو عدد حروف الهجاء العربية .

وسقوط حرفى العين والميم يجوز بنسبة (١) إلى ٢٨×٢٨

ونزول الحروف الثلاثة بعوامل الصدفة المحضة يجوز بنسبة ١ إلى ٢٨×٢٨×٢٨ أى بنسبة ١ إلى ٢١٩٥٢

وليس أغبى فكرًا ممن يترك الفرض الوحيد المعقول ويؤثر عليه فرضًا آخر لا يتصور وقوعه إلا مرة بين اثنتين وعشرين ألف مرة . . .

والصدف حين تخط على القرطاس كلمة عمر أقرب إلى الذهن من تصور الصدف هذه تخلق قطرة ماء فى المحيطات الغامرة ، أو حبة رمل فى الصحارى الشاسعة . . إن العلم برىء من مزاعم الإلحاد ، ومضاد لما يرسل من أحكام بلهاء . .

عقيدة الألوهيَّة عِندَ الفلاسِفَـةِ والعُلمَـاء

معرفة الله سبحانه وتعالى مركوزة فى كل طبع ، واسمه الكريم معروف فى كل لغة ، واختلاف الأجناس والألسنة لم يصرف الأفئدة والأفكار عن هذه الحقيقة الواحدة .

بيد أن هذه المعرفة المتصلة برب العالمين لم تأخذ امتدادها الكامل وسماتها الراشدة ، ولم تبرأ من الأوهام وتبعد عن الأهواء ، إلا عندما تلقاها الناس مصفاة من ينابيع الوحى ، وسمعوا آياتها تتلى من أفواه الأنبياء .

ولكن ذلك لم يمنع الكثير ممن لم يدخلوا فى نطاق الرسالات الأولى ، أو لم تبلغهم ـ على وجه صحيح ـ هدايات القرآن الكريم ، أن يفكروا فى الله من تلقاء أنفسهم ، وأن يطلقوا لعقولهم عِنان البحث .

والفلسفة الإلهية حافلة بالكثير من هذه الأفكار ، كما أن علماء الكون فى العصر الأخير قد تكلموا عن الله فى حدود ما هداهم إليه البحث المجرد فى آفاق الطبيعة وأسرارها ، وقوانينها .

والفلاسفة القدامى أسمَوا الله : الصانع ، والعقل الأول ، وواجب الوجود ، وسبب الأسباب ، وغير ذلك من الأسماء التى اصطلحوا عليها .

كما أن للعلماء المحدثين تصورات فى الألوهية التبس فيها الحق بالباطل كما سترى .

وعلة هذا اللبس ، أن هداية السماء لم تصحب العقل فى سيره .

ومن ثَمَّ أقرَّ العقل بالمبدأ الواجب ، وأخطأ فى التفاصيل المتعلقة به .

المهم أن العقل الذكى ، والبحث النزيه ، والفكرة المبرأة عن الغرض ، المستقيمة على النهج ، تتأدى بأصحابها- حتمًا- إلى الله ، وتوقفهم خاشعين أمام الشعور الغامر بعظمته وجلاله .

وإن من الغباوة والبلادة أن يظن السفهاء من الناس أن الإيمان وليد استغلاق

الذهن ، أو أن استبحار العلوم واتساع المعارف الإنسانية يخدش قاعدة الإيمان ، ويوهى الصلة بالإله الديان .

قال «هرشل» - من فلاسفة القرن الثامن عشر : «إنه كلما اتسع نطاق العلوم تحققت وكثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة ، وعلماء الأرضيات والهيئة والطبيعيات والرياضة يهيئون بمساعيهم واكتشافاتهم كل ما يلزم لإنشاء معبد العلوم؟ إعلاء لكلمة الخالق» .

وانظر إلى ما دُوِّنَ من آراء لسقراط عن تلميذه أفلاطون :

«هذا العالم يظهر لنا على هذا النحو الذى لم يترك فيه شيء للمصادفة ، بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية ، وتلك الغاية متجهة إلى غاية أعلى منها ، وهكذا يتم الوصول إلى غاية نهائية منفردة وحيدة» .

من أين نشأ هذا النظام الكامل فى تفرعاته ، المحفوف بالعظمة والجلال من نواحيه كافة؟ ليس من الممكن أن يُحمل ذلك على المصادفة .

فلو أمكننا أن نقول : إنه نشأ من تلقاء نفسه . لصح لنا أن نقول : إن ألواح «بوليكلت» و «زونكريس» حدثت من تلقاء نفسها .

وإذا ما نظرنا إلى أن العناصر التى تحتوى عليها الكائنات كثيرة إلى درجة لا يمكن أن يحصرها العقل ، كان من المحال أن نحمل وجود ذلك كله على المصادفة ، فلابد إذن من وجود عقل أعلى . . . وهو الصانع الوحيد .

لأن الطبيعة أثر يتجلى فيه الاتحاد الدال على وحدانية الصانع ، الذى ينفذ حكمه كنفوذ الفكر فى الحال بدون أى خطأ .

وهو حاضر غالب - أى عالم قادر - ومع هذا ، فمن المستحيل إدراكه بالحواس . . . فهو كالشمس التى تمس جميع الأبصار ، لكنها لا تبيح لأحد أن ينظر إليها . اهـ . من تاريخ التصوف للأستاذ «محمد على عينى بك» .

وقد شرح «لابلاس» دليل الحركة الكونية ، وأبان قوة هذا الدليل فى حسم الشبهات التى يثيرها الجاحدون ، فقال :

«أما القدرة الفاطرة فقد عينت جسامة الأجرام الموجودة فى المجموعة الشمسية

وكثافتها ، وثبتت أقطار مداراتها ، ونظمت حركاتها بقوانين بسيطة ، ولكنها حكيمة ، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس ، والتوابع حول السيارات بأدق حساب ، بحيث إن هذا النظام المستمر إلى ما شاء الله لا يعروه خلل» .

هذا النظام المستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه ، والذى يضمن استمرار المجموعة إزاء ما لا يعد ولا يُحْصَى من المخاطر المحتملة ، لا يمكن أن يحمل على المصادفات فى نظر «لابلاس» إلا باحتمال واحد فى أربعة تريليونات .

وما أدراك[1] ما أربعة تريليونات؟ إنه عدد من كلمتين ، ولكن لا يمكن أن يحصيه المحصى إلا إذا لبث خمسين ألف عام ، يعد الأرقام ليلاً ونهارًا على أن يعد فى كل دقيقة ١٥٠ عددًا .

وقال سبنسر :

«إننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الإدراك ، وأن الأديان كانت أول من قبل هذه الحقيقة العلوية ولقنها . ولكنها نشرت أول الأمر ممزوجة بالأباطيل» .

وسبنسر هذا غير متدين .

إن العقول السليمة تتلاقى على الحق ، وكلما ازدادت علمًا كان تلاقيها على الحق أيسر وأقرب . ومن أجل هذا رأينا العلماء بعد ذلك الانتكاس المادى الذى اعترى بعضهم فى أواخر القرن التاسع عشر يرجعون إلى التلاقى على الحق ، ويكادون يجمعون اليوم إجماعًا بلسان أكابرهم على أن هذه القوانين والنواميس التى نشأت على أساسها الحياة وتطورت ، تنطوى على وحدة فى القصد والإرادة ، والعناية ، والحكمة يستحيل معها على العقل السليم المفكر أن يؤمن بأن هذه الحياة خلقت وتطورت بالمصادفة العمياء . فهذا اللورد «كلفن» العالم الإنجليزى الكبير يعلن هذا الإيمان على الناس ، ويسخر من القائلين بالمصادفة فى خلق هذه الحياة ، ويعجب من إغضاء بعض العلماء عما فى آثار الحكمة والنظام من حجة دامغة ، وبرهان قاطع على وجود الله ووحدانيته ؛ حيث يقول : «يتعذر على الإنسان أن يتصور بداية الحياة أو استمرارها دون أن تكون هناك قوة خالقة مسيطرة . وإنى

(١) النقول المعزوة لأولئك العلماء عن كتاب «الدين والعلم» للمشير أحمد عزت باشا مع تعليقات يسيره له .

لأعتقد من صميم نفسى أن بعض العلماء فى أبحاثهم الفلسفية عن الحيوان قد أغضوا إغضاء عظيمًا مفرطًا عما فى نظام هذا الكون من حجة دامغة ، فإن لدينا فيما حولنا براهين قوية قاطعة على وجود نظام مدبر وخير . وهى براهين تدلنا بواسطة الطبيعة على ما فيها من أثر إرادة حرة ، وتعلمنا أن جميع الأشياء (الحية) تعتمد على خالق واحد أحدى أبدى» .

وهذا «أينشتين» العظيم يأتى من بعد «كلفن» ليقول :

«إن جوهر الشعور الدينى فى صميمه هو أن نعلم أن ذلك الذى لا سبيل لمعرفة كنه ذاته موجود حقًا ، ويتجلى بأسمى آيات الحكمة وأبهى أنوار الجمال .

وإننى لا أستطيع أن أتصور عالمًا حقًا لا يدرك أن المبادئ الصحيحة لعالم الوجود مبنية على حكمة تجعلها مفهومة عند العقل . فالعلم بلا إيمان يمشى مشية الأعرج ، والإيمان بلا علم يتلمس تلمس الأعمى» .

فهل تريد أحسن من هذا التلاقى بين عقول العظماء وبين القرآن الذى يقول لنا : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر : ٢٨) .

ولبعض الناس - مع إيمانهم بالألوهية - أفكار خاطئة فى تصورها ؛ كتب «كميل فلامريون» فى كتاب (الله فى الطبيعة) : « إذا انتقلنا من ساحة المحسوسات إلى الروحيات فإن الله يتجلى لنا كروح دائم موجود فى حقيقة كل شىء . ليس هو سلطانًا يحكم من فوق السماوات ، بل نظام مستتر مهيمن على جميع الموجودات!

ليس مقيمًا فى جنة مكتظة بالصلحاء والملائكة!! بل إن الفضاء اللانهائى مملوء به .

فهو موجود مستقر فى كل نقطة من الفضاء ، وفى كل لحظة من الزمان ، أو بتعبير أصح : هو قيوم لانهائى ، منزه عن الزمان والمكان والتسلسل والتعاقب .

ليس كلامى هذا من جملة عقائد ما وراء الطبيعة المشكوك فى صحتها ، بل من النتائج القاطعة التى استنبطت من القواعد الثابتة للعلم كنسبية الحركة وقدم القوانين .

إن النظام العام الحاكم فى الطبيعة ، وآثار الحكمة المشهودة فى كل شىء ، المنتشرة كنور الفجر وضياء الشفق فى الهيئة العامة ، لاسيما الوحدة التى تتجلى

فى قانون التطور الدائم ، تدل على أن القدرة الإلهية المطلقة هى الحوافظ المستترة للكون ، هى النظام الحقيقى ، هى المصدر الأصلى لجميع القوانين الطبيعية وأشكالها ومظاهرها » .

والقائل فيلسوف ينكر اليهودية والنصرانية ، ولا يعرف الإسلام ؛ ولكنه يعرف الله الواحد من إدمانه النظر فى العلوم والأكوان . وأمثاله كثيرون .

وفكرة هذا العالم عن الألوهية تظهر فى فلسفة وحدة الوجود ، وهى فلسفة ندَّت عن الصواب ، وإن تعلّق بها بعض القدامى من فلاسفة الهنود ، وسرت عدواها إلى التصوف الإسلامى ، فَشَرَدَتْ به عن الحق ، وعن تعاليم الإسلام . وأفكار أولئك الباحثين لو أنها ضبطت بتعاليم الوحى ، ومشت فى هدى الشريعة ؛ لاستقامت مع ما ذكر القرآن الكريم عن الله عز وجل من صفات ، وما نسب إلى ذاته العظمى من نعوت الجلال والجمال .

وحسب أولئك ـ وإن لم يعرفوا الحق كاملاً ـ أن لاح منه بريق فأقروا ولم ينكروا .

ولئن صدقوا ما عرفوا ، إنهم أهل للإيمان الصحيح الكامل ، لو أتيحت لهم آياته ، ويسرت لهم رسالاته ، أى لو أتيحت لهم معرفة الإسلام الصحيح من خلال الكتاب والسنة .

ومع زحمة الوجود بالدلائل المؤيدة لعقيدة الألوهية ، وانتصاب الشواهد المتكاثرة فى الآفاق ترشد الناس إلى رب العالمين ، فإن العالم لم يخل من منكرين يجحدون الحق ويكفرون بالله .

وقد استقصينا أقوال هؤلاء فلم نر بها إلا الإنكار المجرد والعناد السمج .

يقول «يوخنز » عميد العلماء الماديين فى العصر الماضى : «من الممكن إرجاع ظهور الأجرام السماوية وانتشارها وحركاتها إلى أصول بسيطة من الممكنات ، فلا يبقى إذن محل للاعتقاد فى قوة خالقة مشخصة» .

ويقول : «إن الإنسان محصول المادة وليست له خاصة فكرية على النحو الذى يصور الروحانيون »

ويقول ماضيًا فى إنكار الروح ، ومصورًا العقل الإنسانى بصورة مادية : «إن الكبد والكليتين تفرزان مادة مرئية دون أن نعلم نحن بذلك .

أما الحركة الدماغية فلن تكون خارج إرادتنا وإدراكنا ، والدماغ يفرز قوة بدل المادة (!) . . .» .

ويقول « بروسيه» مؤيدًا هذا التفسير المادى للروح والعقل : «إن الذكاء والحساسية عمل من أعمال الأجهزة العصبية ، كما أن تحويل المأكولات إلى دم يندفع فى العروق عمل الأجهزة الهضمية والتنفسية . .» .

كتبت جريدة طبية مقالة ذكرت فيها أن «الفكر تركيب يشبه حمض فورميك والتفكير تابع للفوسفور!

والفضيلة والصداقة والشجاعة ما هى إلا تيارات كهربية للأعضاء الإنسانية» .

يبدو أن ذلك الفيلسوف يقر مرغمًا ـ من قبيل إنطاق الحق له ـ (بأنا) التى ينكرها [(١)]» .

ثم إنهم يقولون : «إن القوة لا تنفصل عن المادة ـ كما يقررون ـ فأين مادة القوة التى يفرزها الدماغ؟» .

الحق أن الإلحاد الذى يشيع بين طوائف المتحذلقين والمتنطعين لا يستند البتة إلى ذرة من المعرفة أو التفكير السليم .

هذه هى الصورة التى يقدمها الملحدون للإنسانية ومعنوياتها ! وهذه هى أدلتهم على إنكار ما وراء المادة ، وعلى رفض الإيمان بالله العلى الكبير .

وقد سميناها أدلة تجوزًا ، وإلا فأى أمارة على الفهم الصحيح فى هذا اللغو القبيح؟ ومتى كان التشكيك والفرض والتوهم أدلة محترمة؟

إنه من المقطوع به عقلاً أن العدم لا يتحول إلى وجود ولا يخلق وجودًا .

فإذا قيل : إن العالم مفتقر فى إحداثه إلى سبب ، وإن الأحياء محتاجة فى وجودها إلى خالق ؛ قيل : بل يجوز أن يتم ذلك من تلقاء نفسه .

وإذا كانت حركة المرور فى القاهرة – مثلاً– تتطلب فرقة من الجنود لتنظيمها وإلا لسرت الفوضى فى أرجائها ، فهل يستغرب القول بقدرة منظمة مشرفة على الألوف المؤلفة من الكواكب السيارة فى الفضاء؟

---

(١) أى : أنه يعترف من حيث لا يدرى بأن هناك روحاً ، لأن هناك من يلاحق الحركة الدماغية ويبدى بشأنها رأياً .

وهل يعتبر القول بأن المصادفات المخصصة هى التى تتولى هذا التنظيم . . هل يعتبر إلا لغوًا ومجونًا ؟

ثم ما هذه السخافات الزاعمة بأن الفضائل والرذائل اهتزازات كهربائية للأعضاء والأجهزة الجثمانية ؛ لأنه لا روح - كما يقولون ! يجيب «كميل فلامريون» - متهكمًا - فيقول : «ما معنى إفراز القوة ؟ ولم لا يفرز الدماغ كيلومترات أو فراسخ؟» .

ويقول المشير (أحمد عزت باشا) : «من حيث إنه لا روح ولا نفس ناطقة ، فمن الذى يشعر بما تفرزه الحركة الدماغية؟ ومَن الذى لا يشعر بها؟ وما معنى كلمة «نحن» التى يستعملها ذلك المتكلم؟ (يوخنز السابق) .

لا ريب فى وجود الله

نيويورك ـ رويتر ـ استفتت مجلة «كوليرز» المعروفة عددًا كبيرًا من علماء الذرة ، والفلك ، وعلم الأحياء «البيولوجيا» والرياضة ، «فأكدوا أن لديهم أدلة وقرائن كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ، ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى لا حدَّ له» .

ويقول الدكتور «راين» إنه ثبت من أبحاثه فى المعامل : أن فى الجسم البشرى روحًا أو جسمًا آخر غير منظور .

وقال عالم آخر : «إنه لا يشك فى أن الكائن الأعظم ـ وهو ما تسميه الأديان السماوية «الله» ـ هو الذى يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة فى هذا الوجود» .

***

ونشرت جريدة (المصرى) هذا التلغراف الذى أذاعته (رويتر) على العالم كله . وقد قرأته كغيرى ، وشعرت بعاطفة من السرور تغمرنى ؛ لأن أولى العلم وأرباب البحث لمسوا ـ ولا أقول عرفوا ـ آثار الحقيقة العليا ، وبدأ إيمانهم بالله يتركز على أساس من التجربة المادية والإحساس النفسى .

أتعرف ما الإلحاد؟ أن يسفه المرء نفسه ، ويركب رأسه ، ويغمض عينيه عن كل ما حوله ، ثم يصدر الأحكام جزافًا ، لا تخضع لمنطق ، ولا يربطها فكر سليم .

وعندما جاء القرآن الكريم ليأخذ بأيدى الناس إلى الحق المبين لم يكلفهم عسرًا ، ولم يزد أن طلب إليهم فتح أبصارهم على آفاق السماء ، وفجاج الأرض ، وخواص الأشياء .

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . . . ﴾ (يونس : ١٠١) .

﴿ أَوَلَمْ ينظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ . . . ﴾

(الأعراف : ١٨٥)

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾ (الروم : ٨) .

فإذا أرسل المرء نظراته الفاحصة يستقصى بها أنباء الوجود ، ويستكنه أسرار الحياة ، فسيرجع - بعد جولة قريبة - بهذه الحقيقة المشرقة اللامعة ، الحقيقة التى أجملتها الآية الكريمة : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ (الزمر : ٦٢ ــ ٦٤)

إن للإلحاد شبابًا ممسوخًا فى بلادنا ، يعرف قشورًا من العلم ، ويتعلق بأوهام لا وزن لها عند أولى الألباب .

تراه يتكلم عن الألوهية والدين والوحى ، فيلوى لسانه بعبارات مشحونة بالغرور والادعاء ، وليس وراءها إلا ما يذكرك بقول الله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (الحج : ٨ ــ ٩) .

إلى هؤلاء الشباب ممن يظنون العلم طريق الإلحاد ، نسوق إليهم نتائج البحوث التى وصل إليها سادتهم عن أصل الحياة .

لماذا كفروا ؟

قال الإمام الغزالى فى (الإحياء) : «اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى ، وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أولى المعارف وأسبقها إلى الأفهام ، وأسهلها على العقول ، ولكن ترى الأمر بالضد من ذلك! فلابد من بيان السبب فيه .

وإنما قلنا : إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا نفهمه إلا بمثال ، وهو أنا إذا رأينا إنسانًا يكتب أو يخيط - مثلاً - كان كونه حيًا عندنا من أظهر الموجودات!

فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة ؛ إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه ، كل ذلك لا نعرفه .

وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها ، وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته ، وغير ذلك من صفاته .

أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانًا ؛ فإنه جلِىٌّ عندنا ، وإن كنا لا نرى بأعيننا حياته وقدرته وإرادته ، فإن هذه الصفات لا تحس بشىء من الحواس الخمس ، ولا يمكن أن تُعْرف حياته

وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته .

ولو نظرنا إلى كل ما فى العالم سوى هذه المظاهر لم نعرف به شيئًا من صفاته .

فما عليه إلا دليل واحد هو عمله بيديه ، وهو مع ذلك الدليل الواحد على وجوده يوصف بأنه موجود جلِىٌّ واضح .

فماذا يقول المرء فى وجود الله الذى لا تحصى أدلته لكثرتها ؟

وماذا يقول فى أوصافه التى يشهد كل شىء بعظمتها ؟

إن وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له - بالضرورة - كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة .

كل ما نشاهده من حجر ومدر ، ونبات وشجر وحيوان ، وسماء وأرض ، وكوكب ، وبر وبحر ، ونار وهواء ، وجوهر وعرض .

بل أول شاهد عليه أنفسنا نحن وأجسامنا وأوصافنا ، وتقلُّب أحوالنا وتغير قلوبنا ، وجميع أطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا .

وأظهر الأشياء فى علمنا أنفسنا ، ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ، ثم مدركاتنا

بالعقل والبصيرة .

وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد ، وشاهد واحد ، ودليل واحد ، وجميع ما فى العالم شواهد ناطقة ، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ، ومصرفها ، ومحركها ، ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته ، والموجودات المدركة لا حصر لها .

فإن كانت حياة الكاتب[1] ظاهرة عندنا ، وليس يشهد إلا شاهد واحد ، وهو ما أحسسنا به من حركة يده .

فكيف لا يظهر عندنا ما لا يُتصوَّر فى الوجود شىء ـ داخل نفوسنا وخارجها ـ إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله؟

إذ كل ذرة فينا نحن البشر تنادى بلسان حالها ، أنه ليس وجودها بنفسها ، ولا حركتها بذاتها ، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها .

يشهد بذلك أولاً تركيب أعضائنا ، وائتلاف عظامنا ولحومنا ، وتكوين أعصابنا ، وانسياب شعورنا ، وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة . . .

فإنا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها ، كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها . ولكن لما لم يبق فى الوجود شىء مدرك ، محسوس أو معقول ، حاضر أو غائب إلا وهو شاهد ومعرف له عظم ظهوره سبحانه ، فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه» .

ثم قال الغزالى موضحًا علة هذا القصور :

«ذلك ، وما تقصر عن فهمه عقولنا له سببان :

أحدهما : خفاؤه فى نفسه وغموضه ، وذلك لا يخفى مناله .

وثانيهما : ما يتناهى وضوحه !!

إن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ؛ لا لخفاء النهار واستتاره ، لكن لشدة ظهوره ، فإن بصر الخفاش ضعيف ، يبهره نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببًا لامتناع إبصاره ، فلا يرى شيئًا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره .

فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الإلهية فى نهاية الإشراق والاستنارة ، وفى غاية الاستغراق والشمول . . حتى لم تشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والأرض :

فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره ، واختفى عن

---

(١) فى المثال السابق .

البصائر بظهوره .

ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فإن الأشياء تُستبان بأضدادها ، وما عم وجوده حتى إنه لا ضد له - يعسر إدراكه .

فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أُدركت التفرقة عن قرب ، ولكن لَمَّـا اشتركت فى الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر .

ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض ، ما كان أيسر جحوده لو أنه دائم البقاء وما أكثر الكافرين به ، لكن لنور الشمس حالاً أخرى . . .

فإنا نعلم أنه عَرَض من الأعراض ، يحدث فى الأرض ، ويزول عند غيبة الشمس .

فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها ، لكنا نظن أنه لا هيئة فى الأجسام إلا ألوانها : وهى السواد والبياض وغيرهما .

فإنا لا نشاهد فى الأسود إلا السواد ، وفى الأبيض إلا البياض .

فأما الضوء فلا ندركه وحده .

ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين .

فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء ، واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب .

عرفنا وجود النور بعدمه ، وما كنا نطَّلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ؛ وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة فى الظلام والنور .

هذا مع أن النور أظهر المحسوسات ، إذ به تدرك سائر المحسوسات ، فما هو ظاهر فى نفسه هو مظهر لغيره .

انظر كيف تُصُوِّر استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده؟

فالله تعالى هو أظهر الأمور ، وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدمت السماوات والأرض ، وبطل الملك والملكوت ، ولأدركت بذلك التفرقة بين الحالين .

ولو كان بعض الأشياء موجودًا به ، وبعضها موجودًا بغيره ؛ لأدركت التفرقة بين الشيئين فى الدلالة .

ولكن دلالته عامة فى الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم فى الأحوال يستحيل خلافه .

فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء ، فهذا هو السبب فى قصور الأفهام» . انتهى ما جاء فى «الإحياء» مع تصرف لإيضاح المقصود .

هـو الأول

وجود الله سبحانه وتعالى ممتد فى القدم ، بحيث لا يتصور قبله وجود قط .

وما دام كل وجود قد نشأ عنه ، فالله تعالى أسبق منه ، ونحن لا نعرف عن الأول شيئًا ، إذ عهدُنا بالوجود قد حدث بعد ميلادنا .

عن أُبى بن كعب رضى الله عنه ، أن المشركين قالوا للنبى ﷺ : انسب لنا ربك . فنزل : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ** ﴾ (الإخلاص : ١ ـ ٣) لأنه ليس شىء يولد إلا وسيموت ، وليس شىء يموت إلا سيورث ، إن الله تعالى لا يموت ولا يورث .

﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ (الإخلاص : ٤) قال : لم يكن له شبيه ولا عديل وليس كمثله شىء .

إن أولئك المشركين نظروا إلى الألوهية بعقولهم القاصرة ، وقاسوا وجودها المطلق على وجودنا المحدود ، فتوهموا أن له أولاً .

وليس الأمر كما يتوهمون . إن لوجودنا المادى أولاً ؛ لأننا نحس بذلك وندركه عن يقين ، ونجزم باستحالة غيره .

أما الوجود الإلهى فقديم لا أول له .

وقد تمر بالخاطر هواجس فنتساءل عن أسرار هذا الأزل الغامض على عقولنا ، وذلك من استشراف العقل إلى اكتناه ما يعجزه ، ولا يقدح ذلك فى صحة الإيمان .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، «**أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوه: إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؟ قال: أوجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الإيمان**» (أى : كراهتكم لتلك الوسوسة صريح الإيمان ، والصريح : الخالص من كل شىء) .

وفى رواية أخرى : «**الحمد لله الذى رد كيده ـ الشيطان ـ إلى الوسوسة**» .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : «... **قالوا: يا رسول الله، إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة، أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، قال: ذلك محض الإيمان**» .

إن تاريخ الإنسان والعالم والحياة كلها جد بعد عدم لا يُدرى مداه .

وربما استطاع الإنسان إدراك أعراض يسيرة فى بيئته المحدودة ، أعراض تمس يومها الحاضر ، أو أمسها القريب ، أو غدها الموشك .

وقد يكون من هذه الأعراض المدركة جملة من المعارف النافعة . . .

ثم تقف بعد ذلك أشعة بصيرته فلا تستطيع حراكًا ولا إدراكًا . .

فإذا كانت تلك حدود قدرته العقلية فى عالم الشهادة ، فلا جرم أنه يكون فى عالم الغيب أعجز ، وعن فهمه أقصر .

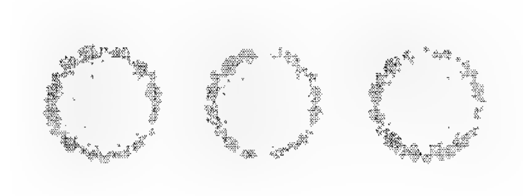
وراكب السفينة قد يستطيع التجوال فيها ، فإذا بدا له أن يقذف بنفسه فى أغمار اليم فقلما يعود .

وعقلنا فى قوته المحدودة كبصرنا الذى لا يقرأ إلا على أشبار ، فإذا ابتعد الخط عنه مسافة لم يميز منه حرفًا .

كذلك لا يستطيع العقل أن يدرك إلا فى دائرة وجوده الضيقة : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾(الإسراء : ٨٥) .

ومن ثم فنحن نؤمن بقدم الذات الإلهية وامتداد هذا القدم فى أغوار الأزل الذى لا نعرف عنه كنهه .

. . . ذلك وطبيعة الوجود المحدث تقتضى البداية والنهاية ، أما مَن وجوده مِن ذاته فحقه أسمى من أن يسبقه أو يطرأ عليه عدم .



والآخـــــر

والله سبحانه باق أبدًا ، إنه ليس جسمًا فيموت ، ولا مادة فتتحلل وتذوى ، إنه الدائم الذى يصير إليه كل شىء .

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص : ٨٨) .

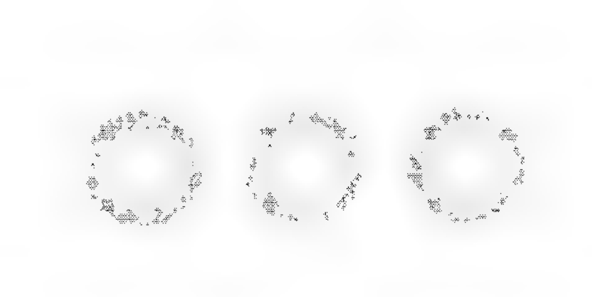
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ (الفرقان : ٥٨)

وذو الوجود الخالد المتأبى على الفناء قد يمنح للأخيار من عباده الخلود فى جنات النعيم .

فهذا الفضل الممنوح لا يعنى أن بشرًا أصبح حقيقًا بوصف الباقى والآخر .

فالأمر كما قلنا : إن وجود الله عز وجل واجب له من ذاته لا ينفك عنه أبدًا .

أما ما عداه فهو صفر إن لم تدركه نعمة الوجود المفاض عليه من الخالق جل علاه .



حاجة العالم إلى الله

قد يشرف المهندسون والبناءون على تشييد عمارة ضخمة ، ثم ينفضون أيديهم منها ، أو يموتون عنها . وتبقى العمارة بعدهم أمدًا بعيدًا ، قائمة الجدران ، مستوية الأركان .

إن هذه العمارة لم تخلق من عدم ، والفَعَلة فيها لم يزيدوا على أن ضموا حجرًا حجرًا ، ثم انتهى عملهم إلى هذا الحد .

أما بناء هذا الكون الفسيح ، وتشييد سقفه المحفوظ ، وتمهيد أرضه وتهيئتها للعمران ، فهو عمل آخر أساسه الإبداع من العمل المطلق .

وكما أن العالم فى وجوده احتاج إلى ربه ، فهو فى بقائه يحتاج إليه لحظة بعد لحظة .

ولا توجد ذرة فى الأرض ولا فى السماء تستمد وجودها من ذاتها ، حتى يتصور استغناؤها بنفسها ، بل على العكس ، هذا الوجود المفاض عليها يتلاشى ويضمحل إذا شاء مفيضه أن يحرمها منه ، مثلما يتقلص الظل إذا ذهب ما يلقيه .

لن يكون نهار إلا مع وجود الشمس ، ولن يكون عالم إلا مع وجود الله .

﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ﴾(النحل : ٦٠) ، **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾**(فاطر : ١٥ ـ ١٧) .

فالعقول وما يتردد فيها من أفكار ، والقلوب وما يتجدد فيها من مشاعر ، والأجسام وما يتدفق فيها من دماء ، وما يتحرك فيها من أجهزة وعضلات ، فى كل بلد ، بل فى كل قارة ، منذ بدء الخلق وإلى قيام الساعة ، ما نعرف وما لا نعرف ، إنما يقوم بقيام الله عليه ، ولو شاء تركه لأصبحنا ولما وجدنا وقتًا نفكر فيه بأننا فنينا ، لأننا سنكون فنينا فعلاً .

إن الأرض التى تسير عليها بقدميك لا تمسك نفسها تحتك ، فهى لا تشعر بك ، ثم هى لا تصنع شيئًا من الحبوب والفواكه التى تغلها .

فأنَّى لها الخلق والإتقان وهى جامدة هامدة لا تحس ولا تعلم؟

إن الإمداد الإلهى وحده هو الذى قام ويقوم بما ترى ، قيامًا لا تتوهم معه غفلة ولا تفريط ولا فتور ، وإلا لهلكنا واختل كل شىء !!

الفارق بين وجودنا ووجود الله ، أن الله تبارك وتعالى وجوده واجب له من ذاته .

أما نحن فليس لنا من ذواتنا شىء قط ، إن منحنا نعمة الوجود بقينا ما بقيت مُعارة لنا ، وإلا اختفينا فلم يمسكنا شىء .

ومن هنا نعرف أن لله صفات كثيرة ، توضح معالم كماله ، نذكر منها ما يلى :

ليس كمثله شىء

مخالفة الذات الإلهية لغيرها من المحدثات ظاهرة ، والبداهة تقضى بأن بين المخلوق والخالق أمدًا بعيدًا ، وأن الخالق لا يشبه شيئًا من خلقه ، لا فى ذاته ، ولا فى صفاته .

وقد وصف الله عز وجل نفسه بصفات كثيرة ، من الصعب إدراك حقيقتها على النحو الذى ندرك به أمورنا المعتادة ، بل هذا مستحيل .

من أين للتافه أن يعرف كُنْه العظيم؟

إن النملة لا تعرف حقيقة الإنسان ، فحدود عالمها الذى تعيش فيه تقفها دون ذلك . والطفل - فى المرحلة الأولى من عمره - لا يعرف ما الرجولة ، ولا ما يصحبها من سعة عقل ، واستحكام إدراك .

بل إن الإنسان عاجز عن إدراك حقيقة الوجود المادى الذى يعيش فيه ، فكيف يعرف ما وراءه من غيوب؟

إذا قيل : إن الله يسمع ، فليس ذاك بأذن كآذاننا . أو يرى ، فليس ذلك بعين كأعيننا . وإذا قيل : إنه بنى السماء ، فليس على النحو المألوف من تكليف فَعَلة واستحضار أدوات . وإذا قيل : يده فوق أيدينا ، فليس الوصف لجارحة كأعضائنا . والذى نوقن به ابتداء ، أن صفات المحدَثين وأحوالهم لا يجوز أن تنسب إلى الله ؛ فهو- سبحانه وتعالى- غَيْرُ مخلوقاته .

وشأن الألوهية أسمى مما تتصور الأذهان الكليلة والعقول القاصرة .

وقد وردت فى الوحى الكريم كلمات عن الوجه ، واليدين ، والأعين والاستواء على العرش ، والنزول إلى السماء ، والقرب من العباد . . . إلخ ، حاول كثير من المسلمين استكناه دلالتها واستكشاف حقيقتها ، فلم يرجعوا إلا بالحيرة ، حتى قال قائلهم :

نهايةُ إقدامِ العقولِ عِقالُ ... وآخِرُ سَعْىِ العالمين ضلالُ!
ولم نستفِدْ مِنْ بحثِنا طُولَ عُمْرنا ... سوى أنْ جمَعْنا فيه قيل وقالوا!
وكم مِن جبالٍ قد علا شُرُفَاتِها ... رجالٌ فبادوا والجبالُ جبالُ!

ولا غرو ، فإن البحث عبث فيما لا يملك المرء وسائل الخوض فيه .

إن الكيمائى قد يعرف خواص سائل أو غاز يقلبه تحت يده ، ويُجرى عليه ما شاء من تجارب - فكيف يجوز للعباد أن يتدخلوا بالبحث النظرى فى شأن الألوهية لينكروا أو ليثبتوا؟ وشأن الألوهية بالنسبة إليهم عزيز المنال ، والحق يقول - فى كلامه عن ذاته وصفاته : ﴿ **هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾ (آل عمران : ٧) .

وعلى ذلك فكل ما قطعنا بثبوته فى كتاب الله وسنة رسوله مما وصف الله به نفسه وأسنده إلى ذاته ؛ قَبِلْناه على العين والرأس ، لا نتعسف له تأويلاً ولا نقصد به تجسيمًا ولا تشبيهًا ، ويحتاج الكلام فى هذا الموضوع إلى زيادة بيان :

إن اللغات من وضع الناس على مر الزمان .

فنحن العرب وضعنا كلمة «أذن» مثلاً لهذا التجويف أيمن الوجه أو أيسره الذى نسمع عن طريقه الأصوات ونتبين الكلمات . . .

وقد وضع غيرنا من أبناء اللغات الأخرى كلمات تدل على هذه الحاسة غير الكلمة المتداولة بيننا ، والمهم أن هذه الألفاظ الموضوعة استحدثها الناس لمفاهيم مادية أو معنوية مارسوها وألفوها ، ومن هنا فالمجىء بهذه الكلمات للدلالة على أمور مغيبة ليس إلا من قبيل التقريب للذهن ، ولا يمكن أن تكون هذه العبارات التى صنعناها نحن بيانًا للمحسوسات أو المعقولات المأنوسة لنا فى عالمنا وصفًا حقيقيّا لعالم ما وراء المادة .

على ضوء هذا الملحظ نفهم حديث أى لغة عن الله جل شأنه ، وعن صفاته العليا ، إن الأمر لا يعدو تقريب الحقائق المطلقة لوعينا المحدود .

والله أكبر من أن تحيط بعظمته عقولنا ، أو تستوعب كمالاته أقدارنا .

ولغات البشر أجمع قوالب صالحة لما يدور فى حياتهم من تفاهم ، ولكنها دون ما ينبغى لذات الله من تجلية وإدراك .

وقد اتفق المسلمون سلفهم وخلفهم على ذلك ، ولكن اختلفت مناهجهم فى التنزيه والتمجيد .

فمنهم من وقف عند ظاهر النص ، ولكنه قال : ليس هذا الظاهر على ما نألف فى فهمنا المادى للأمور .

ومنهم من قال : إن هذا الظاهر ليس مرادًا والمقصود كذا . . .

والهدف واحد تقريبًا .

إذا جاء فى القرآن الكريم مثلاً : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ (طه : ٣٩) قال الأولون : إن له عينًا ليست كأعيننا .

وقال الآخرون : إنما هى الرعاية والحفظ . . .

كلا الفريقين يوافق الآخر على تنزيه الله ونفى شبهه بالحوادث ، ولكن أسلوب التنزيه عند هذا غيره عند ذاك .

***

وكنت أود لو كف المسلمون الأوائل عن خوض معارك الجدل فى الموضوع ، أو لو استبان بعضهم وجهة نظر الآخر بدقة .

وأنا شخصيًا أوثر مذهب السلف ، وأرفض أن يشتغل العقل الإسلامى بالبحث المضنى فيما وراء المادة ، وأرتضى قبول الآيات والأحاديث التى تضمنت أوصافًا لله جل شأنه ـ دون تأويل .

ولئن كنا نسلك هذا المسلك فى تقديس الذات ونسبة الصفات ، إننا لا نحب أن نتخذ منه ذريعة لتكفير من قصدوا إلى تنزيه الله عن طريق التأويل ، وصرف الآثار الواردة إلى المجاز لا إلى الحقيقة .

فإن الذين أوّلُوا فعلوا ذلك خشية أن يؤول أمر الألوهية إلى مثل ما عليه اليهود والنصارى ، من تجسيم زرى ، وأحوال مضحكة .

إن التوراة تحكى : أن صراعًا نشب بين الرب ويعقوب ، لم يفلت منه الرب إلا بصعوبة ، وبعدها قدم ليعقوب لقبه المعروف «إسرائيل» ، وكلام الإنجيل عن الله يخيل إليك أنه رب أسرة من ولد ووالدة !

فجنوح المؤولين ـ عندنا ـ إلى المجاز ، قد يكون هناك ما يُعتذر به عنهم .

بَيْدَ أننا لاحظنا أن هذا التنزيه والتأويل والانصراف الدائم عن الحقيقة إلى المجاز قد جنى على أصل الإيمان لدى جمهور العامة ، وجعل فكرتهم غامضة عن إله :

لا هو فى السماء ولا هو فى الأرض ، ليست له يد ، ولا عين ، ولا وجه ، لا يوصف بفرح ولا رحمة ولا ضحك ، ولا ولا ، مما وصف به نفسه .

والخطة المثلى أن نتقبل ما ورد به الشرع وألا نتكلف علم ما لم نطالب بعلمه مما يدق عن الأفهام .

وهناك فرق بين أن يحكم العقل باستحالة شيء وأن يعلن عجزه عن فهم شيء . فالعقل يحكم بأن اجتماع النقيضين مستحيل .

فالضوء ـ مثلاً ـ لا يكون موجودًا وغير موجود فى وقت واحد .

ولكن العقل الذى يحكم باستحالة هذا ، يعجز عن فهم حقيقة الضوء ما هى؟ وما كنهها؟ وما انتقالها بهذه السرعة الهائلة؟

وهذا العجز الظاهر لا يمس حقيقة الضوء ، ولا يمس وجودها .

فعدم علمك بشيء ، ليس علمًا بعدم ذلك الشيء .

وللأستاذ عبد الكريم الخطيب كلام فى هذا الموضوع ننقله إتمامًا للفائدة . . .

قال : والذات الإلهية ليست ذاتًا مبهمة مجهلة ، كما أنها ليست محدودة مجسدة .

هى «ذات» لا كالذوات التى يراها الحس أو يتخيلها الوهم ؛ لأنها لو وقعت فى دائرة الخيال – مهما امتد واتسع – كانت بهذا المعنى محددة مقيدة . .

وذات الله – مع أنها فوق أن تدرك ، وفوق أن تحد – قد وصفت فى القرآن بصفات كثيرة كالإرادة ، والعلم ، والقدرة ، وغيرها . وهى صفات كاملة الكمال المطلق .

ومع هذا فلابد أن تضاف إلى «ذات» كما تضاف مثل هذه الصفات وغيرها إلى ذواتنا ، مع الفارق البعيد بين كمالها فى ذات الإله ، ونقصها فى ذات الإنسان!

جاء فى القرآن الكريم كثير من هذه الآيات التى تضيف إلى الله صفات عاملة فى الوجود ، كقوله تعالى فى أول ما نزل من الكتاب : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ (العلق : ١ ـ ٥) .

ففى الآيات تعريف بذات الله ، وأنها تخلق وتعلم .

وكقوله تعالى : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ (البقرة : ١٨٥) .

فالله سبحانه وتعالى مريد . وبإرادته تتعلق مصاير الأمور .

وكقوله جل شأنه : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (الرعد : ٨ ، ٩) .

فالله في هذه الآيات يعلم وهو حكيم . . . وكل شيء عنده بمقدار ، وقد وصف نفسه بأنه الكبير المتعال .

وكقوله سبحانه : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ (الشورى : ١٩) . فالله لطيف . وقوي . وعزيز .

وكقوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (المجادلة : ١) .

فذات الإله ذات تسمع كل شيء ، وترى كل شيء .

ويقول جل شأنه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران : ٥ ، ٦) .

وأكثر فواصل القرآن تنتهي بصفة من صفات الله تعالى ، أو المزاوجة بين صفتين من صفاته .

فمن النوع الأول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (النساء : ٣٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ (النساء : ١٢٦) .

ومن النوع الثاني وهو الأعم الأغلب قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء : ٩٦) ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ (النساء : ٣٤) ، ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٤٧) ، ﴿ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران : ١٨) ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (الإسراء : ٣٠) .

ولا شك أن هذه الصفات - كما قلنا - كلما ذكرت ذكر معها «ذات» تعمل في الوجود بهذه الصفات ، وأن تلك الصفات لابد أن تضاف إلى ذات تقوم بها .

وأكثر من هذا ، فقد جاء فى القرآن آيات تذكر «للذات» يدًا ، وعينًا ، ويدين ، وأعينًا كقوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾(طه : ٣٩) ، وقوله : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾(الفتح : ١٠) ، وقوله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾(المائدة : ٦٤) .

وقوله : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾(هود : ٣٧) .

كذلك ورد فى السنة المطهرة أحاديث تذهب هذا المذهب ، كقول الرسول الكريم : « **خلق آدم على صورة الرحمن** » . وقوله ﷺ : «**لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد. حتى يضع رب العزة قدمه فيها، فتقول: قط قط (كفى كفى) وعزتك. فيزوى بعضها إلى بعض**». وقوله : «**قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يصرفه كيف يشاء**» !!

فهذه الآيات وأمثالها لا يمكن أن يقرأها قارئ أو يستمع إليها مستمع دون أن تتحرك فى ذهنه صور لهذه الصفات ، وأن يكون لهذه الصفات متعلق بأى «ذات» تفيض عنها . .!

قال : ويصح لنا أن نسأل : أكل ما ذكر عن ذاته وصفاته فى كتاب الله ، وفى حديث الرسول ﷺ من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى سؤال أبدًا ؟

ونستطيع أن نقول فى الإجابة عن ذلك : نعم .

فإن مفهوم الألوهية حين يعرف الإنسان الطريق إليه ، وحين يتلقاه بقلبه ويستقبله بفطرته ـ لواضح أشد الوضوح ؛ إذ هو الكمال المطلق الذى يسمح للإنسان أن ينطلق إلى ما لا نهاية فى السمو والارتفاع بمقام الذات . . . وكلما انتهى إلى غاية مد بصره إلى غيرها وهكذا أبدًا .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(الشورى : ١١) .

وفى هذا «المفهوم» عاش الصحابة والتابعون ـ رضوان الله عليهم ـ لا يسألون : ما يد الله ؟ وما عينه ؟ وما قدرته؟ وما علمه ؟

فلقد هُدُوا بفطرتهم ألا جواب لهذه الأسئلة إلا ما يجده المرء فى قلبه وفى كيانه كله ، من تقديس الله وجلاله ، ونسبة الكمال المطلق كله إليه !

ولقد هدوا بفطرتهم أيضًا إلى أن العقل لا يستطيع أن يدرك كنه صفة من هذه الصفات . ولا أن يمسك بها على أية صورة . فإن أية صورة لن تكون هى أبدًا ما دام الكمال المطلق هو صفتَها .

و«الله» الذى جاء القرآن ليدل الناس عليه ، ويعرفهم به ويدعوهم إلى إفراده بالوحدانية واختصاصه بالعبادة – هذا الإله لابد أن يكون له مفهوم فى عقول الناس حتى يعرفوه ، وحتى يأنسوا به ، وينظروا إليه فيما يأخذون أو يدعون من أمره ونهيه .

ومن هنا كان لابد أن تقيم الشريعة الإسلامية (مفهومًا) للإله فى عقول الناس كى يكون (الله) حقيقة يؤمنون بها ، ويتعاملون معها .

فما المفهوم الذى جاء به القرآن لذات الإله؟

أهو مادى أو معنوى؟ وهل هو محدود أو مطلق؟

لقد كان صنيع الإسلام فى هذا الأمر الخطير آية الآيات ومعجزة المعجزات الدالة على صدق الرسالة المحمدية ، وعلى أنها متلقّاة من أحكم الحاكمين رب العالمين! وننظر فنرى عجبًا عجابًا ، حكمة بالغة ، وتدبيرًا محكمًا .

فأولاً : لم يكن مفهوم الألوهية ـ فى شريعة الإسلام ـ مفهومًا مادياً ؛ لأنه لو كان كذلك لتجسد الإله . ولو تجسد لتحدد . ولو تحدد لوقع فى دائرة الحسِّ ، وفى محيط النظر . ولأصبح شيئًا من الأشياء . . يحويه مكان وتفرغ منه أمكنة ، ويراه خلق ويغيب عن خلق . وذلك مما يذهب بجلال الذات ، وينزل من قدرها ، ويسقط من هيبتها . إن أكبر شىء نراه ، ونرى امتداد سلطانه فى الوجود هو (الشمس) وقد كانت ــ لهذا ــ إله الآلهة فى وقت من الأوقات .

ولكن العاقل الرشيد لا يقبل أن يكون الإله محيزًا ، يحضر ويغيب .

وهذا إبراهيم عليه السلام وقد نظر إلى النجم ، ثم إلى القمر . . فلما أفلا قال : ﴿**لا أحب الآفلين**﴾ (الأنعام : ٧٦) . والحب هنا إجلال وتقديس . ثم نظر إلى الشمس ، فلما أفلت التمس الإله فى وقت غير الكواكب والشموس . . .

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(الأنعام : ٧٨ ، ٧٩) .

ثانيًا : لم يرتض الإسلام أن يكون مفهوم الإله أمرًا «معنوياً » ، وفكرة مجردة مطلقة لا يدل عليها وصف ، ولا يُدرك لها واقع تتجلى فيه . فإنها لو كانت كذلك لما أمسك بها عقل ، ولا اطمأن إليها قلب ، ولما وجد الإنسان لمثل هذه الفكرة المجردة أثرًا يعمل فى كيانه ، ويؤثر فى سلوكه . .

ومن أجل هذا لم يكن مفهوم الإله - فى شريعة الإسلام - هذا أو ذاك ، لم يكن شيئًا مادياً ، كما لم يكن فكرة مجردة .

وإنما اختار الإسلام لمفهوم الإله - فى أذهان البشر - مقامًا وسطًا بين هذين : بين التجسيد والتجريد .

فحيث ينظر الإنسان إلى الله فى القرآن الكريم يجد «الله» سميعًا ، بصيرًا ، عالمًا ، قادرًا ، حكيمًا ، مريدًا ، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير ، قائم على الملك ، مستوٍ على عرشه ، والملائكة حافون من حول العرش ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلونَ ما يؤمرون .

وهذا من شأنه أن يخيل للإنسان صورًا ما «للذات » .

ثم ينظر المسلم فى كتاب الله فيرى «الله» «ليس كمثله شىء» . . .

ويعمل هذا المفهوم عمله فى تفكير الإنسان ، فتأخذ تلك المفاهيم التى كانت قد بدأت تتشكل وتتجسد ـ تأخذ فى «الذوبان» كما تذوب صخور الثلج فى عباب المحيط .

ذلك ــ فى إيجاز ــ هو الذى يقع فى إدراكى للمفهوم الذى أراد القرآن أن يقيمه فى عقول الناس وقلوبهم . . .

وذلك المفهوم ضرورى- كما قلنا - لكى نستشعر «الذات » ونتجه إليها ونرفع لها صلواتنا ودعواتنا . . .

أما حقيقة هذه الذات العظمى فأمر وراء كل ما نتصور . . .

ولكن لما لم يكن بدّ من أن نتصور فقد أسعفنا القرآن الكريم بالقدر الضرورى الذى يسد حاجتنا فى هذا المقام ، فجعل للإله مفهومًا غير مجسد «ذاتًا» لها العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر وغير ذلك من صفات الكمال التى تليق برب العالمين . . . الله ذات . . . ولكن ليس كمثله شىء!!

ما نعلم وما لا نعلم(١)

وقف مرة الأستاذ «آينشتاين» العالم الكبير عند درج صغير فى أسفل مكتبه وقال : «إن نسبة ما أعلم إلى ما لا أعلم ، كنسبة هذا الدرج إلى مكتبى» ، ولو أنصف لقال : إنه أقل من هذه النسبة . فإنا لا نعلم أى شىء هو؟

إننا نعيش فى عالم مملوء بالحقائق والقوى ، ولا نعلم أى شىء .

وهذا فى الدنيا التى نعيش فيها ، ونلمسها ، ونزاول شئوننا فيها ، فكيف بالعوالم الأخرى البعيدة عنا ؟

نقول : إن العالم مكون من ذرّات ، ونقول : إن الذرَّة مكونة من إلكترونات ، أو من نواة وشحنة كهربائية سالبة وموجبة . .

ويتغير رأينا فى تكوين الذرَّة بمعدل مرَّة فى كل أربع سنوات ، ونتبجح فنعمل من الذرة قنابل ذرية ، ونحن لا نعلم عن حقيقتها شيئًا .

نقول : إن الأجسام تسقط لقانون الجاذبية ، والمصباح يشتعل بالكهرباء ، ونسخر الكهرباء فى إيجاد الحرارة ، والبرودة ، والحركة ، وإيجاد الأمواج واستقبالها .

ولكن ما الكهرباء؟ لا نعلم عن حقيقتها شيئًا ، وإنما نعلم كيف تستخدم .

بل الحياة نفسها لم نعرف حقيقتها ، وإن كانت تسكن فينا ، وكل ما حولنا لا نعلم حقيقته ، وإنما نعرف أعراضه .

وبعبارة أخرى نعرف «كيف» ولا نعرف «ما » و« لماذا» .

ما الحب ، ما الجمال ، ما القبح ، ما الحرية ، ما كل شىء معنوى ؟

كل هذه لا نعرف عن حقيقتها شيئًا .

وكل ما يستطيعه العقل ، أن يعرف صفاتها .

ما الدين ، ما الخوف ، ما الأمل ، ما الشجاعة ، ما الفضيلة ، ما الرذيلة؟ لا شىء غير الصفات .

---

(١) للأستاذ أحمد أمين .

قد نعلم أن اثنين واثنين أربعة ، ثم نعلم أجزاءها ومضاعفاتها .

أما سائر الأشياء فنعرف أعراضها ، ولا نعرفها .

وكأنه منحنا عقلاً ليس من طبيعته أن يعرف شيئًا عن الحقائق !

وكل الذى يعرفه الإنسان ـ لو كان ذكياً ـ أن يوجه سلوكه فى الحياة حسب طبائع الأشياء وحقائقها .

ولذلك أنصف أصحاب مذهب «الْبَراجماتِزم » إذ أنكروا قدرة العقل على معرفة الحقيقة ، وقصروه على معرفة الوسائل للغايات .

والذين يشتغلون بالعلوم ، ويقولون : إنهم وضعوا قوانينها ، كقوانين الجاذبية وقوانين الطبيعة والكيمياء ، لا يزعمونها شرحًا للحقائق ولكن شرحًا لأوصافها ، وحتى هى شرح لصفاتها الظاهرة ، لاصفاتها الباطنة .

إنك تقول : إن فلانًا يحبنى ، وفلانًا يكرهنى .

ولكن ، ما حقيقة الحب والكره؟ لا نعرف .

قد تكون معرفة الفن أسهل من معرفة العلم ، أو بعبارة أخرى أسهل من معرفة الحقيقة ؛ لأن الفن عمل ، والعلم فهم ، ونحن على العمل أقدر منا على فهم الحقائق!

ولذلك سهلت الحياة ، لأنها فن ، وصعبت معرفة الحقائق ؛ لأنها علم .

إنك تستطيع أن تعلم أنك إذا صنعت القطار على نمط صحيح لا يصطدم ولا تخرج عجلاته ، وتستطيع – بقدر الإمكان – أن تتقى الأحداث ، وتستطيع أن تترقب النجاح فى عمل إذا سرت فيه سيرًا حسنًا ؛ لأن هذه كلها فنٌّ لا علم .

وحتى أنت ـ فى هذه ـ عرضة للخطأ ؛ فقد يحدث ما ليس فى الحسبان ، ويخرج القطار عن القضيب ، ويصطدم بجاموسة مارة ـ عرضًا ـ فى الطريق . وتصطدم سيارتك بما لم تقدر مطلقًا أنها تصطدم به . فكيف الحقائق المجهولة؟

إن كان ذلك ، فكيف نأمل أن نعرف العقل والنفس ، وحقيقة الشعور ، وما إلى ذلك؟

كل ما نتحدث به عن هذه الأشياء ألفاظ جوفاء ، وتشدُّق سخيف ، لا حقيقة وراءه .

ولو أنصف مؤلفو المعاجم ، ومحاولو التعريفات لكفوا عن ذلك ؛ لأنهم لا يصلون إلى حقيقته ، وإنما يدورون حول أنفسهم .

ولو دققت النظر فى تعريفاتهم لوجدتها تعريفًا بالمثل ، لا تعريفًا بالحقيقة .

وأكثر الناس يعيشون بعقيدتهم لا بعلمهم ، وبخرافاتهم وأوهامهم لا بعقلهم ، فكيف وعقلهم لا يدرك حقيقة ما حوله؟

إن كان هذا حقًا ، فكيف يحاول العقل الإنسانى البحث عن اللَّه؟

إنه يكون كقوم لم يعرفوا أرضهم ، فبحثوا عن المريخ ، أو لم يعرفوا ما أمامهم ، فحاولوا أن يعرفوا ما فوقهم .

ويعجبنى ما ينسب إلى الإمام على كرَّم اللَّه وجهه ، فى الله تعالى : «إنه لا تدركه الشواهد ، ولا تحويه المشاهد ، ولا تراه النواظر ، ولا تحجبه السواتر ، لا بذى عظم تناهت به الغايات فعظَّمته تجسيدًا ، ولا بذى كبر امتدت به النهايات فكبَّرته تجسيمًا» .

كما يعجبنى قول ابن أبى الحديد :

وَاللّهِ لا مُوسَى وَلا ... عِيسَى المَسِيحُ وَلا مُحَمَّدْ

عَلِمُوا وَلا جِبْرِيلُ وَهْـ ... ـوَ إلى مَحَلِّ الْقُدْسِ يَصْعَدْ

كَلا، وَلا النَّفْسُ الْبَسِيـ ... ـطَةُ لا، وَلا العَقْلُ المُجَرَّدْ

مِنْ كُنْهِ ذَاتِكَ غَيْرَ أَنَّـ ... ـكَ وَاحِدِيُّ الذَّاتِ سَرْمَدْ

فَلْتَخْسَأ الحُكَمَاءُ عَنْ ... حَرَمٍ لَهُ الأَفْلاكُ سُجَّدْ

مَنْ أَنْتَ يَا رِسْطُو وَمَنْ ... أَفْلاطُ قَبْلَكَ يَا مُبَلَّدْ

وَمَنِ ابنُ سِينَا حِينَ مَرَّ ... دَ مَا بَنَيْتَ لَهُ وَشَيَّدْ

هَلْ أَنْتُمُ إلاَّ الفَرَا ... شُ رَأَى الشِّهَابَ وَقَدْ تَوَقَّدْ

فَدَنَا فَأَحْرَقَ نَفْسَهُ ... وَلَوِ اهْتَدَى رُشْدًا لأَبْعَدْ

***

وقوله أيضًا :

فِيكَ يَا أُعْجُوبَةَ الكَوْ ... نِ غَدَا الفِكْرُ كَلِيلا

أَنْتَ حَيَّرْتَ ذَوِي اللُّـ ... ـبِّ وَبَلْبَلْتَ العُقُولا

كُلَّمَا أَقْدَمَ فِكْرِي ... فِيكَ شِبْرًا فَرَّ مِيلا

نَاكِصًا يَخْبِطُ فِي عَمْـ ... ـيَاءَ لا يُهْدَى السَّبِيلا

***

وما نقلنا آنفًا عن الأستاذ «أحمد أمين» تحديد حق للنطاق الذى يصل فيه عقل الإنسان وينتج .

وقد زينت الحرية العقلية التى أتاحها الإسلام للباحثين تجاوز هذا النطاق فعدوا قدرهم ، وخاضوا فى بحوث لا طائل تحتها . . وبلغ بهم التيه فى ميدان النظر أن تكلموا فى ذات الله ، هل صفاتها عينها ؟ أو غيرها ؟ أو لا عين ولا غير؟

ومضى بهم الجدل المحض إلى غير قرار!

وأى قرار فى أمر لا يمكن أن تصل إليه الأفكار؟

إن هذا البحث لو كان فى ذات الإنسان لكان عسيرًا ، فكيف يُسمح به فى ذات الله جل وعلا ؟

إن علماء المسلمين الذين كتبوا فى العقائد لم يقصدوا إلا الخير .

ولست أظن أن واحدًا من الأولين والآخرين عمد إلى تشويه الدين أو مسخ آثاره فى الأفئدة .

وقد تأدَّى الجدل ببعضهم إلى التقاذف بتهم مريبة .

وقد نبت فى هذا العصر قوم يريدون إقحام العامة فيما لا يطيقون من بحوث ، فبلبلوا الأفكار فى وقت نحتاج فيه إلى تجميع الشمل وتركيز القوة ضد الحضارة المادية التى تريد أن تطوى أعلام التوحيد وتستأصل شأفة الإسلام .

ومادام هناك من يعتنق مبدأ التأويل ويستمسك به ، فليس من السائغ أن نرميه بالإفك ونسلخه من الملة كما يفعل الجهّال .

وحسبنا أن نذكر الحق المجرد ، وأن نعرّف الناس جميعًا أن الله عز وجل ليس كمثله شىء ، ثم لنطهر أنفسنا من الخلاف فى الحظوظ والأهواء .

الغنى المُطلق

الله سبحانه وتعالى واسع الغنى ، وليست سعة غناه راجعة إلى أنه يملك هذا العالم بسماواته وأرضه وما حوى من معادن نفيسة وعناصر غالية .

ولا لأنه لا يملك عددًا لا يحصى من الجن والإنس والملائكة . لا . . لا . فالغنى الإلهى أعظم من ذلك وأمجَدُ !

إننا قد نعتبر الرجل غنيًا لأنه يملك القناطير من الذهب والفضة ، أو لأنه يحكم الألوف المؤلفة من الناس .

فإذا فقد ذلك لم يصبح على شىء من الغنى ، إذ انهارت الدعائم التى يقوم عليها . وقد يكون الملكوت الواجب الذى نعرف أقله ونجهل أكثره مظهرًا للغنى الإلهى العظيم .

لكن الله عز وجل يستطيع أن يفنى ذلك أجمع ، ولا ينقص غناه المطلق شيئًا البتة !! ويبقى قائمًا بنفسه ، مستغنيًا عن خلقه ، ومستكملاً نعوت قداسته ، ومستعليًا فى أنوار جلالته .

إن العرش فما دونه صفْرٌ إلى جانب الذات العليا ، وتسبيح العباد من بدء الخلق إلى قيام الساعة ، أو لغو الفجار فى هذا الأمد الطويل ، لا يُضفِى ولا ينتقص من عظمة الحق شيئًا .

وقد جاء فى الحديث القدسى : **«يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا عل أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئًا »** .

المخلوقات جليلها ودقيقها تقوم بالله عز وجل ، أما الله فقائم بنفسه مستغن بذاته عما سواه .

الوَحْـدَةُ المطلقَـة

إنما الله إله واحد

ليس لهذا العالم إلا إله واحد ، يخضع له بالقهر والجبروت كل ما سواه :

﴿ **إن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا** ﴾(مريم : ٩٣ ـ ٩٥)

وإذا استقرأنا ما توهمه الناس شريكًا لله فى ألوهيته ،لم نجد أحدًا من هؤلاء الشركاء المزعومين ترشحه حالته ليكون فى هذا الوجود شيئًا طائلاً .

لقد عبد القدماء أحجارًا اقتطعوها من سطح الأرض ، فهل يصح فى خلد عاقل أن حجرًا من الأرض - بل الأرض كلها - تصلح لتكون إلهًا ؟؟!

وعبدوا صنفًا من الحيوان وقدّسوا نسله - كما يفعل الهندوك إلى اليوم - فهل هناك عجل - مهما زاد لحمه وشحمه - يصلح لمنصب الألوهية؟ فما الذى يوضع بعده فى أطباق الآكلين ؟

إن الوثنيين سفهوا أنفسهم عندما هَوَوْا بها إلى هذا الدرك!

وقد ادعى بعض الناس الألوهية لنفسه ، كفرعون حاكم مصر ، وكهذا ﴿ **الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** ﴾(البقرة : ٢٥٨) .

فظن هذا المغفل أن السلطة التى يستمتع بها والتى تجعله يقتل من الرعية ما يشاء ، ويبقى ما يشاء ؛ ظن ذلك مسوغ الطموح لمنصب الألوهية . . .

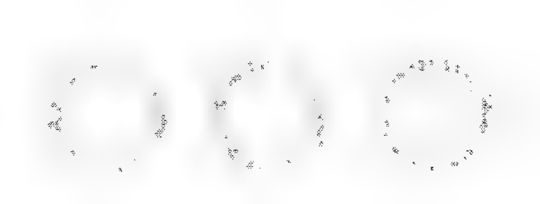
وهذا الظن يبقى فى رأس صاحبه حتى يقطعه جمهور الثوار ، ويرمون به فى الأقذار .

وبعض الدَّهماء من اليهود والنصارى ضلوا فى فهم أنبيائهم ، ورفعوهم إلى

مصافِّ «الآلهة» ، مع أن هؤلاء المرسلين ليسوا إلا عبيدًا موهوبين ، وقد كذبوا بهذا على أنفسهم وعلى الواقع .

فمن الحماقة أن تظن فى بشر- مهما علا شأنه- أنه خلق كوكبًا من الكواكب ، ولماذا نذهب بعيدًا؟ ، إن أحدهم لم يخلق ذبابة أو ما دونها ، فكيف يُعَدُّ إلهًا من يَعجِز عن أى خلق؟

بل إن جرثومة من آلاف الجراثيم التى تكمن فى بطن ذبابة ، لو سلبت أحدهم صحته ما قدر على ردها !! فمن أين بعد هذا ينسب إلى الألوهية؟ .



عيسى ابن مريم

لم تصادف خرافة من الرَّواج فى العالم مثل الخرافة التى تعد عيسى إلهًا لهذا العالم ، أو شريكًا فيه مع الله !!

وهذه الخرافة تتسع وتضيق حسب اختلاف الأهواء والآراء .

فتارة تعتبر هذا العالم خاضعًا لإشراف شركة مساهمة : من الله ، ثم من عيسى وأمه ، والروح القدس .

وتارة تضيق فتعتبر هؤلاء الشركاء شُعَبًا شتى لحقيقة واحدة ، أو مظاهر متعددة لإله واحد ، على نحو يعجز العقل عن تصوره .

وذلك كله شرود عن الصواب وضلال كبير .

﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . . .** ﴾(المائدة : ٧٢) .

﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ . . .** ﴾(المائدة : ٧٣)

وعيسى بشر يأكل ويشرب ويقذف من جسمه بالفضلات الحيوانية ، فكيف تُنفى عنه صفته الإنسانية ، أو يزعم له ما هو فوقها؟

﴿ **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ** ﴾(المائدة : ٧٥) .

ثم هو عبد يعنو وجهه لربه الأعلى ، ويذل فى ساحته ، ويسمع ـ فى صمت وإقرار ـ هذا التقرير الخطير :

﴿ **قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا** ﴾(المائدة : ١٧) .

وعيسى نفسه يعرف أنه وأمه عبدان فقيران لله . ويوم الحساب يقران بذلك ويستنكران غُلوَّ الغالين فيهما .

﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ (المائدة : ١١٦) .

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة : ١١٧) .

والواقع الذى يعلو به صوت البديهة : أنه من المستحيل جعل عيسى إلهًا ، يخلق ويرزق ، ويحيى ويميت ، ويدبر شئون البلاد والعباد ، وأمر السماء والأرض . . . إلخ ؛ لأنه فى حياته عبد ضعيف ، وبعد مماته رفات موارى فى حفرة من التراب .

ومؤلهو عيسى يشعرون بذلك جيدًا .

ومن ثمَّ فهم يلتمسون له القوة ـ التى تجعل منه إلهًا ـ من طبيعة أخرى غير طبيعته العاجزة كإنسان ، وذلك بالتحايل على إيجاد نسبة بينه وبين الله سبحانه وتعالى ـ هى نسبة البنوة – كأنه ولىٌّ عهد!! ، وزين لهم هذا التخبط أن عيسى ولد من أم فقط .

والحق أن النسبة بين الله وبين خلقه كافة هى نسبة الموجد المتفضل بالإيجاد ، المختار فيه أتم اختيار ، على عالم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعًا ، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا . وإن كل صامت وناطق فى هذا العالم يدين لله بكينونته ، وهو طوعًا أو كرهًا يسبح بحمده ويذل لربوبيته !!

والله سبحانه وتعالى قد يجعل بعض مخلوقاته أرضًا ، وبعضها سماء ، بعضها ترابًا وبعضها ذهبًا ، بعضها نباتًا وبعضها حيوانًا ، بعضها إنسًا وبعضها جناً .

فما أعلى شأنه من خلقه ، فهو محض فضله ، وما حدد له وضعه فهو محض حكمته .

وقد يمنح بعض البشر والملائكة مواهب تميزهم عن أقرانهم ثم يختارون رسلاً لعباده .

وأياً ما يفعل ربك بخلقه ، فإن ذلك ما يمس أصل النسبة المقررة بين العالم وموجده العظيم .

أئذا جعل المهندس بعض أحجار البيت دعائم مختفية فى الطين ، وبعضها الآخر شرفات تعلو فى الفضاء ، ظنت الأحجار العالية أنها قد تحولت مهندسًا أو شبه مهندس .

أى سخف هذا الذى يجعل بعض الخلق شركاء فى الألوهية ؛ لأنه مُنح فضل احترام؟

كيف يتصور فى بديع السماوات والأرض أن يكون والدًا لتلك الأجساد التى ذرأها؟ وما عيسى فى جانب الملكوت الضخم؟!

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾(الأنبياء : ٢٦ ، ٢٧)

وشأن الألوهية أعز مما يهرف به الجهلة من ولادة وبنوة واتصال وأنسال!!

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾(الزمر : ٤) .

ولو كانت ولادة عيسى من أم فقط ترشحه للألوهية ـ بصفة البنوة ـ لكان آدم أولى منه بها ، بل لكان الملائكة المقربون أولى بذلك .

فهم من الملأ الأعلى ، وليس من الحمأ المسنون .

مغالطة

قرأت فى مذكرات الدكتور «شبلى شميل» كلمة لمواطن نصرانى استعار لنفسه اسمًا مسلمًا ، واجتهد أن يوفق بين الإسلام والنصرانية فى حقيقة «عيسى ابن مريم»!!

وقد بنى هذا الكاتب فكرته على أن كلتا الديانتين تتضمن حقائق مبهمة .

فإذا كان الغموض يكتنف أوصاف المسيح وعلاقته برب العالمين فى النصرانية ، فكم فى الإسلام من تعاليم غامضة؟! فهذه بتلك! . . ولا داعى لاعتبار التثليث معضلة تنافى التوحيد الواجب لله . . .

قال الكاتب : «جهل أكثر كتاب المسلمين عقيدة النصارى فى الإله الواحد الذى ليس بمادة ؟ كما جهل أكثر كُتَّاب النصارى عقيدة المسلمين ، ولكن لظهور الصعوبة فى فلسفة العقيدة النصرانية يقول النصارى : إن فى الدين شيئًا هو فوق العقل ، ويعدون ذلك من مفاخرهم فى تدينهم .

فيظن المسلم أنهم يريدون بقولهم فوق العقل أنه غير معقول ، وليس هذا هو المراد ، بل المراد أن العقل لا يكاد يدركه .

وكان مثل هذا القول شائعًا ومعروفًا عند المسلمين أيضًا .

ولكن بعض كتابهم فى هذه الأيام الجديدة قاموا ينادون بأن الدين الإسلامى وحده دين العقل ، ويفسرونه بأن العقل يدرك كل شىء فيه .

ولسنا ندرى كيف يدرك العقل أمور العالم الغيبى ، مثل أنهار اللبن والعسل التى فى الجنة ، ومثل عالم الأرواح المجردة وعالم الملائكة؟

ولا نعرف كيف يستطيع أولئك العقلاء تفسير النار التى رآها موسى ، ﴿ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى** ﴾(طه :١١ ، ١٢) .

أى عقل يدرك حقيقة هذا النداء الذى سمعه موسى فخرَّ صعقًا ؟ ، وأى عقل

يدرك حقيقة نفخ الله فى فرج مريم؟ ، كما جاء فى القرآن المجيد بنص هذه الآية :
﴿ **وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا** ﴾(التحريم : ١٢) .

النصرانى يقول : الإله واحد كما يقول المسلم .

ثم يقول النصرانى : إن عيسى كلمة الله وروح الله ، وهكذا يقول المسلم أيضًا .
والنصرانى يقول : إن مريم عذراء حملت بعيسى الذى هو روح الله وكلمة الله من غير أن يمسها بشر ، وهكذا يقول المسلم أيضًا .

فأنا أسأل إخوانى المسلمين أن يبينوا لى الفرق أولا بين هذه التعابير ، وأن يفهموها جيدًا قبل أن يجادلوا النصارى على التعبير بالأب والابن والروح القدس ، وقبل أن يسألوا عن هذه الفلسفة التى تبين أن هذه الكلمات الثلاث تدل على حقيقة واحدة ظهرت فى ثلاثة مظاهر ، وما نار موسى عن القارئ ببعيد» .

هذا الكلام ينطوى على مغالطة بينة ، ولقد أوضحنا فى الفصل السابق أن هناك فرقًا بين ما يصعب على العقل إدراكه ، وبين ما يجزم العقل باستحالته .

ففى عالمى الغيب والشهادة حقائق شتَّى نوقن بوجودها ونجهل كنهها ، وجهلنا بكنهها لا يخدش وجودها الثابت .

وفى عالمى الغيب والشهادة كذلك أمور نحكم بامتناعها ، ولا يمكن تلبيس الممكنات الغامضة بالمستحيلات المعدومة .

والقول بأن الثلاثة واحد ، كالقول باجتماع النقيضين ؛ ليس مسألة غامضة ، بل مسألة مستحيلة بالبداهة .



عَرْضٌ واقعيٌّ وجَدَلٌ نظري

باستقراء التاريخ وأحداثه ؛ لا نجد دعوى يؤبه لها من أحد يزعم أنه إله مع الله .

والذين فُهِمَ ذلك عنهم ، إما متهمون أبرياء ، كبعض الرسل والملائكة ، وإما مخلوقات لا تحس ولا تعقل ، كالأحجار والأبقار ، وإما حكام سفلة ، كفراعنة مصر وأشباههم . .

وقد قام العلماء ببحوث جدلية ليثبتوا أنه ليس هناك مع الله إله آخر ، وإن كان الواقع العملى ينطق بذلك ، فنحن فى عالمنا المادى لم نجد هذا الآخر المزعوم ، وفيما وراء المادة لم يحاول هذا الآخر أن يتصل بنا .

والمرسلون قاطبة أكدوا ـ واحدًا بعد الآخر ـ أنهم جاءوا من عند الله رب العالمين :

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾(الأنبياء :٢٥) .

فما الذى أخرس هذا الإله الآخر عن ذلك التحدى ليشكو ما وقع به من ظلم؟

الحق أن الملك كله لله ، وأن الآلهة الأخرى الموهومة ليست إلا خيالات عقول مريضة ، وأسماء لا مدلول لها أبدًا .

﴿ **أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ** ﴾(يونس : ٦٦) .

وأما الفروض التى ذكرها العلماء لنفى التعدد فى الألوهية ؛ فهى تقرر لجملة من الحقائق التى لا مراء فى ضرورة توافرها لمن يجب اعتباره إلهًا .

إن كان هذا الإله موجودًا مع الله ، فما موقفه منه؟ بل ـ أولاً ـ ما منزلته منه؟

إن كان دونه منزلة ومكانة فليس بإله ، وإن كان أعلى منه فهو أحق منه بالألوهية .

وإن كان مثله فما الحدود والفواصل بين عمليهما واختصاصيهما؟

وكيف ينفذ أمرهما معاً فى الإحياء والإماتة ، والإشقاء والإسعاد ، وغير ذلك؟

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون : ٩١) .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

(الأنبياء : ٢٢)

على أن نظام العالم يطرأ عليه فساد فى سمائه أو أرضه .

وسنن الكون الماضية قاطعة بصدورها عن إله أحد فرد صمد .

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة : ١٦٣) .



إخلاص التوحيد

بعد الاستقراء التاريخى والاستعراض العقلى لمن نُحِلُوا وصف الألوهية زورًا نجزم بأنه لا إله إلا الله ، ونوقن بأنه لا شىء فى العالم يرقى عن مستوى العبودية الذليلة لهذا الإله الواحد القهار .

غير أن البشر ـ وإن أحسوا بصوت الفطرة يصرخ فى أعماق نفوسهم معلنًا هذه الحقيقة الواحدة ـ يأبون إلا أن يلبسوا الحق بالباطل ، وأن يشربوا هذا التوحيد الواضح بما يفسد صفاءه ، بل بما يجتث جذوره!

فهم يعترفون ـ برغم أنوفهم ـ أن الله هو الخالق الرزاق ، والنصارى المشركون بعيسى لا أظنهم يزعمون أن عيسى بنى أفقًا من السماء ، أو أرسى ركنًا من الأرض ، أو رزق أمة من الناس ، أو أنبت حقلاً من الحبوب أو حديقة من الفاكهة . . كلا كلا . فالله وحده رب هذا كله .

ومع هذا الاعتراف فهم لا يوحدون الله فى العبادة ، ولا يتوجهون إليه بالطاعة ، ولا يتزلفون إليه بهذه الشهادة التى تنبعث من فطرتهم ، بل يذهبون إلى غيره بكل هذا . . !!

ومن هذا الغير؟ ولم تنصرف إليه وجوه الخلق؟

لقد احتال المشركون لتبرير شرودهم ، بأنهم لم يذهبوا بعيدًا ، وبأن أولئك الذين اتجهوا إليهم من دون الله ، إنما هم «مفاتيح» للإله الأكبر لجأوا إليها لتوصلهم إليه . . وقالوا ما نستطيع أن ننسب إلى حجر أو بشر خلقًا أو رزقًا ، ولا أن نجحد تفرد الله بهذا العمل ، ولكننا اتخذنا بناته وبنيه وسطاء خير له!!

﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ** ﴾(الزمر : ٣) .

وهذا الصنيع الطائش لغو ومجون .

فليس لله بنات ولا بنون ، وليس بين الله وبين عباده كلهم وسطاء ولا شفعاء ولا سماسرة .

ولكل بشر ـ فى الأولين والآخرين ـ أن يتقدم بسؤاله إليه مباشرة .

وإذا أذنب فله الحق كله أن يتصل بربه معتذرًا مستغفرًا ، لا يحمل توبته أحد من الناس .

والذى شرع لعباده الدين من بدء الخليقة وضح لهم على لسان رسله هذه الحقيقة .

ولو أن لله ولدًا أو شريكًا ـ سبحانه وتعالى عن هذا الإفك ـ لما ضارتنا عبادته

﴿ **قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** ﴾ (الزخرف : ٨١) .

لكن هذا محض الكذب والدجل ، فكيف نتورط فيه؟

والمؤسف أن البشر لما اختلقوا على الله هذه الفرية ـ فرية الشركاء والوسطاء ـ ظل الضلال ينحدر بهم من ظلمة إلى ظلمة حتى نسوا الله نفسه الذى اتخذوا الشفعاء سماسرة له ، وذكروا ما دونه من أصنام أو من أنبياء أو من أولياء .

﴿ **وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ (الزمر : ٤٥) .

ومن هنا ظفر هؤلاء الشركاء بنصيب الأسد فى كل شىء ، فى العبادة والإخلاص ، والسؤال والنذر ، والحب والحماسة ، ولم يبق لله من ذلك شىء يذكر .

﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ (الأنعام : ١٣٦) .

وفى الحديث القدسى : **«إننى والإنس والجن فى نبأ عجيب ، أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر سواى»** .

ولقد سرت هذه اللوثة فى العقائد حتى كادت تفسد على الناس حياتهم ومصيرهم .

وحسب الدنيا ضلالاً ، أن تعمى عن إشراق التوحيد فى أنحاء الوجود .

وإنك لتأسى إذ ترى للوثنية الخرفة أجيالاً تزحم مناكب الأرض .

وللنصرانية المشركة أقطارًا تسودها الأوهام .

﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ (يوسف : ١٠٦) .

وشيوع هذا الشرك فى العالم هو الخطوة المؤدية حتمًا إلى جحود مبدأ الألوهية ، وعدم الإيمان بالله العظيم .

مُقارنات بينَ الشركاء والعَبيد

أراد الله عز وجل أن يُعرِّفَ سفهاء المشركين بأقدار الآلهة التى عبدوها من دون الله ، فردد هذه المعبودات المظلومة بين صنفين :

إما أن تكون من جمادات ، فالعبيد أوسع قدرة من هذه الآلهة ، لأن لهم جوارح يستخدمونها فيما يشاءون .

أما هذه الأصنام المعبودة فماذا لها؟

﴿ **أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾(الأعراف : ١٩٥)؟ ليس لها من ذلك شيء .

وإما أن تكون هذه الآلهة المزعومة تملك ما ذكر من أدوات ومشاعر فماذا يمنحها ذلك من فضل؟

سيكون الآلهة والعبيد سواء فى القوى الذاتية والمنزلة الكونية ، فأى ألوهية تلك؟

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾(الأعراف : ١٩٤) .

وليست طبيعة الإنسان أن يقف حاسرًا قاصرًا أمام ألوهية هى دونه أو هو فوقها ، فإذا دعاها كانت بين أمرين : إما ألا تسمع وإما ألا تجيب .

﴿ **إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴾(فاطر : ١٤) .

ولذلك فإن من النقائص أن تتعلق النفس البشرية بهذه الأوهام والأباطيل .

لقد كثر فى القرآن الكريم ضرب الأمثال ، وسوق الأدلة واستثارة الانتباه ، واستنهاض الكرامة الآدمية ، حتى تقوم من هذه الوهدة التى تذل فيها لمن هو دونها أو لمن هو مثلها .

وأفاض القرآن فى استقصائه للمعانى التى تصون الوجه من دنس الشرك ، وفى مخاطبة العاطفة الإنسانية بأسلوب رائع فى رقته ، واضح فى غايته .

﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾(يوسف : ٣٩) .

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلمًا لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾(الزمر : ٢٩) .

والحق أن التوحيد روح الإسلام ، وجوهر عقيدته ، ومحور عباداته المنوعة ، ومبدأ التوحيد يسرى فى تعاليمه كافة سريان الماء فى النبات أو الأعصاب فى البدن .

وقد وضح القرآن الكريم حقيقته ، وبسط فكرته ، وناقش ما قد يعرض له أو يعارضه ، حتى ليعتبر التوحيد الإسلامى أصرح وأكمل ما أسسه دين فى قلوب بنيه ، ودمغ البشر جميعًا بطابع العبودية لله وحده ، وانتزاع كل شعور يتجه بالمرء إلى تقديس كائن ما ـ هنا أو هناك ـ كل ذلك من عناوين الإسلام الأولى وليس من إشاراته الثانوية أبدًا .

﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾
(المائدة : ٧٢)

والله ـ وحده ـ هو الضار النافع ، الخافض الرافع؟ الذى يخذل أو ينصر ، ويعطى أو يمنع .

وليس لأحد بعده تعقيب على حكمه ، وليس من شأن ملك فى السماء أو نبى فى الأرض التدخل فى مشيئة الله .

فهى التى تحكم أبدًا ، وإليها يحتكم أولاً وآخرًا .

وأولياء الله أو أعداؤه لا يفرضون رغباتهم على الإرادة العليا .

«ولذلك فإن من إخلاص التوحيد أن نكل ما فوق قدرتنا وإرادتنا إلى الله وحده ، وأن نربط خوفنا ورجاءنا به» .

﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾(الزمر : ٣٦) .

﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾
(الزمر : ٣٨)

للمؤمن قبلة واحدة يوليها وجهه ، ويهب لها فؤاده ، ويبثها نجواه وشكواه ، ويعرف على أشعتها طريقه فى ظلمات الحياة .

للمؤمن صلة عليا بالله ، يحدد - على أساسها - علاقاته بالناس .

وله عواطف تجيش بالأمن والقلق ، والسخط والرضاء ، والحب والبغض ، والوحشة والأنس .

ومهما اضطربت فى نفسه هذه المشاعر المعتادة فإن ضوابط اليقين تحكمها ، وعرفانه بربه هو الذى ينقضها أو يبرمها .

وقد كان إمام الأنبياء يغرس هذه المعانى فى قلوب المؤمنين حين كان يدعو فى تهجده :

«اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمتُ وما أخرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت» .

هذه الضراعة الحارة النابضة هى آية التوحيد الكامل .

إذا مشت عصارتها فى القلوب هزتها بالحياة والنماء ، وإذا فرغت الأنفس منها زوت ، والتوت ، وخبطت فى عماء ما بعده عماء .

ونحن - فى الدنيا - نمر بتجارب شتى تكشف عن معادننا وخصائصنا ، كما تكشف التجارب فى معامل الكيمياء عن ميزان الغازات والسوائل المختلفة .

وما يعرف الإيمان والكفر ، وما يتكشف الإخلاص والنفاق ، وما يتميز الخبيث والطيب إلا فى هدى هذه التجارب التى تكفل القدر بإجرائها :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾(الأنبياء : ٣٥) .

***

وإذا رأيت المرء يحب غير الله أكثر مما يحب الله ، ويخاف العبد أكثر مما يخاف الرب ، ويتعلق قلبه بالناس أكثر مما يتعلق برب الناس ، ويصدر عمله ابتغاء رضاهم أكثر مما يتطلب ثواب الآخرة .

فإذا نزلت به نكبة كان تفكيره فى فلان قبل تفكيره فى الله ، وإذا أصابه خير كان حمده لفلان أسبق من شكره لله . . .

فاعلم أن هذا الشخص قد أشرك . . .

ولئن كان بعض العلماء يقول : إن الشرك فى العمل غير الشرك فى الاعتقاد ، وإن هذا شرك أصغر وذاك شرك أكبر . فالحقيقة : أن المسألة أصعب مما يتصورون ومما يصورون للعامة .

فالشرك عين حمئة قذرة ، إذا انفجرت فى قلب وبدأت تسيل قطرات راشحة توشك أن تتحول سيلاً كاسحًا ، ويومئذ لا يبقى فى القلب إيمان حق ، ويتحول ما يسمونه شركًا أصغر إلى عين الشرك الذى يعده الإسلام أقبح الكبائر .

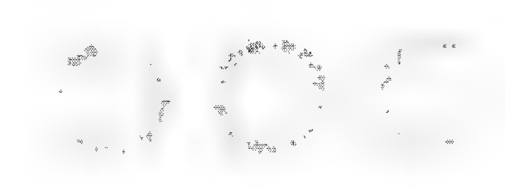
إنَّ الأمور صغيرها مما يَهيجُ له العَظِيمْ

والإسلام يوم حارب اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، لم يحاربها لذواتها ، ولم تكن بينه وبينها عداوة شخصية؟ إنما حاربها لأنها احتلت من قلوب الملتفين بها مكانة السيد المتصرف من عبيده الأذلين .

فكل ما يصرف القلوب مثلها عن الله فهو صنم .

وكل من تكون فى قلبه منزلة لشىء ما غير الله ، مثل منزلة هذه الأصنام فى قلوب المشركين القدامى ، فهو ـ ولا كرامة ـ مثلهم ، يحسب منهم ويحشر معهم . . ولا عجب فالخمر لم تحرم لعينها ، وإنما حرم المسكر من كل شراب .

والإيمان بالله لا تتفاوت حقيقته ، وإن اختلفت نواقضه على توالى الأيام .



توحيدُ العامَّةِ وما يعلوه من غبار

ينبغى لهذه الأمة أن تكون مثلاً عاليًا فى إسلام الوجه لله ، وإفراده بالنية والعمل ، بيد أننا نلحظ - آسفين - أن هناك مسالك شائعة بين الجماهير الغفيرة من المسلمين ، لها دلالتها الخطرة على فساد التفكير ، وضلال الاتجاه ، واضطراب المقصد .

ولا نحب أن نوارب فى الكشف عن هذه العلة ، فإن أى خلل فى دعائم التوحيد معناه الخبل الذى يدرك موطن القيادة الفكرية فى هذا الدين الحنيف .

إذ التوحيد فى الإسلام حقيقة وعنوان ، وساحة وأركان ، وباعث وهدف ، ومبدأ ونهاية .

ولسنا - كذلك - ممن يحب تصيد التهم للناس ، ورميهم بالشرك جزافًا ، واستباحة حقوقهم ظلمًا وعدوانًا .

ولكننا أمام تصرفات توجب علينا النظر الطويل ، والنصح الخالص ، والمصارحة بتعاليم الكتاب والسنة كلما وجد عنها أدنى انحراف .

لقد اهتمت حكومة إنجلترا - فى سبيل مكافحة الشيوعية - بالحالة الدينية فى مصر!

فكان مما طمأنها على إيمان المصريين(!) أن ثلاثة ملايين مسلم زاروا ضريح أحمد البدوى بطنطا هذا العام .

والذين زاروا الضريح ليسوا مجهولين لدى - فطالما أوفدت رسميًا لوعظهم ، فكنت أشهد من أعمالهم ما يستدعى الجلد بالسياط لا ما يستدعى الزجر بالكلام ، وكثرتهم الساحقة لا تعرف عن فضائل الإسلام وأنظمته وآدابه شيئًا!

ولو دعوا لواجب دينى صحيح لفروا نافرين ، وإن كانوا أسرع إلى الخرافة من الفراش إلى النار!

وحسبك من معرفة حالهم : أنهم جاءوا الضريح المذكور للوفاء بالنذور والابتهال بالدعاء!

ولمن النذور؟ ولمن الدعاء؟ إنه أول الأمر للسيد .

فإذا جادلت القوم ، قالوا : إنه لله عن طريق السيد البدوى .

وأكثر أولئك المغفلين لغطًا يقول لك : نحن نعرف الله جيدًا ، ونعرف أن أولياءه عبيده ، وإنما نتقرب بهم إليه ، فهم أطهر منا نفسًا وأعلى درجة .

وهذا الكلام ـ على فرض مطابقته لواقع القوم ـ غلط فى الإسلام .

فإن الله سبحانه وتعالى لم يطلب منا أن نجىء معنا بالآخرين ليحملوا عنا حسناتنا ، أو ليستغفروا لنا زلاتنا .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾(الشورى : ٢١) .

بل المعروف من بديهيات الإسلام الأولى ، أن الطلب ووسيلته جميعًا يجب أن يكونا من الله .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(الفاتحة : ٥) .

«إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله» .

أليس من المضحك أن نستنجد بقوم يطلبون لأنفسهم النجدة ، وأن نتوسل بمن يطلب هو كل وسيلة ليستفيد خيرًا أو يستدفع شرًّا؟

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾(الإسراء : ٥٧) .

***

إن المسلمين لما طال عليهم الأمد نسوا الحق .

والمرء قد يعذر إذا ذهل عن شأن تافه ، أو فاته استصحاب شىء هين ، أما أن يذهل عن كيانه وإيمانه فهنا الطامة .

وأحسب أن القرآن الكريم كان يقصد إلى التنديد بهذا اللون من إفساد التوحيد عندما قال :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا . . . ﴾(الفرقان : ١٧ ـ ١٨) .

أجل! لقد نسوا الذكر ، وما قام عليه الذكر من توحيد شامل .

وليس يغنى فى الدفاع عن أولئك الجهلة من العوام أنهم يعرفون الله ، ويعرفون أنه وحده مجيب كل سؤال ، وباعث كل فضل ، وأن من دونه لا يملكون من ذلك شيئًا . فإن هذه المعرفة لا تصلح ولا تقبل إلا إذا صحبها إفراد الله بالدعاء والتوجه ، والإخلاص ، فإن المشركين القدماء كانوا يعرفون الله كذلك .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾(يونس : ٣١) .

ومع أنهم يقولون «الله» بصراحة وجلاء ، فلم يحسبوا بهذا القول مؤمنين ، لأن الإيمان- إذا عرفت الله حقًا - ألا تعرف غيره فيما هو من شئونه .

ولذلك يستطرد القرآن فى مخاطبة هؤلاء :

﴿ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس : ٣١ ـ ٣٣) .

إن العامة عندما يشدون الرحال إلى قبور تضم رفات بعض الناس ، وعندما يهرعون بالنذور والحاجات والأدعية إلى من يظنونهم أبوابًا لله ، إنما يرتكبون فى حق الإسلام مآثم شنيعة .

ومهما قلبنا عملهم هذا من جميع وجوهه فلن نجد فيه ما يطمئن إليه ضمير المؤمن أبدًا .

ومحبة الصالحين وبغض الفاسدين من شعائر الإسلام حقًا .

ومظاهر الحب والبغض معروفة . . . هى مصادقة للأحياء أو منافرة ، واستغفار للموتى أو لعنة .

وأين من عواطف الحب والبغض هذا الذى يصطنعه المسلمون اليوم ؟؟

إن الواحد منهم قد يصادق أفسق الناس ، وقد يقطع والديه ـ وهما أحياء ـ ثم تراه مشمرًا مجدًّا فى الذهاب إلى قبر من قبور الصالحين؟ لا ليدعو له ، ويطلب من الله أن يرحم ساكن هذا القبر ، بل ليسأل صاحب القبر من حاجات الدنيا والآخرة ما هو مضطر إليه ، وذلك ضلال مبين !

وبناء المعابد على قبور الصالحين تقليد قديم ، وقد ذكر القرآن ما يدل على شيوعه فى الأمم السابقة .

وفى قصة أهل الكهف تسمع قوله عز وجل :

﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ (الكهف : ٢١) .

ويظهر أن اتخاذ المساجد على القبور كبناء التماثيل ، لم يكن محظورًا أول أمره إذ لم تكن له دلالة مثيرة .

غير أن البشر سفهوا أنفسهم ؛ فالأحجار التى نحتوها للعظماء عبدوها ، أو ـ على حد تعبيرهم ـ اتخذوها إلى الله زلفى .

والمعابد التى أقاموها على قبور الصالحين قدسوها وسلكوها مسلك الأصنام فى الشرك .

فلما جاء الإسلام أعلن على هذين المظهرين من مظاهر الوثنية حربًا شعواء ، وشدد تشديدًا ظاهرًا فى محق هذه المساخر المنافقة .

وقد رأينا كيف أن النبى ﷺ أرسل عليًّ بن أبى طالب رضى الله عنه وأمره أن يسوى بالأرض كل قبر وأن يهدم كل صنم .

فجعل الأضرحة العالية والأصنام المنصوبة سواء فى الضلالة .

وقال النبى ﷺ فى البيان عن سفاهة القدامى وفى التحذير من متابعتهم : **«لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، ألا لا تتخذوا القبور مساجد ، إنى أنهاكم عن هذا»** .

وكان يرفع الخِمرة عن وجهه فى مرض الموت ويكرر هذا المعنى .

وكأنه توجس شرّا مما يقع به فدعا الله :

«اللهم لا تجعل قبرى من بعدى وثنًا يعبد» .

ومع كثرة الدلائل التى انتصبت فى الإسلام دون الوقوع فى هذا المحظور ، فقد أقبل المسلمون على بناء المساجد فوق قبور الصالحين ، وتنافسوا فى تشييد الأضرحة ، حتى أصبحت تبنى على أسماء لا مسميات لها ، بل قد بنيت على ألواح الخشب وجثث الحيوانات .

ومع ذلك فهى مزارات مشهورة معمورة ، تقصد لتفريج الكرب ، وشفاء المرضى ، وتهوين الصعاب !

وأحب ألا أثير فتنة عمياء بهدم هذه الأضرحة .

فإن النبى ﷺ امتنع عن هدم الكعبة وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم لأن العرب كانوا حديثى عهد بشرك .

وجماهير العامة الآن ينبغى أن تساق سوقًا رفيقًا إلى حقائق الإسلام ، حتى تنصرف ـ فى هدوء ـ عن التوجه إلى هذه الأضرحة وشدّ الرِّحال إلى ما بها من جثث .

وإخلاص المعلم وأسلوبه فى الدعوة ، عليهما معول كبير فى تمحيص العقيدة مما علق بها من شوائب وعلل .

وقد تكون لدى بعضهم شبهة فى معنى التوسل .

فلنفهم أولئك القاصرين أن التوسل فى دين الله ، إنما هو بالإيمان الحق والعمل الصالح ، وقد جاء فى السنة :

«اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله الذى لا إله إلا هو ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد» .

فهذا توسل بالإيمان بذات الله .

وجاء ـ كذلك ـ توسل بالعمل الصالح فى حديث الثلاثة الذين آواهم الغار .
وجاء توسل بمعنى دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب .

ودعاء المسلم للمسلم مطلوب على أية حال .

ولا نعرف فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ﷺ توسلاً بالأشخاص مهما علت منزلتهم – سواء كانوا أحياء أو أمواتًا – على هذا النحو الذى أطبق عليه العامة وحسبوه من صميم الدين ، ودافعوا عنه بحرارة وعنف ضد المنكرين والمستغربين .

حـول توحيـد العامّـة

جاءتنى رسالة كريمة الأسلوب ، حسنة الجدال ، من طالب أديب يذكر فيها حجج القائلين بالوسيلة ويسردها على النحو التالى :

١- جمهور الناس عصاة ، والله إنما يتقبل من المتقين .

فلو ذهب الإنسان إلى ربه وهو موقر بالسيئات ، لم يجب له سؤالاً ، ولم يسق له فضلاً .

ومن ثم فعلى الإنسان أن يبحث عن وساطة مقبولة ، كولى صالح مثلاً .

٢- لا يسوغ القول بأن هذا شرك ؛ لأن النية هى الحكم على الأعمال ، والمتوسلون لم ينووا شركًا أو يرضوا به .

٣- الصحابة والفقهاء والأئمة جميعًا كانوا يتوسلون إلى الله بالأنبياء والأولياء . وقد توسل عمر بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم .

٤- يتساءل الكاتب عن قول الله فى جدار الغلامين اليتيمين : ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا** ﴾(الكهف : ٨٢) .

أليس فى ذلك ما يفيد أن بركة الأموات تتعدى إلى الأحياء؟

وفى قوله لنبيه ﷺ : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ** ﴾(النساء ٦٤) . أليس فى الآية ما ينص على التوسل ؟

وجاءتنا رسالة من أزهرى يقول فيها : إن أحد العلماء الرسميين يقول : إن التوسل بأصحاب القبور واجب ، فإن لصاحب القبر تأثيرًا أقوى من تأثير الحى ، ولا حرج فى ذلك ما دام المتوسل يعتقد أن الله هو الفاعل .

ويقول : إن الآيات التى استشهدنا بها على نفى هذه المزاعم نزلت فى المشركين خاصة ، وإن الرسول ﷺ أمر الأعمى أن يتوسل به إلى الله ، فرد الله عليه بصره . . إلخ .

هذه هى جملة الشبه التى تعلق بها طائفة من الناس وبنوا عليها مسالك

طائشة ، عكرت رونق التوحيد الخالص ، وردت كثيرًا من المسلمين إلى جاهلية طامسة مهلكة .

ونحن نغالب السأمة التى تعترينا كلما خضنا فى هذا الحديث ، أو سطرنا فيه حرفًا .

فإن الجدل فيه طال مع وضوح الحق واستبانة النهج ، ولم يبق إلا أن يحمل الناس حملاً .

وإليك البيان الحاسم لما سبق سرده من شبهات :

فأما أن العاصى ليس له اللجوء إلى الله مباشرة ، وأنه أولى به أن يستصحب أحد المقربين قبل مناجاة رب العالمين ، فكلام لا أصل له فى الإسلام قط .

إن إبليس دعا ربه مباشرة وأجيب!!

﴿ **قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ** ﴾(الحجر : ٣٦ ـ ٣٨) .

والمشركون دعوا الله مباشرة وأجيبوا :

﴿ **دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾(يونس : ٢٢ ، ٢٣) .

فهل عصاة المسلمين يحرمون من حق أخذه إبليس وجنوده؟

إن أى مسلم يقع فى خطأ ، فعليه أن يجأر بالدعاء إلى الله على عجل ، من غير توسيط نبى ، ولا ولى ، ولا إنسان ، ولا شيطان .

﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾(آل عمران : ١٣٥) .

ثم إن الرجل إذا كان بحالة لا يقبل منه دعاء معها ، فلن يقبل فيه دعاء غيره له ، ولو كان الداعى سيد الأنبياء .

ألا ترى كيف رفض استغفار الرسول ﷺ لعبد الله بن أبى؟

فأما المسلم المعتاد ، فله – بل عليه – أن يدعو الله ، ولا ينظر فى هذا الضرب من العبادة إلى مخلوق أبدًا . . .

وصحيح أن إجابة الدعاء تقتضى الإخلاص والتقوى ، ولكن ما صلة ذلك بما نحن فيه؟

أتظن أن الرجل إذا فقد الحرارة والصدق والتقى يذهب إلى ميت أو حى ليجد لديه العوض عما فقده؟

هذا زعم باطل ، وليس فى دين الله ما يؤيده ، بل إن دين الله ضده .

والقول بأن العمل لا ينظر إليه ، وإنما تعتبر النية المصاحبة له ، غير صحيح ، فالعمل المقبول- دينًا - يجب أن تتوافر فيه أولاً : النية الصالحة ، وثانيًا : الصورة المشروعة .

وفقدان العمل لأحد هذين الركنين يبطله .

فالعمل المتفق ظاهره مع الشرع إذا كان صاحبه مرائيًا أو منافقًا يحبط أجره .

والقصد الصالح إذا لم يجر فى طريقه الذى رسمه الدين فلا قيمة له ولا يلتفت إليه ، والتشريعات الوضعية لا تكترث بحسن النية عند ارتكاب محظور ، وترى أن الجهل بالقانون لا يمنع من تطبيق القانون ، وذلك سدّا للاحتيال وحماية للحقيقة .

فهل يكون دين الله أنزل من هذه التشريعات؟

ولماذا نستحى من وصف القبوريين بالشرك؟ ، مع أن الرسول وصف المرائين به فقال : «**الرياء شرك**» .

إن واجب العالم المسلم أن يرمق هذه التوسلات النابية باستنكار ، ويبذل جهده فى تعليم ذويها طريق الحق ، لا أن يفرغ وسعه فى التمحل والاعتذار! ولست ممن يحب تكفير الناس بأوهى الأسباب ، ولكن حرام أن ندع الجهل يفتك بالعقائد ونحن شهود .

أى جريمة يرتكبها الطبيب إذا هو طمأن المصدور ومنع عنه الدواء ، وأوهمه أنه سليم معافى؟ إن ذلك لا يجوز .

أما القول بأن الصحابة كانوا يتوسلون إلى الله بأشخاص الأحياء أو الأموات فمنكر قبيح .

وما يروى من شعر منسوب إلى الإمام الشافعى فمنحول لا أصل له .

وقد ذكرنا - نحن- أن دعاء الإنسان لنفسه ولغيره مطلوب .

وقد جاء ذلك فى القرآن على لسان النبيين والصالحين .

فمن دعاء إبراهيم :

﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ** ﴾(إبراهيم : ٤١) .

ومن أدعية نوح :

﴿ **رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾(نوح : ٢٨) .

﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ** ﴾ (الحشر : ١٠)

وقد أمرنا النبى ﷺ أن يدعو بعضنا لبعض بظهر الغيب .

ومن هذا القبيل ، وفى حدود تلك الدائرة من استعطاف العبيد لله ، وتواصيهم باسترحامه واستغاثته ، طلب عمر من العباس أن يدعو الله للمسلمين ، فدعا العباس ، وكان المسلمون حوله يؤمِّنون .

بَيَّنَ الزبير بن بكار فى الأنساب صفة ما دعا به العباس فقال : إن العباس لما استسقى به عمر قال :

«اللهم ، لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه بى القوم إليك بمكانى من نبيك ، وهذه أيدينا بالذنوب ، ونواصينا إليك بالتوبة ، فاسقنا الغيث» .

وليس ذلك مقصورًا على أن يدعو من نتوسم فيهم الصلاح لمن نظن بهم التقصير فهذا خطأ ، بل الأمر أعم .

وقد طلب رسول الله ﷺ من عمر أن يدعو له .

وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام جمهور الأمة أن يدعو له .

أولسنا نصلى عليه كما أمر الله ؟

فما صلة ذلك بالتوسل على هذا النحو المجنون الذى سقط فيه العامة ، وجاراهم عليه الكسالى والمرتزقة والقاصرون من أدعياء العلم؟

ولست أدرى : ما علاقة التوسل بالآية الكريمة : ﴿ **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا** ﴾(الكهف : ٨٢) .

إن الآية تفيد أن صلاح الآباء يمتد نفعه إلى الذرية ، كما أن فسادهم ينتقل خطره إليها .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (النساء : ٩)

فالصالحون بعد موتهم قد يظهر فى أعقابهم أثر من بركة استقامتهم . ونقول : «قد» لأن للوراثة قوانين سنها رب الوجود الأعلى ولا تعرف بالضبط اتجاهاتها .

وقد كان إبراهيم من نسل رجل كافر ، وكان لنوح ابن عنيد الضلال . والله يقول فى ذرية نوح وإبراهيم : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ (الصافات : ١١٣) .

ومن المنتسبين إلى الأسرة النبوية فى هذا العصر من أساءوا إلى الإسلام والعروبة أشنع الإساءة .

فإن كان السائل يقصد أن هؤلاء هم أصنام العصر الحديث الذين يتوسل بهم المتوسلون ، فقد كفرنا بهم وآمنا بالله وحده .

إن الحسين لم يدفع عن نفسه وهو حى ، فكيف يدفع عن غيره وهو ميت؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ ﴾ (النساء : ٦٤) .

ليس تصريحًا ولا تلميحًا إلى جواز التوسل .

والآية ناطقة بأن المجىء للظفر باستغفار الرسول ﷺ ، وذلك بداهة فى أثناء الحياة لا بعد الموت .

وللصوفية شطحات فى هذا الموضع إن صدقوا فيها فهى أحوال توقف عليهم وليس لدين الله بها شأن .

ومصادر التشريع معروفة .

ولم نعرف من مصادر التشريع أن فلانًا الصالح رأى فى منامه كذا وكذا ، أو أن فلانًا المجذوب خيل إليه فى أثناء زيارته للروضة النبوية كيت وكيت .

ولقد كان ابن عمر لما فاض قلبه من حب الرسول ﷺ يتصرف تصرفات خاصة ، فكان فى سفره ينزل حيث نزل الرسول ﷺ ، ويقعد حيث قضى حاجته ولو لم تكن له حاجة .

واعتبر العلماء هذا كله عاطفة لابن عمر وحده لا يلزم بها أحد ، ولا توصف بأنها شرع .

فإذا كان بعض الناس يحكى أمورًا عن مجيئه للرسول فى قبره ، وأنه سلم فسمع الرد ثم حظى بتقبيل اليد! فهو بين حالتين :

إما أن يكون كاذبًا فلا قيمة لكلامه .

وإما أن يكون مجذوبًا تخيل فخال ، ولا قيمة لكلامه كذلك . . .

ونحن لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لهذه الحكايات .

أما ذلك الذى يوجب التوسل ويرى أن تأثير الميت أقوى من الحى فهو رجل مخبول!

وزعمه بانتفاء الشرك ما دام الاعتقاد أن الفاعل هو الله كلام فارغ .

وقد أبنا أن المشركين القدماء كانوا يعرفون أن الفاعل هو الله .

وأن توسلهم كان من باب﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ** ﴾(الزمر : ٣) .

وأن ندمهم يوم القيامة إنما هو على تسويتهم المخلوق بالخالق :

﴿ **تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾(الشعراء : ٩٧ ، ٩٨) .

وهناك عشرات الآيات تؤكد هذا المعنى .

سيقول بعض الناس : إن القدماء كانوا يعبدون .

أما عوام اليوم فهم يدعون ويسألون فقط ، وشتان بين عباده الجاهلين وتوسل المحدثين بأولياء الله .

ونقول : هذه مغالطة ، فالسؤال والدعاء - بنص القرآن والسنة - عبادة محض :

﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾(غافر : ٦٠) .

وفى الحديث «**الدعاء مخ العبادة**» .

فلماذا نتوجه إلى البشر بما هو من خصائص الألوهية؟

وإذا وقع الجهال فى تلك الخطايا بغباوتهم ، فلماذا لا نسارع إلى إنقاذهم منها ، بدل تزوير الفتاوى ؟

وقد تذكر فى هذا المجال قصة الأعمى الذى توسل إلى الله بنبيه ﷺ ليرد إليه بصره .

ومع أن القياس – مع الفارق لو صحت القصة – فهذا الأعمى دعا الله ، وأولئك الحمقى يدعون غيره .

إلا أن القصة نفسها ليست من قسم الحديث الصحيح .

والاحتجاج بالآثار الضعيفة فى العقائد والأحكام لا يقبل من صاحبه .

ومثل هذه الرواية قد تروج عند الوعظ بفضائل الأعمال .

وآيات القرآن ينظر فيها إلى عموم اللفظ لا إلى خصوص السبب .

وقد حرم الله الشرك على العرب فهو على غيرهم حرام .

فالقول بأن الآيات نزلت فى أهل الجاهلية وحدهم جهالة لا نأبه لقائلها ، ولا نقيم لها اعتبارًا .

رزقنا الله صدق التوحيد ، وأحيانا وأماتنا عليه .

جاء عن النبى ﷺ : «**الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا فى الليلة الظلماء ، وأدناه أن تحب على شىء من الجور ، وأن تبغض على شىء من العدل ، وهل الدين إلا الحب والبغض؟**» .

ثم تلا : ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(آل عمران : ٣١) .

يعنى أن إخلاص التوحيد يقتضى محبة العدل وكراهية الظلم .

فإذا أحب الإنسان جائرًا وكره عادلاً فقد أشرك ، فإذا كان حس الإسلام مرهفًا إلى هذا الحد فى تمحيص القلوب ونقد اتجاهاتها الخاطئة ، فكيف يسوغ أن نأتى إلى رجل يجأر بالدعاء لغير الله ، ويخاف ويرجو غير الله ، ثم نقول له : لا بأس عليك؟

إن موقف العالم المسلم فى هذه القضية ليس موقف المحامى الذى يدافع عن المجرم فيقف ساعة أو أكثر ليزيف التهمة ويؤول القانون!! بل موقف الذائد عن معالم الإسلام .

فإذا كان لا يعاقب المتهم لأنه جاهل – كما يقولون – فليعلِّمه دين الله ، ولا يتركه نهبًا للشياطين .

الكمال الأعلى

القـــدرة

العالم وما فيه من سكون وحركة ، أثر لقدرة الله سبحانه وتعالى . وليست لشىء ما قدرة ذاتية يستمدها من طبيعته المجردة .

فإذا رأيت البذور تشق التربة ، وتنمو رويدًا رويدًا لتستوى على سوقها ، فذلك بقدرة الله .

وإذا رأيت الأمواج تلطم الشطآن رائحة غادية لا تهدأ حتى تثور ، فذلك بقدرة الله ، وإذا رأيت القاطرات أو الطائرات تنهب الفضاء وتطوى الأبعاد ، وتحمل الأثقال فذلك بقدرة الله .

وإذا رأيت البشر يموج بعضهم فى بعض ، وينفعلون بالحب والبغض ، والفرح والحزن ، وينطلقون عاملين ، أو يهدءون نائمين فذلك بقدرة الله .

وسواء شعرت أو لم تشعر ، فنبضات قلبك فى حناياك ، وسريان دمك فى عروقك ، وكمون الحس فى أعصابك ، وتجدد الحياة فى خلاياك ، وانسكاب الإفرازات من غددك ، ذلك كله بقدرة الله .

لا تحسبن شيئًا فى الكون قادرًا بنفسه .

فكما أن القدرة أبدعته أولاً من عدم ، فقد أودعت فيه من أسرارها ، وبثت فيه من آثارها ما يدل عليها .

وبعض الجاحدين من علماء الطبيعة يردون ما يقع تحت أبصارهم من هذه الدلائل الباهرة إلى مجهول محض ، أو قوى كامنة فى المواد والعناصر المختلفة .

وهذا تخريف شائن ، وتسفيه للعقل ، ومغالطة للواقع .

إن النور المتولد عن انتشار الكهرباء فى الأسلاك ، والحركة الناشئة عن امتداد الأبخرة فى المواسير ، والحديد المرتفع فى الجو ، نتيجة تغيير المراوح الدائرة لمقادير الضغط حول الطائرة ، كل أولئك لا يرفع قدر عنصر من العناصر المخلوقة ، فيهب له مرتبة الوجود المستقل ، فضلاً عن الإيجاد الرائع!

لماذا يطلب منا أن نظن فى مواد التربة أنها ـ بقدرتها ـ خلقت النبات؟

ولو كان ذلك حقّا ، فما الذى يمنع التربة أن تكون إلهًا ؟

ولو كانت العناصر جميعًا بهذه المثابة مع حركاتها وسكونها ، فأى خبط نقع فيه نتيجة هذا الفرض الأحمق؟ .

أليس أقصر طريق نصل به إلى الحق أن ننظر إلى العالم كله ، من أرضه لسمائه ، على أنه صنع القدرة العليا ، وأن كل ما يتجدد فيه إنما يقع تحت إشراف القدرة وهيمنتها؟

من المؤسف أن تكون السمة الغالبة على العلوم الطبيعية كافة أنها تقوم على البحث المجرد فى مادة الوجود ، وعلى تعرف حقيقة العلاقات والروابط بين شتى العناصر . وقلما تلتفت إلى شىء بعد ذلك ، إذا وقفت إلى نتائج معينة فى موضوع بحثها .

وتنتهى أغلب هذه العلوم بمن يدرسونها إلى علم جيد بالمخلوقات ، وجهل مطبق بخالقها ؛ لأنه لم ترد إليه إشارة ما فى غضون بحوثها الكثيرة المتشعبة .

وهذه ـ لا ريب ـ خيانة علمية ، فإن دراسة هذا الكون العظيم تنفذ إلى صميم الفكر الحر بأشعة من الهدى والإيمان . وتجعل الإنسان يتطلع ـ ملء الفؤاد ـ بعواطف الرهبة والرغبة إلى هذا الخالق العظيم .

وهذه البحوث المجردة تشعر بآثار القدرة الرائعة فيما تتناوله من نواحى الطبيعة ، غير أنها تطويها طيّاً تحت أسماء مبهمة ، وتستدرج المتعلم بإجراء الملاحظات والتجارب ، ثم تشغله بتدوين النتائج القريبة وحسب !

أما الالتفات من وراء هذه الحجب الشفافة إلى عظمة الله ـ جل جلاله ـ فأمر لا يكترث له كثير من علماء الكون والحياة .

وهكذا تظل بحوثهم مبتورة ؛ لأنها تنقصها الحلقة المفقودة بين الخلق والخالق .

من ذلك كله نعلم أن الله قدير على كل شىء ، وأنه قوى متين ، وأنه لا يؤوده خلق ولا أمر .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ﴾ (فاطر : ٤٤)

والقدرة فى مجالها الواسع لا يعييها شىء البتة ، وآثارها التى نشهدها تدل على طاقة لا تقف عند حدود .

وليس معنى ذلك بداهة أن تخرج القدرة على منطقها .

فيقال ـ مثلاً : إنها لا تستطيع قلب الحقائق!

وقد كان الدكتور «زكى مبارك» سخيفًا ، ولعله كان «سكران» يوم كتب فى (البلاغ) : إن الله لا يستطيع إخراجى من ملكه ، وإن الله لا يستطيع الجمع بين النقيضين!

والجنون فنون .

الإرادة

والله سبحانه وتعالى فيما خلق وفيما يخلق ، وفيما دبَّر ويدبر به شئون العالم ـ كان يصوغ الكائنات فى الأوضاع التى يريدها ، ويضفى عليها الأوصاف التى يشاؤها ، ويبرزها فى الأوقات التى يختارها ، لا يستكرهه أحد على شىء من ذلك كله .

وما ترى فى الأرض والسماء من تنوع فى الوجود ، وتميز فى السمات ، هو مظهر الإرادة الحرة فى تعلقاتها كافة .

فما أوجده الله فى هذا العصر كان من حقه الكامل أن يوجده فى الأيام الخالية .

وما جعله الله كوكبًا متألقًا كان يستطيع جعله جندلاً باردًا .

وتوزيع الصفات والأحجام والأحوال فى أنحاء الكون العريض ليس إلا المشيئة العليا لله عز وجل .

ولو أراد أن يخلق العالم الذى نعيش فيه على نحو آخر فى قوانينه وأنظمته وأحيائه وأشيائه كلها لَفَعَلَ .

وإنك لترى انطلاق المشيئة دون أى عائق فى إخراجها الأصناف المختلفة من الأصل الواحد !

فالحقول المتجاورة تختلف محصولاتها كمّا وكيفًا!

والبذور المتجانسة تتفاوت فروعها حلاوة وحموضة ولونًا ووزنًا فى النبات ، ولؤمًا ونبلاً وذكاءً وبلادةً فى الإنسان والحيوان .

﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد : ٤) .

وقديمًا استدل الأئمة على عظمة الإرادة – فى هذا المعنى – بالنحل يأكل من ورق الشجر فيحوله شهدًا ، ويأكل منه الدود فيحوله حريرًا ، وتأكل منه أطيار أخرى فتحوله قذرًا .

وإذا اتجهت الإرادة إلى شيء فيستحيل أن يتخلف أثرها .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾(هود : ١٠٧) ، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(يس : ٨٢) .

فإرادة الله نافذة فى السماء والأرض ، لا رادَّ لها ولا معقب عليها .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾(القصص : ٦٨) .

وقد تطلق الإرادة على قصد الشيء بأسلوب سلبى .

فأنت إذا خرجت من بيت يستطيع صاحبه منعك من الخروج منه ولكنه تركك ، فهو بسكوته يريد خروجك .

وإلى هذا المعنى يشير المتنبى - لما ترك سيف الدولة مغاضبًا - ثم قال مبررًا عمله وملقيًا التبعة على صاحبه :

إذا ترحّلتَ عن قومٍ وقد قَدَروا ... ألا تُفارقَهم؛ فالرّاحلون هُمو

ومثل هذا ترك امرئ يمشى فى طريق الضلالة ويهيم على وجهه ، لأنه حرم أسباب اللطف ، والله قادر على سوقها إليه لو شاء!

ولعل ذلك تفسير قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(آل عمران : ١٧٦) .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾(آل عمران : ١٧٨) .

الحكمـــــة

وشمول الإرادة وعموم القدرة ، وكون الله سبحانه يفعل ما يريد متى يريد وكيف يريد ، ليس معناه أن أمور الخلق والرزق ، وشئون القبض والبسط ، وحظوظ الرفعة والضعة ، والإعزاز والإذلال ، والنصر والهزيمة - أن هذه جميعًا تصدر على طريقة الارتجال السريع ، أو الخواطر السانحة ، أو تتم اتفاقًا وتقع مصادفات عارضة! كلا . كلا .

فإن الكون كله خاضع لشبكة دقيقة النسج من الأسباب والمسببات ، والسنن الثابتة الخالدة ، والقوانين المترابطة المتكاملة ، لا تضطرب ولا تختلف ، ولو أجمع البشر على مناقضتها .

فالنبات يتم نضجه بالإرادة والقدرة . .

ولكن مظهر الإرادة والقدرة فيما نعرفه من غرس وسقى وتعهد ، وزمان ومكان .

والجنين يكتمل بشرًا سويًا بالإرادة والقدرة .

ولكن اكتماله فى أطوار وأحوال ، لابد من توافرها ، ويستحيل أن يولد بغيرها .

وقول الله إنه يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء لا يعنى أنه ـ بين عشية وضحاها ـ يقيم دولة ويهدم أخرى .

فدون إقامة الممالك وقبل انهيارها توجد مقدمات طويلة تستغرق سنين أو عصورًا ، حتى تقع نتائجها اللازمة .

وأصحاب العقول الضيقة والأفكار القاصرة يحسبون أن وصف الله عز وجل بأنه يفعل ما يشاء ، معناه أن أحكامه فى عباده لا ضابط لها ولا رابط بينها .

ولعلهم يقيسون سعة السلطان الإلهى على ما عهدوه من تصرفات ذوى السلطة فيهم .

أولئك الذين يخبطون خبط عشواء ويعبثون عبث الحمقى .

تعالى الله عما يظن الجاهلون علوّاً كبيرًا .

إن الأسباب والمسببات هى المفاتيح الملقاة بين أيدى البشر ، ليصلوا بإرادتها إلى ما وراءها من خير أو شر .

وعموم المشيئة والقدرة مقيد بما شرع الله فى كونه ، أو بين عباده من قوانين كونية ، أو قوانين شرعية .

كذلك ليس معنى أن الله يفعل ما يشاء أنه يثيب العاصى أو يعذب الطائع ، أى أنه يجوز عليه الظلم ، ويقع منه الغبن !!

وهذا جهل شنيع ، ونسبة ذلك إلى الله تكذيب لما قال فى كتابه العزيز . .

ثم إن هذه العدالة مردها إلى ما ينبغى لله من كمالات بداهة . وليس مردها إلى أنه لو ظلم تعرض لعقاب أو سؤال ، فذلك مستحيل .

ومن أين يحدث ذلك ، وهو المتفرد فى الوجود بالألوهية ، بين عبيد عَنَتْ له وجوههم ، وذلت له رقابهم ؟!

إن بعض العامة من المسلمين يظنون فى انطلاق المشيئة أن السنن الكونية صفر ، وأن العدالة العليا قد تتخلف ، ونشأ عن هذا استهتار غبى بالأعمال والمسئوليات ؛ سنعالجه عند الكلام على القضاء والقدر .

الحيـــاة

مراتب الوجود تختلف رفعة وضعة : فالجماد أنزل رتبة من النبات ، والحيوان أعلى درجة من النبات ، والوجود الإنسانى أرقى من أنواع الوجود الأخرى .

واتصاف الله سبحانه وتعالى بالحياة معناه أن وجوده بلغ الغاية فى عظمته وآثاره ، فهو موجود ، ويعرف أنه موجود ، وهو يهب الوجود لغيره عن إدراك واختيار ، ومن ثَمَّ فهو حىٌّ .

إن بعض الفلاسفة الذين يقولون بأن العالم معلول فى وجوده بغيره ، ويسمون الخالق علة العلل أو مبدأ الوجود ، يعطون صورة مبهمة عن هذا الوجود الأعلى .

حتى لتحسب أن صدور الكائنات عن بارئها الأعظم يشبه التفاعلات الكيماوية التى لا روح فيها ولا حياة معها ، وهذا ضلال . . .

فدلائل الحياة الكاملة تنبثق من الذات العليا انبثاقًا يتضاءل أمامه كل ما نعرف من صنوف الحياة ودرجاتها المختلفة .

أطلق لخيالك العنان ، وتصور كل ما تنتجه الأيدى «الحية» من أعمال ، وما تنشئه العقول «الحية» من أفكار ، وما تهتز به الأفئدة «الحية» من مشاعر .

واجعل هذا الخيال يضم أشتات ذلك من مشارق الأرض ومغاربها ، ويستجمع ما حدث فى الأعصار الخالية ، وما يحدث اليوم ، وما سوف يحدث غدًا ؟ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . .

إن مظاهر هذه الحياة المفعمة بالقوة والإنتاج لا تُعَدُّ شيئًا مذكورًا بالنسبة إلى الحياة الإلهية الواسعة ، بل هى أثر ضئيل من أعمال الحى الذى لا يموت ، الحى الذى ينفخ من روحه فى الموات فيهتز ، وفى الجماد فيتحرك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾(الأنعام : ٩٥) ، **﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾**(البقرة : ٢٥٥) .

العلـــــم

الله تعالى عليم بكل شىء ، لم يسبق معرفته جهل ، ولا يعدو عليها نسيان ، ولا يمكن أن تخالف الواقع .

وعلمه محيط بالأمس واليوم والغد ، بالظاهر والباطن ، بالدنيا والآخرة .

قد يعرف الإنسان شيئًا عن حاضره ، وقد يذكر طرفًا من ماضيه ، وما وراء ذلك فهو بالنسبة إليه عماء .

بيد أن الإنسان لا يذكر من ماضيه الطويل إلا قليلاً من الحوادث ، ولا يدرى من تاريخ العالم الذى يعيش فيه شيئًا طائلاً .

لكن الله – وحده – يحصى أعمالنا الماضية ساعة ساعة ، ويسجل أحوال العالم الغابر دولة دولة ، وحادثة حادثة .

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى ﴾(طه : ٥١ ، ٥٢) .

إنه علم يشرق على كل شىء ، فيجلى بواطنه وخوافيه ، ويكشف بداياته ونهاياته ، ويكتنه ذاته وصفاته .

فالشهود والغيب لديه سواء ، والقريب والبعيد والقاصى والدانى .

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾(فصلت : ٤٧) .

والعلم الإلهى يشرف على كل شىء إشرافًا تامًا ، ويهيمن على أطوار الموجودات – ما يحس منها وما يتوهم – هيمنة كاملة .

فعدد ما فى صحارى الأرض من رمال ، وعدد ما فى بحار الدنيا من قطرات ، وعدد ما فى الأشجار من ورقات ، وعدد ما فى الأغصان من ثمار ، وما فى السنابل من حبوب ، وما فى رءوس البشر وجلودهم من شعر .

ثم ما يمكن أن يطرأ على هذه الأعداد الكثيرة من أحوال شتى ، وما تحتاج إليه فى وجودها من قوى متجددة ، وما يعتريها من أوصاف متغايرة - ذلك كله يستوعبه شعاع واحد من أشعة العلم التى لا تدرى عقولنا من كنهها إلا قليلاً :

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾(الملك : ١٣ ، ١٤) .

وهذا العلم من خصائص الذات المقدسة .

وقد ينير الله بعض العقول بحقائق يسيرة ، على قدر طاقتها من المعارف الكونية ، أو رشحات ضئيلة من الغيوب الخفية ، حسب قواعد مدروسة ، وحكم مأنوسة .

وما وصل إليه البشر من ذلك مقرر معروف ، وما أوتوا إلا القليل .

أما الله عز وجل ـ فكما قال فى كتابه :

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام : ٥٩)

السَّمْـــعُ والبَصَـــر

عن عائشة رضى الله عنها : **الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات** .

لقد جاءت المجادلة «خَوْلَة» إلى رسول الله ﷺ فى جانب البيت تحدثه ، ما أسمع ما تقول ، فأنزلَ الله عز وجل :

﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾(المجادلة : ١)» .

أجل! فما من كلام يدور بين الناس ، أو حديث يتجاذبون أطرافه إلا سبق وقعه إلى سمع الرحمن جل وعلا ، قبل أى شىء!

ولا تحسبن أن الله حين يسمع نجوى جماعة يشغله ذلك عن سماع قوم آخرين .

كلا ، فما يشغله شأن عن شأن ، وما تغيب عنه همسة وسط الضجيج ، ولا تشتبه عليه لغة على اختلاف الألسنة .

إنك ـ بالوسائل التى هُدىَ إليها البشر ـ تجلس فى المشرق فتنقل إليك محطات الإذاعة الأغانى والأحاديث من المغرب ، طاوية الأبعاد الشاسعة .

فما أدرانا بما وراء ذلك من أسرار الكون .

وما أيسر ـ فى منطق العقل ـ أن يشرف رب الكون بسمعه على كل حركة وسكنة فى الوجود ، تنبعث من مصدرها القريب أو البعيد – وليس ثم قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله ـ فيعلم كنهها ، ويسمع صوتها ، ويبصر وضعها! إن ربك يسمع كل صوت .

وهناك أصوات يسمعها ويحبها ؛ «**ما أَذِنَ ـ ما استمع ـ الله لشىء أَذَنَهُ لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن ، يجهر به**» .

وكما يحب الله صوت الوحى ، تتلوه الألسنة ؛ يكره صوت الفحش والسوء ؛

﴿ **لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا** ﴾(النساء : ١٤٨) .

ولا تستكثر أن يقال لك : إن الله يسمع خفقان القلوب فى خفايا الخلق أجمعين .

فما القلوب إلا أثر قدرته ، شحنها بالحياة ثم دفعها فهى تسير إلى أجل معلوم ، فكيف لا يسمع أثر ما أوجد؟

وكما أن الله يسمع كل شىء ، فهو يشهد كل شىء ، ورؤيته تنظر فى أعماق الظلمات فتستشف كوامنها .

فما هو بحاجة إلى ضياء يبصر به الخفى ، أو مكبر يعظم به الدقيق .

إذا كنت ثالث ثلاثة ، فاعلم أن هناك رابعًا يبصر ما تفعلون ، ويسمع ما تقولون .

﴿ **لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا** ﴾ (الكهف : ٢٦) .

عندما أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون توجسا من طغيانه ، وقالا :

﴿ **رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** ﴾ (طه : ٤٥ ، ٤٦)

إنه معهما ، ومع كل كائن ، من بدء الخلق إلى قيام الساعة ، وما قبل ذلك وما بعد ذلك ، يسمع ويرى .

وهو ـ سبحانه ـ قد ركَّب فى وجوهنا هذه العيون التى نقرأ بها ونكتب ، ونشهد بها كما نشاء .

ولكن ما قيمة رؤيتنا هذه إلى جانب الرؤية الإلهية المحيطة الشاملة .

لو أن كل ذى بصر انتظموا صفاً يستغرق محيط الأرض ، ثم اجتهدوا فى رؤية ما حولهم ، ما أبصروا شيئًا يذكر إلى جانب الرؤية الإلهية التى تستوعب جميع المدركات ، من جميع الجهات ، فى وقت واحد ، سواء فيها المستخفى بالليل والسارب بالنهار ، الخالى وحده ، والبارز للناس :

﴿ **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ** ﴾ (يونس : ٦١) .

والإحساس بهذه الحقيقة جزء من الدين ، بل هو قمته العليا :

« **الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » .

وملاحظة العبد لله أساسها شعوره بأنه ـ سبحانه ـ قائم على كل نفس بما كسبت ، ومطلع على ما أسرت وأعلنت ، وذلك وحده لب التقوى وسر الإخلاص .

الكـــــلام

هو وسيلة للإبانة عما فى النفس من معارف ونصائح ورغبات شتى ، وتفهيم ذلك للآخرين .

ولاشك أن الله سبحانه وتعالى مستحق لهذا الوصف .

فقد عهد إلى ألوف من ملائكته ، بالقيام على شئون الإحياء والإماتة ، فى أنحاء العالم العريض ، كما عهد إلى ألوف وألوف منهم بشئون شتى ، لا ندرى منها إلا القليل . وهذا التسخير الدائم خاضع لأوامر الله التى يتكلم بها ، خلقًا ورزقًا ، ورفعًا وخفضًا ، ومحوًا وإثباتًا ، وتقديرًا وتدبيرًا . . . إلخ .

وما حفل به علم الله فوق الحصر ، وما يدل على هذا العلم ـ من كلمات لا نهاية لها ـ كذلك .

إن أحدنا ـ فى مباشرة أعماله المحدودة ـ يحتاج إلى قاموس من الألفاظ .

فما ظنك برب العالمين ، وهو يحكم ملكوته الواسع العظيم؟

ألا ترى أن كلامه من السعة والاستبحار على النحو الذى يقول الله تعالى فيه : ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾(لقمان : ٢٧) .

﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** ﴾(الكهف : ١٠٩) .

وكُتُبُ الله التى أنزلها على أنبيائه مظهر من مظاهر اتصافه جل شأنه بـ «الكلام» .

وقد كلم الله موسى تكليمًا ، وسوف يكلم كثيرًا من عباده يوم القيامة .

وأرسل الروح الأمين بختام الوحى إلى صاحب الرسالة العظمى .

فكان القرآن الكلمة الأخيرة فى هدايات الله لعباده .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنعام : ١١٥)

أما حقيقة الكلام ـ كصفة الله ـ فلا نقصر فيها ولا نطيل ؛ لأننا دون هذا المجال بكثير .

بيد أننا نجزم بأن الكلام الإلهى ليس ألفاظًا تصنعها الشفتان واللسان ، وتضبطها الرئتان والحنجرة والأسنان ، فذاك شأن الإنسان لا وصف الرحمن .

أنت أنت اللـــه [1]

إذا ما اتجه الفكر فى السماوات حيث انتشرت النجوم فى الليل ، وإذا ما كلَّ البصر فيما لا نهاية له فى الآفاق المظلمة ، وإذا ما خشعت النفس خشعتها من رهبة السكون الشامل ، فإنك تشرف بوجهك الكريم من خلال هذه الآفاق ، وتسمع صوتك فى ذلك السكون ، وتمس بعظمتك النفس الخاشعة المطمئنة .

حينئذ تبدو الآفاق المظلمة كأنها باسمة مشرقة ، ويتحول السكون إلى نبرات مطربة ، تنبعث من كل صوب ، وحينئذ تتغنى النفس الخاشعة لتقول :

«**أنت أنت الله**» .

وإذا ما كان المتأمل على شاطئ البحر الخضم ، وأرسل الطرف بعيدًا ، حيث تختلط زرقة السماء بزرقة الماء ، وحيث تنحدر شمس الأصيل رويدًا رويدًا كأنها الإبريز المسجور ، لتغيب فى هذا المتسع الملح الأجاج ، وحيث تتهادى الفلك ذات الشراع الأبيض فى حدود الأفق الملون بألوان الشفق ، كأنها طائر يسبح فى النعيم -

إذ ذاك يشعر المتأمل بعظمة واسعة عظمة البحر الواسع .

وإذ ذاك تقر العين باطمئنان الفلك الجارى على أديم الماء الممهد ، وفى رعاية الله الصمد ، حيث يكون مظهر العظمة ، وحيث تطمئن النفس لرؤية ما تطمئن إليه فى منظر جميل .

إذ ذاك يدق الفؤاد بدقات صداها فى النفس : «**أنت أنت الله**» .

وإذا ما انطلقت السفينة بعيدًا فى البحر اللُّجِّى ، وهبت الزوابع ، وتسابقت الرياح ، وتلبد بالسحب الفضاء ، واكفهرَّ وجه السماء ، وأبرق البرق ، وأرعد الرعد ، وكانت ظلمات بعضها فوق بعض ، ولعبت بالسفينة الأمواج ، وأجهد البحار جهده ، وأفرغ الربان حيلته ، وأشرفت السفينة على الغرق ، وتربص الموت من كل صوب وحدب .

---

(١) من «خواطر نفس» للدكتور منصور فهمى .

إذ ذاك يشق ضياؤك هذه الظلمات والمسالك ، وتحيط رأفتك بهذه الأخطار والمهالك ، وتصل بحبال نجدتك المكروبين البائسين .

وإذ ذاك يردد القلب واللسان : «**أنت أنت الله**» .

وإذا ما اشتد السقم بمن أحاطت به عناية الأطباء ، وسهر الأوفياء ، ونام بين آمال المخلصين ودعوات المحبين ، ثم ضعفت حيلة الطبيب ، ولم ينفع وفاء الحبيب ، واستحال الرجاء إلى بلاء .

إذ ذاك تتجلى مستويًا على عرش عظمتك ، والنواصى خاشعة ، والنفوس جازعة ، والأيدى راجفة ، والقلوب واجفة لتقول : «**أنا قضيت**» . ويقول الطبيب والقريب والحبيب : «**لك الأمر ، أنت أنت الله**» .

وإذا ما باين الدنيا إنسان وباينته ، إذ ينظر إلى المال فيلقاه فانيًا ، وإلى الجاه فيلقاه ذاويًا ، وإلى الأمانى فيلقاها زائلة ، وإلى الآمال فيجدها باطلة ، وإلى الشهوات فيجدها خادعة كاذبة ، وإلى المسرات فيجدها آفلة غاربة .

إذ ذاك يستغنى عن الجاه والمال ، وتشل فى نفسه حركة الآمال ، وبين جاه يدول ، وأمل يزول لا يملأ فراغ النفس إلا ذكرك : «**أنت أنت الله**» .

وإذا ما وقعت العين على زهرة تتفتق فى الأكمام ، أو تلاقت العين بعين يملؤها الحُسْنُ والابتسام ، وإذا أعجب المعجبون بجمال الفجر المتنفس ، وتغريد الطير المتربص ، وعاود الصدر انشراحه ، وملأ القلب ارتياحه .

إذ ذاك يشرق فى قلوبنا نورك الجميل ، فنراك «**أنت أنت الله**» .

فيما يمس النفس من مظاهر العظمة ، ومظاهر السعة ، ومظاهر الرحمة ، ومظاهر القدرة والقضاء ، ومظاهر الدوام والبقاء ، ومظاهر الجمال والجلال ، اعتاد الناس أن يصفوك بالعظيم ، والواسع والرحيم ، والقادر والدائم ، والجميل والجليل ، وأوتار القلوب تردد : « **أنت أنت الله ، أنت أنت الله**» .


القضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر عقيدة من العقائد التى أسسها الإسلام على الإيمان بالله عز وجل ، وبناها على المعرفة الصحيحة لذاته العليا ، وأسمائه الحسنى وصفاته العظمى .

ولا ريب أن الإسلام قد أوجب لله نعوت الكمال ، وصفات الجلال والجمال ، دواعى الحمد والتمجيد .

ووافق العقل النقل فى ذلك كله ، ثم فُصِّلت هذه الكمالات الواجبة لرب الوجود : ﴿ **الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ** ﴾(الأعلى : ٢ ، ٣) .

فكان فى عداد ما ينبغى الإيمان به والاطمئنان إليه أن لله وحده صفات العلم الواسع ، والإرادة الشاملة ، والقدرة الكاملة ، وأنه – سبحانه – فعال لما يريد ، عالم بما يفعل .

نعم إن الله وسع كل شىء علمًا ، وأحاط بكل شىء خُبراً .

سواء فى هيمنته : دبيب النمال فى جحورها ، أو وثبات الأفلاك فى مداراتها .

وشمول علمه يستغرق الأمكنة على تعدادها ، والأزمنة على تطاولها ، فما تغيب عنه بقعة فى المشرق أو فى المغرب ، وما يغيب عنه يوم فى الأزل أو الأبد .

وأحداث الحياة ـ وما أكثر ما يلوح فى آفاق الحياة من خير وشر ، وبأس ورجاء ، وحزن وفرح ، ذلك كله استوعبه العلم الإلهى عدّاً وإحصاءً :

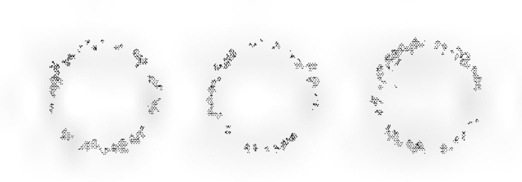
﴿ **وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا فِى السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾(يونس : ٦١) .

وفى صفحات هذا الكتاب خُطَّت سطور القضاء والقدر ، وعرفت مصاير الأمور ، ووُضِّحَت نهاياتها ، من شقاوة وسعادة . ولكن أنَّى لنا علم بذلك ؟

إِنَّمَا الغَيْبُ كِتَابٌ صَانَهُ عَنْ عُيُونِ الخَلْقِ رَبُّ العَالِمِينْ
لَيْسَ يَبْدُو مِنْهُ لِلنَّاسِ سِوَى صَفْحَةِ الحَاضِرِ حِينًا بَعْدَ حِين

ويتعلق القضاء والقدر بوقائع الحياة وأحداثها ، وأعمال الناس وتصرفاتهم على نحوَين واضحين متميزين! لكل نحو منهما حكمه الخاص وآثاره التى تترتب عليه .

وبين كلا القسمين فواصل قائمة ، تجاهلها يُوقعُ فى الدين الغموض والاضطراب ، ولذلك سنوضح حدود كل قسم ومعالمه .



نحن مُجبُورون فى هذا كلّه

هناك أمور تحدث وتتم بمحض القدرة العليا ، وعلى وفق المشيئة الإلهية وحدها ، وهى تنفذ فى الناس طوعًا أو كرهًا ، سواء شعر بها الناس أو لم يشعروا . فالعقول ومقدار ما يودع فيها من ذكاء أو غباء ، والأمزجة وما يلابسها من هدوء أو عنف ، والأجسام وما تكون عليه من طول أو قصر ، وجمال أو قبح ، والشخصيات وما تطبع عليه من امتداد أو انكماش ، والزمان الذى تولد فيه والمكان الذى تحيا به ، والبيئة التى تنشأ فى ظلها ، والوالدان اللذان ينحدر منهما ، وما تتركه الوراثة فى دمك من غرائز وميول ، والحياة والموت ، والصحة والمرض ، والسعة والضيق ، ذلك ومثله ، لا يد للإنسان فيه .

فأصابع القدر وحدها هى التى تتحرك ظاهرة وباطنة ، لتوجه الحياة كما يريد صاحب الحياة .

﴿ إنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران : ٥ ، ٦) .

وغنىٌّ عن البيان أن شيئًا من هذا ليس محل مؤاخذة ولا موضع حساب ، وإنما لفتنا النظر إليه لتعرف أن الجنسية التى تنتمى إليها ، واللغة التى تنطق بها ، بل نوع التكوين الذى يوجد الإنسان عليه ، ذكرًا كان أو أنثى .

هذا شىء من الخصائص التى لا قِبَلَ لنا بها ، ولا سبيل لنا إليها ، وفى مثلها يساق قول القرآن الحكيم :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص : ٦٨ ــ ٧٠) .

والإيمان بهذا الضرب من القدر واجب ، والأدلة عليه متظاهرة من العقل والنقل .

وعلى المؤمن أن يوقن – من أعماق قلبه – أن هذه أمور مفروغ منها ، مفرقة على ذويها ، من قديم جفت الأقلام بها فلا راد لها .

هذه أمور علمها الحق وأرادها ، ونفذها استقلالاً ، ولسنا منها فى قليل ولا كثير ، وقد أحسن سلفنا الصالح الإيمان بها فكان أثرها فى مسلكهم رائعًا .

وإذ علم الواحد منهم أن أجله مكتوب لا ينقصه الإقدام ولا يزيده الإحجام ، أدَّى واجبه على وجهه الأكمل ، وفى أذنيه دوىُّ التوجيه الإلهى :

﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾(التوبة : ٥١)

ومواضع الرجوع إلى القضاء والتسليم لله فيما أراد ، كثيرة متنوعة ، وهى تعطى الرجل صلابة وقوة واندفاعًا ، وتملؤه عزيمة وتحملاً وجلادة .

هُنا إرادتَنَا حُرَّة

أما القسم الثانى من متعلقات القضاء والقدر ، فهو يتصل بأعمال على عكس الأولى .

ونحن نشعر حين أدائها بيقظة عقولنا ، وحركة ميولنا ، ورقابة ضمائرنا .

فما مدى صلتنا بها ؟ وما معنى نسبة القدر إليها؟

الخَطْبُ سهل جدًا ، وسنجيب على هذا التساؤل بما يذر شُبَهَ المشوشين هباء إن شاء الله .

إننا نُحِس باستقلال إرادتنا وقدرتنا فيما نباشر من أعمال تقع فى دائرتهما ، وكان يكفى هذا الإحساس دليلاً على حريتهما ، لولا أن هناك من يزعم أن الإحساس يكذب أحيانًا .

ولكننا نطمئن إلى صدق هذا الإحساس ، ونكذب ما يغض من قيمته بعد أن نرجع إلى القرآن الكريم نستفتيه فى ذلك .

ونحن نجد القرآن يؤكد هذا الإحساس البديهى ، وينوه بحرية الإرادة الإنسانية :

﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾(الكهف : ٢٩) .

ولا يُخْلِيهَا من المسئولية الواضحة على ما يصدر منها :

﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ** ﴾(يونس : ١٠٨) .

بل إن طبيعة الدين ـ وهى التكليف والابتلاء ـ لا تتحقق البتة مع استعباد الإرادة وتقييدها . .

وإيقاع الجزاء كذلك لا يتوجه ويقر إلا فى هذا الجو الطلق الفسيح .

وليس هنا موضع سرد الآيات الشاهدة لذلك ، فالقرآن كله شواهد بينات ودلائل واضحات .

فما موقف العلم الإلهى من هذا النوع من الأعمال؟ هو الإحاطة التامة والشمول الكامل :

﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّى وَلا يَنسَى ﴾(طه : ٥٢) .

ولكن كيف يتفق القول بحرية الإرادة والقول بأن أعمالنا لن تخرج عن دائرة العلم الإلهى المحيط الشامل ؟

والجواب سهل : قف أمام مرآة مجلوة صافية وأنت عابس الوجه مقطب الجبين فماذا ترى؟ سترى صورتك كما هى عابسة مقطبة .

أى ذنب للمرآة فى ذلك؟ إن مهمتها أن تصف وأن تكشف وهى قد صدقت فيما أثبتت لك ، ولو كنت ضاحك الوجه لأثبتت لك على صفحتها خيالاً ضاحكًا لاشك فيه .

كذلك صفحات العلم الإلهى ومرائيه لا تتصل بالأعمال اتصال تصريف وتحريك ، ولكنه اتصال انكشاف ووضوح ، فهى تتبع العمل ولا يتبعها العمل .

غاية ما يمتاز به العلم ، أنه لا يكشف الحاضر فقط ، ولكنه يكشف - كذلك - الماضى والمستقبل .

فيرى الأشياء على ما كانت عليه ، وعلى ما ستكون عليه ، كما يراها وهى كائنة سواء بسواء . .

بقى بعد ذلك تفسير ما قررناه من شمول الإرادة العليا ، ومن هيمنة القدرة العليا على الخلائق كافة ، فما معنى ذلك وكيف يتفق مع حرية الإرادة الإنسانية ؟



مَعْنى يُضلُّ مَن يَشاء ويَهدِى مَن يشاء

الخطب فى ذلك سهل كذلك ، ولن نذهب فى بيانه إلى أبعد من كتاب الله لمن شاء أن يفهم .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾(القمر : ١٧) .

ونحن نجد أن إطلاق المشيئة فى آية ، تُقَيِّدُه آية أخرى يذكر فيها الاختيار الإنسانى صريحًا .

أى إن إضلال الله لشخص معناه : أن هذا الشخص آثر الغىَّ على الرشاد ، فأقره الله على مراده ، وتمم له ما يبغى لنفسه . . .

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾(الصف : ٥) . وانظر إلى قيمة التنويه بالاتجاه البشرى المعتاد .

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾(النساء : ١١٥) .

فهل بقى غموض فى إطلاق المشيئة ؟ لا .

إن معنى قوله : ﴿يضل من يشاء﴾ لا يعدو قوله :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ (البقرة : ٢٦ ، ٢٧)

وكذلك الحال فى : ﴿ويهدى من يشاء﴾ .

انظر إلى قيمة الإرادة الإنسانية فى قول الحق وهو يتكلم عن إرادته : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾(الرعد : ٢٧ ، ٢٨) .

فهو يهدى إليه من أناب ، ﴿إن الله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ .

اجعل أيها القارئ هذا المصباح بين يديك ، وسر فى نوره بين شتى السور فلن تجد فى دين الله قلقًا أو اضطرابًا .

وإنما القلق والاضطراب فى عقول الحمقى ، وقلوب الغافلين .

وهنا قد يسأل بعض الناس عن حدود الإرادة الدنيا والعليا فى الأعمال . ومع أن هذا السؤال لا مبرر له ، فنحن نتبرع بالإجابة عنه حتى يظهر السر فى نسبة الهداية والإضلال ؛ تارة لله ، وتارة للإنسان .

هل تعرف ما يفعله الفلاح فى حقله؟ إنه يلقى البذور ، ويتعهده بالسَّقْى وعلى الله الإنبات والإثمار .

وتستطيع أن تسمى الفلاح زارعًا ـ وأنت صادق ـ لقيامه بالسبب .

وتستطيع أن تسمى الحق سبحانه زارعًا لقيامه بالعمل .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ (الواقعة : ٦٣ ــ ٦٥) .

فما للإنسان فى سعيه مثل ما للفلاح فى زرعه .

فازرع عمرك ـ إن شئت ـ خيراً ، فإن يد القدرة سوف تنميه لك وَرْدًا يانعًا .

أو ازرعه ـ إن شئت ـ شرّا ، فإن يد القدرة تنميه شوكًا رائعًا .

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾(التوبة : ١٠٥) .

كذبٌ على دِينِ الله

على أنه كثيرًا ما يحدث أن تختلط مظاهر الجبر الإلهى بمظاهر الاختيار الإنسانى فى أقوال عديدة لا نريد الآن أن نضرب لها الأمثلة .

وإنما نريد أن ننبه إلى أن الحساب الأخروى شبيه بالمعادلات الرياضية ! يؤخذ منه ما لله ، ثم يحاسب العبد على ما قدمت يداه .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا** ﴾(النساء : ٤٠) .

ولكن فريقًا من الناس زعم أن الله كتب كل شىء ، ثم سخر الناس فى هذه الحياة لتنفيذه ، وأجبرهم على فعل ما يفعلون وترك ما يتركون .

وكان صدى هذه العقيدة الخرافية أن نسمع إلى بعض الجهلة من المتصوفين يرى المنكر أمامه فيهز كتفيه قائلاً : **(وضع العباد فيما أراد)** .

أو نسمع لأحد العصاة من المتبجحين وهو يقول لك ـ حين تنصحه : غدًا يهدينى الله .

وقريب من ثرثرة هؤلاء المغفلين قول المشركين ـ قديمًا ـ فى الاعتذار عن ضلالهم : ولو شاء الله فعل بنا غير ذلك!

وقد زيف القرآن هذه الأباطيل فى غير موضع واحد من آياته البينات .

﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ** ﴾(الأنعام : ١٤٨) .

وانظر كيف يرفض القرآن هذه المكابرة الآثمة ، إذ لا يلتفت للرد عليها حتى لا يكون نقاشها نوعًا من الاعتراف بها .

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾(النحل : ٣٥) .

وما أثر هذا البلاغ المبين عند الله وعند الناس، إنه أثر يقطع دابر المحتجين.

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٦٥).

ألا فليفهم ذلك النيام! ليفهم الشرقيون الكسالى ممن يصطنعون الفلسفة والإدراك!

ليفهم ذلك الذين آتاهم الله العزيمة والقدرة، فهانت عزائمهم، ووهت قدرتهم، وناموا فى ظلال الهزيمة والعار، على حين برز فى الحياة أصحاب الهمم الجبارة والسبق البعيد!

ليفهم ذلك الذين ظنوا عقيدة «القضاء والقدر» ثغرة فى الإسلام ينفذون منها إلى حماه الكريم و ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ (الجاثية: ٧).



الاعتذار بالأقدار

كثيرًا ما يعتذر الإنسان عن أخطائه بتهوينها أو تبريرها .

وقد يعالج الخطأ التافه بخطيئة جسيمة ، بأن يجنح إلى الكذب مثلاً ، أو إلى الجدل الذى لا ينطوى إلا على الدَّجل .

قد يؤمر الإنسان بشىء ما ، فيثَّاقَلُ عنه ، ويخلد إلى الأرض ولا يؤديه ، وقد يزجر عن شىء ما ، فيخدع به وينزلق إليه .

فإذا ما حدَّثته فى صنيعه هذا ، لم يذكر علته الحقيقية من كسل عن الخير ، أو ميل إلى الشر .

بل قال- فى صفاقة : ما حيلتى؟ إنى مقهور . . . معذور . . .

مردِّدًا قول المشركين القدماء- لما نفرهم الرسول ﷺ من عبادة الأصنام :

﴿ **وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ** ﴾(الزخرف : ٢٠ ، ٢١) .

إن تجاهل الإنسان لما زوَّده الله به من قوة وتفكير ، وما ذرأ فى طبيعته من استعداد للرفعة والضعة ، وما وهبه من حرية يتوجه بها إلى الخير أو الشر دون أى ضغط أو ظلم - إن ذلك التجاهل لا ينقص فتيلاً من مسئوليته الملقاة على عاتقه ، مهما قارنه من المكابرة والمراء .

وقد ضمنى مجلس مع نفر من أولئك الذين يرمون على القدر أثقالهم ، واستمعت إلى ما تعللوا أو تعلقوا به من أفهام ، فوجدت أكثرها أفهامًا مغلوطة حول ما ورد من نصوص .

وإن كانت هذه الأغاليط قد راجت - للأسف - بين جماهير العامة .

لقد رفض النبى ﷺ من الرجال الذين بنوا أنفسهم على الجهاد والعبادة أن يستريحوا ساعة باسم هذا القدر .

فعن على بن أبى طالب رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة ليلاً فقال : «**ألا تصليان؟**» . فقلت : يا رسول الله ، أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا .

فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلىَّ شيئًا لشدة استغرابه ، ثم سمعته يقول - وهو مول يضرب فخذه بيده :

﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** ﴾(الكهف : ٥٤) .

إن هذه الكلمة من أبى الحسن ردت النبى ﷺ وهو يعجب كيف قيلت .

ولئن تمشت مع طبيعة الإنسان فى الجدل ، إنها ليست من طبيعة رجل كعلى له فى دين الله مكانته .

ولعلها أثر الجهاد والكلال الذى يصيب المرء بعد ما يأوى إلى فراشه ، فتأتى أحكامه دون ما ينتظر منه .

وقد روى بعضهم قصة آدم مع موسى دليلاً على جواز الاعتذار بالقدر ، وهى كما رواها أبو هريرة عن النبى ﷺ :

«**احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم ، أنت أبونا أخرجتنا من الجنة! فقال له آدم : أنت يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخطَّ لك التوراة بيده ؛ أتلومنى على أمر قدَّره الله علىَّ قبل أن يخلقنى بأربعين عامًا ؟ قال رسول الله ﷺ : فحج آدمُ موسَى**» .

وهذا الحديث لا يدل على شىء قط مما يفكر فيه المعتذرون بالقدر ، فالحديث ورواياته الأخرى ، يشير إلى أن موسى كان يريد تحميل آدم متاعب الإنسانية كلها ، ويرجع شقاء أبنائه جميعًا إلى أكلته المشئومة من الشجرة .

وقد دافع آدم عن نفسه بصدق . .

فإن وجود الحياة البشرية لم يكن نتيجة طبيعية ولا عقلية لذنب آدم .

كان من الممكن جدًا أن يعاقب آدم على خطئه بأى عقاب آخر كالتوبيخ أو الحرمان المؤقت أو غير ذلك .

أما ترتيب وجود العالم الزاخر بآلامه وآماله على هذه المعصية ، فهذا قدر إلهى محض لم يَدُرْ بخلد آدم ، ولا يجوز أن يعاتب عليه ، ومن هنا حج آدم موسى .

أما مسئولية آدم الخاصة عن ذنبه الذى استغفر الله منه ، فلا صلة له بهذا الحديث .

إن خطيئة آدم ليست سببًا شرعيًا ولا علة عقلية لوجود العالم وانتشار الناس فى القارات الكبرى يَشْقَوْنَ ويكدحون .

وفى رواية أخرى لأصحاب السنن :

«قال موسى : يا رب ، أرنا آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة . فأراه أباه آدم عليه السلام .

فقال : أنت أبونا آدم؟ قال : نعم ، فقال : أنت الذى نفخ الله فيك من روحه ، وعلمك الأسماء كلها ، وأمر الملائكة أن يسجدوا لك ؟ قال : نعم .

قال : فما حملك أن تخرجنا ونفسك من الجنة ؟

قال : كلمك الله من وراء الحجاب ، ولم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه ؟ قال : نعم .

قال : فما وجدت أن ذلك كان فى كتاب الله قبل أن أخلق؟

قال : بلى ، قال : أفتلومنى فى شىء سبق فيه من الله القضاء قبلى ؟

قال النبى ﷺ : فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى» .

إن آدم يعلم - من غير مراء - أنه أخطأ حين أكل من الشجرة ، وقد اعترف بذلك عن صدق ، وطلب من الله المغفرة وغفر له .

أما أنه مصدر ما وقعت فيه البشرية كلها من عناء ؛ فهذا ما أنكره - وهو محق - وجعله من شئون القدر الأعلى ، واقتنع بذلك موسى كما رأيت . ومن السخف أن نخطئ نحن ثم نسوق كلمة آدم عذرًا لنا على خطئنا .

إن الصورة التى يرسمها الجبريون للعالم لا ترمز إلا إلى الفوضى المطلقة والخلط الشائن .

ولما كان البشر - فى نظرهم - يقومون بأدوار لا خِيَرة لهم فيها ، فهم لا يفرقون بين بَرٍّ وفاجر .

وإنك لتسمع فى كلام بعض الصوفية ممن يدينون بهذا المذهب الباطل تسوية بين آدم وإبليس ، وبين موسى وفرعون ، إذ الكل - فى نظرهم - مدفوع إلى عمل ما قدر عليه أزلاً .

وليست الحياة إلا رواية يقوم أفرادها بما فرض عليهم من مواقف ، وينطقون بما لقنوا من كلمات .

هَذِى الحياةُ روايةٌ لممثلٍ الليلُ سترٌ والنهارُ الملعبُ

وإنك لو نقبت لرأيت هذه الصورة مرتسمة فى أذهان الكثيرين ، بعضهم يعلنها مصارحًا ، وبعضهم يطويها مستحييًا ، وإن كان يدين بها .

وانهيار الدولة الإسلامية راجع إلى فشو هذه الضلالة بين الناس فشوًا جعل المنكر ينتشر بلا نكير ، وجعل الواجبات تهمل بلا نصيح .

وأساس الإصلاح يعتمد أول ما يعتمد على تصحيح الفهم فى عقيدة القضاء والقدر ، حتى تعود كما كانت :

الدافع الأعظم فى التضحية والفداء والوازع الأول على ترك الشر وفعل الخير ؛ قيامًا بواجب الإنسان نحو نفسه ، وتنفيذًا لأوامر الله جل شأنه .

أما الآيات والأحاديث التى وردت توهم بظاهرها أن الإرادة الإنسانية غير حرة ، فليست كما يظن الواهمون .

إن هذا الفهم العجيب نضحت به العقول المعوجة ، ولم توح به نصوص الدين .

إذ قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾(البقرة : ٦) .

فليس إنذارهم وعدمه سواء ؛ لأن نفوسهم صيغت بحيث لا تقبل الحق من تلقاء ذاتها ، فهى أوعية للكفر برغم أنوفها ، كلا .

وإنما القصد صرف همة الرسول ﷺ عن قوم طالما دعاهم ، وبذل جهوده لإنقاذهم من غوايتهم ، فأصروا على تنكب الصراط المستقيم بمحض اختيارهم .

وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ** ﴾(القصص : ٥٦) . لا يعنى أكثر من مواساة الرسول ﷺ عندما مات عمه أبو طالب كافرًا ، وكان شديد الحرص على إيمانه .

بيد أن الرجل إلى آخر لحظة من حياته آثر الوثنية على التوحيد مع طول مناشدة الرسول إياه أن يؤمن بالله ويدخل فى دينه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾

(الأعراف : ١٧٩)

معناه أن الأغبياء الشاردين عن الحق يرشحون أنفسهم لجهنم بغبائهم وشرودهم ، فجاء التعبير عنهم متمشيًا مع أسلوب اللغة فى الأداء البليغ .

فمثلاً : يقول الأستاذ لتلامذته فى الدرس ـ مهددًا الكسالى : إن السقوط يتخير ضحاياه من كل بليد يتلاعب بالدروس ويتناسى الامتحان .

وهذا الكلام لا يساق ليراد به ظاهره أبدًا .

***

ثم إن كل فعل اختيارى يتم ، فإنه يصح أن ينسب إلى الإنسان على أنه السبب فيه ، وإلى الله على أنه الخالق له .

فالزراعة تنسب إلى الفلاح ، وتنسب إلى الله .

هذا سبب البذر ، والله سبحانه أساس الإيجاد كما ذكرنا .

وإذا أفرد الفعل فى النسبة إلى الإنسان وحده ، أو إلى الله وحده ؛ فإن إيراد ناحية لا يعنى انعدام الأخرى .

وإذا استصحبت هذه القاعدة معك فهمت ـ على ضوئها ـ آيات كثيرة من غير تشويش . على أن الفعل قد يكون من الله خلقًا ، ولا ينسب إليه تأدبًا .

ألا ترى كيف طوى الفاعل فى قوله :

﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾(الجن : ١٠) .

وكيف أسند إبراهيم المرض لنفسه ، والإطعام والسقيا إلى ربه ؟

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾(الشعراء : ٧٩ ، ٨٠) .

وكذلك فعل الخضر ، قال ـ عن خرق السفينة : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ (الكهف : ٧٩)

وقال ـ فى حفظ الكنز : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ (الكهف : ٨٢)

وقد يتواضع المؤمنون فيجردون أنفسهم من كل فضل ، وينسبون إلى الله كل توفيق ويقولون :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ (الأعراف : ٤٣) .

ومع ذلك ، فإن الله عز وجل يذكر لهم نشاطهم وسعيهم :

﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف : ٤٣) .

وقد جاءت فى القدر أحاديث شتى عن النبى ﷺ توضح ما قد يشتبه على الأنظار فيها حتى تقطع الاعتذار الباطل بها .

فعن عليٍّ : كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد ، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة ، فنكس وجعل ينكت بمخصرته ، ثم قال :

«**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة**» . فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟

قال : «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له.**

أما من كان من أهل السعادة فيصير لعمل أهل السعادة .

وأما من كان من أهل الشقاوة فيصير لعمل أهل الشقاوة» . ثم قرأ :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (الليل : ٥ ـ ١٠) .

والحديث للبصر النافذ لا لبس فيه .

فأما أن الله عالم بما سيعمل الناس فى الدنيا وما يصيرون إليه فى الآخرة من ثواب أو عقاب ، فهذا مما لا شك فيه .

وأما أن سبق العلم هو ما يرغم الناس على العمل بما كتب أزلاً فباطل .

فإن العلم نور يكشف وليس قوة ترغم .

والبشر ـ من تلقاء أنفسهم ـ يتوجهون إلى ما يريدون من أهداف ، والله يتمم للعبد مراده .

فمن زرع تفاحًا آتاه ثمرة شهية ، ومن زرع شوكًا جنى ما غرس .

والآية التى استشهد بها النبى ﷺ تدل أوضح دلالة على ذلك .

فإن من تعلق بأسباب الخير ـ من عطاء وتقوى وتصديق ـ أكمل الله غايته ويسره للحسنى .

ومن تعلق بأسباب الشر ـ من بخل وفجور وتكذيب ـ أتم له قصده وأملى له فى غيه ، ويَسَّرَه للعسرى .

وإليك حديثًا آخر طالما أرجف به الجهلة ، يحسبون أنهم سوف ينقضون به دين الله من القواعد ، ودين الله أقوى مما يظنون ، وأعلى مما يبصرون .

فقد ورد عن النبى ﷺ :

«والذى لا إله إلا هو إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» .

وهذا الحديث إنما يصف لنا صنفين من الناس ، خواتيم أعمالهم تغاير مسالكهم الأولى مغايرة تامة .

وذلك ليس غريبًا فيما تحت حِسِّنا من أحوال الناس .

فرُبَّ فاسق ظل أكثر عمره مريض الاعتقاد ، سيئ الخليقة ، ثم أبصر آخر الأمر عواقب غيِّه فاهتدى .

ورُبَّ صالح ظل يعكف على الخيرات ثم غرّته الدنيا فوقع فى شِراكها وهوى .

ولو أن أحدًا اطلع الغيب ، ثم قارن بين ما يراه فى أحوال هذين فى مطالع حياتهما ، وما سطر فى الكتاب من خواتيم أعمارهما ، لعجب وطال استغرابه .

غير أن هذه المصاير المتناقضة لم يكن للقدر السابق أثر جبرى فى خطها على هذا النحو .

والتعبير فى الحديث الوارد بسبق الكتاب لا يعنى أكثر من دقة العلم وانضباطه ، وهو جار فى هذا على أساليب المبالغة فى لغة العرب .

فقد تتوقع بشخص ما نهاية معينة ، فإذا وصل إليها عبرت عن ذلك بتعبيرين كلاهما صحيح .

تقول : تحقق فيه ظنى ، أو صدق فيه حكمى .

إنه ما كان يستطيع أن يفعل غير ما توقعته ، أو تقول : إن حكمى لا يتخلف أبداً .

وكم فى اللغة من تعبيرات تقوم على هذه التحويرات اللفظية المختلفة :

وَمَهْمَهٍ مُغْبَرَّةٍ أرجَاؤُهُ كأنَّ لَوْنَ أرْضِهِ سَمَاؤُهُ

أى : كأن لون سمائه أرضه .

وفى التشبيه المقلوب قالوا :

كأن الصباح المتألق وجه الخليفة حين يعطى .

ويقول الله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾(الأعراف : ٢٧) . والمعنى : لاتفتتنوا بالشيطان .

ومهما اختلفت التراكيب والأساليب ، فإن المعنى لا يخفى على اللبيب ، ومن ثم فلا يجوز أن نهدر حريتنا فى العمل ، وأن نلقى التبعة على القدر ، متعلقين بما لا ينبغى التعلق به .



إجابة ساخرة

سألنى سائل : هل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟ فنظرت إليه فى ضيق شديد ، وقررت أن ألتوى معه فى الإجابة ، كما التوى هو مع فطرته فى هذا التساؤل ، وقلت له : الإنسان نوعان : نوع يعيش فى الشرق ، ونوع يعيش فى الغرب ، والأول مسير والآخر مخير ! ففغر الرجل فاه عن ابتسامة هى بالضبط نصف تثاؤب الكسالى والعجزة والثرثارين الذين ينتشرون فى بلادنا .

ثم قال : ما هذا الكلام! إننى أسألك : هل للإنسان إرادة حرة وقدرة مستقلة يفعل بهما ما يفعل ويترك ما يترك ، أم هو مجبور؟

فقلت له : قد أجبتك ، الإنسان فى الغرب مستقل وفى الشرق مستعمر .

هناك له إرادة وقدرة ، وهنا لا شىء له . فضحك أحد الظرفاء وقال : هذه إجابة سياسية .

فقلت : وإنها لدينية كذلك . .

يا رجل ، إن القوم فى الغرب شعروا بأن لهم عقولاً ففكروا بها حتى كشفوا المساتير من بدائع الكون .

وشعروا بأن لهم إرادة فصمموا بها ، حتى التقت فى أيديهم مصاير الأمم وأزمَّة السياسات .

وشعروا بأن لهم قدرة ، فجابوا المشارق والمغارب ، وصنعوا الروائع والعجائب .

أما نحن . . فهذا رجل من ألوف الألوف التى تزحم البلاد يأتى ليستفتى فى هذه المعضلة التى غاب عنه حلها .

أله حقًا عقل حر يستطيع أن يفكر به؟

أله إرادة يستطيع أن يعزم بها؟

أله قوة يستطيع أن يتحرك بها؟

وإلى أن نثبت له نحن ذلك! سوف يبدأ فيفكر ثم يعزم ثم يعمل .

أما الآن فهو ـ فعلاً ـ مسيَّر من ذلك الرجل المخيَّر فى الغرب . . .

ما أبعد البون بين الشخصين !

الرجل فى الغرب ألقى به فى تيار الحياة ، فعلم أن له أعضاء يستطيع أن يعوم بها ، فظل يسبح مع التيار تارة وضده تارة أخرى ، حتى وصل الشاطئ !

أما هنا ، فلما ألقى بالرجل فى معترك الأمواج ، بدأ يسائل نفسه :

هل أنا حى حقّا ، أم أنا جثة هامدة؟

أو بتعبير المتفيهقين : هل أنا حر أم أعضائى مقيدة ؟

ولكن التيار الجارف لا ينتظر نتائج هذه السفسطة ، فلا يلبث أن يطويه اليم مع الهالكين . .

وليس يغنى فى عزائه قول الشاعر السفيه :

أَلْقَاهُ فى اليمِّ مَكْتُوفاً وقالَ لَهُ: إيَّاكَ إيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بالماءِ

اعمل أيها الرجل ، ولا تقل : هل أنا مسيَّر أو مخير؟

واستغل المواهب التى آتاك الله ، واشعر بأن لك فى الحياة حقوقًا وعليك للحياة واجبات .

وكفى كذبًا على الدين والدنيا!

على هامش الأقدار

(١) قد يطلق القدر على جملة القوانين التى تضبط شئون الحياة والأحياء ، وتنتظم على أساسها ظواهر الكون وبواطنه فى الأرض والسماوات وما بينهما ، فإن الله خلق الأشياء من ذرات وخلايا تخضع فى كمها وكيفها لنسب دقيقة دائمة ، وتؤدى أغراض وجودها فى خط لا تضل عنه ولا تحيد :

﴿ **رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾(طه : ٥٠) .

فالقوانين التى تعرف بها مقادير العناصر التى تكون الماء ، والقوانين التى تعرف بها أحجام الماء وضغوطه إذا تبخر أو تجلد أو انساب أو اندفع .

تلك كلها تقديرات الخالق التى يسير عليها ملكوته فى الكائنات كلها من غير عوج أو اضطراب :

﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾(القمر : ٤٩) .

﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ** ﴾

(الأعلى : ١ ـ ٣)

وقد أشار إلى أن ما نشاهده من نضج الثمار واستوائها ، وتخلُّق الأجنة فى أرحام الأمهات ونزولها ، وتكوُّر الليل والنهار نتيجة حركة الأفلاك فى مداراتها ، ذلك كله قدر حكيم ، ونظام مستقيم :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾(الأنعام : ٩٥ ، ٩٦) .

(٢) عدالة القدر لا تنافى التفضل والتميز ، أعنى أن الرجلين قد يؤديان عملاً متشابهًا ، ويستحقان أجرًا واحدًا ، ومع ذلك يعطى الله الرجلين أجريهما ثم يمنح أحدهما زيادة خاصة من لدنه ويترك الآخر !

وقد يرتكب مخطئان ذنبًا واحدًا ويستحقان عقوبة مشتركة ، ثم يصدر عفو عن أحدهما ، ويبقى الآخر رهين ذنبه!

هذه الأحكام إنما نقررها ليعرف الناس أن الله لا مستكره له ولا قيد على مشيئته ، فليأت العباد إلى ساحته وقلوبهم منفعلة بمشاعر الرغبة والرهبة فحسب!

﴿ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (آل عمران : ٧٣ ، ٧٤) .

ومن ثم نعرف القصد من إسناد العموم إلى المشيئة العليا ، ثم فيما يتصل بمغفرة الذنوب .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (العنكبوت : ٢٠ ـ ٢٢) .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

«إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس!

أُوتى أهلُ التوارةِ التوراةَ فعملوا بها ، حتى إذا انتصف النهار فعجزوا فأعطوا قيراطًا قيراطًا .

ثم أوتى أهل الإنجيلِ الإنجيلَ فعملوا إلى صلاة العصر ، فعجزوا فأعطوا قيراطًا قيراطًا .

ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس ، فأعطينا قيراطين قيراطين! فقال أهل الكتابين : أى ربِ ، أعطيت هؤلاء قيراطين ، وأعطيتنا قيراطًا قيراطًا ، ونحن كنا أكثر عملاً منهم!

قال الله ـ عز وجل ـ : **(هل ظلمتكم من أجركم شيئًا؟ قالوا : لا . قال : فهو فضلى أوتيه من أشاء) .**

وكم فى أوضاع الحياة من تفاوت يرجع أمره إلى القدر الأعلى .

هذا التفاوت بما ينطوى عليه من تفاضل ، هو من دعائم العمران ونظام الوجود .

فمن المستحيل أن يخلق الناس متساوين فى كفاياتهم المادية ، أو أوضاعهم الاجتماعية والسياسية ، أو أجزيتهم الدنيوية والأخروية .

والوظائف التى تقوم بها الحياة تحتاج إلى رءوس وأذرعة وأقدام ، وهمم الناس تقسم على هذه الأنحاء ليؤدى الاجتماع البشرى رسالته متناسقة متكاملة . وإنما يقع العيب فى أعمال الناس إذا وضعوا رأسًا موضع قدم ، وقدمًا موضع رأس!

والأمة التى تصنع ذلك تشبه الأحمق الذى يضع طربوشه فى رجله ، وحذاءه على دماغه .

وما أكثر هذه الأمم فى الشرق المحتل المختل .

لندع هذه الآن فلسنا بصدد إصلاح اجتماعى ، ولكننا نريد لفت النظر إلى أن الأقدار قد توزع الأعمال والأعباء على الناس كما يوزع القائد جنوده فى المعركة ، فيكون حظ بعضهم الوقوف فى صفوف القتال الأمامية لتلقى الضربة الأولى ، بينما يكون حظ الآخرين نقل المؤن وكتابة الرسائل فى مؤخرة الجبهة ، وكلا العملين ضرورى فى الميدان .

***

على أن هذا التفاوت لا يضير قاعدة العدل فى الجزاء ، ولا يعنى ألبتة أن القدر يبخس حقًا ، أو يجهل وضعًا .

فلكل امرئ عند الله حسابه الخاص به .

وفى دائرة ما زود الإنسان به من قوى ، وأتيح له من فرص ، وأحيط به من ظروف ؛ يكون تقدير ثوابه وعقابه .

قرأت مرة أنه أقيم سباق فريد للطيران ، لم يكن منح الجوائز فيه للطيار الذى يصل إلى الغاية المرسومة قبل غيره ، بل كانت تجرى معادلات جبرية معقدة بين قوى الطائرات ، وما تستطيع الآلات فى حدود طاقتها أن تقطعه ، مع مراعاة حال الجو وإمكان الرؤية وسرعة الريح . . إلخ .

ومعنى ذلك أنه قد يحدث أن تصل طائرة مسبوقة بأربع طائرات أخرى مثلاً ، وتعطى الجائزة الأولى لا الخامسة كما يظن لأول وهلة .

إن هذا السباق مثل قريب للتفاوت الشاسع بين قيم النفوس ، وما أودعه الله

فيها من ذكاء ومقدرة ونشاط ، وتختلف أنصبة الناس منه اختلافًا كبيرًا ، ومَثَلٌ كذلك للأسلوب الذى توزن به أفعالهم ، ويحكم به على جهودهم من غير افتيات أو هضم .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾(الأنبياء : ٤٧) .

إن النفوس أشبه ما تكون بمصابيح الكهرباء ، هذا يضيء بقوة خمسين شمعة ، والآخر بقوة مائة ، وغيرهما بقوة مائتين .

فإذا أضاء المصباح ذو المائة شمعة بقوة سبعين فقط ؛ فهو أكثر عطلاً من مصباح ذى خمسين شمعة يضيء بأربعين .

وإن كان المصباح الأول فى نظر الناس أسطع من الأخير .

ما أكثر الذين وهبهم الله طاقات ضخمة وظروفًا مواتيةً ، فأضاءت نفوسهم من دينه بقدر يحسبه الناس كبيرًا وهو عند الله صغير .

وما أكثر الذين وهبوا نفوسًا محدودة فاستنارت بصائرهم بقدر من الإسلام ، يحسبه الناس هينًا وهو عند الله عظيم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾(الحجرات : ١١) .

للقدر أثر عميق ـ كما أسلفنا ـ فى تكوين الإنسان ، وفى مدى ما يزود به من طاقة واستعداد ، وفى تحديد الدائرة التى يكدح فيها ما بقى حيًا .

ويتوسع علماء الوراثة فى إحصاء ما ينحدر إلى الإنسان من صفات كامنة أو ظاهرة ، ويرجعون أكثر مظاهر السلوك إلى ما ولد به الإنسان من ميول ونزعات .

وقد ثبت أن هناك علائق قوية بين إفراز الغدد داخل البدن وبين اعتدال المزاج أو حدته .

فنشاهد الغدد الجنسية وما ترسله من «هرمونات» فى الدم ، له دخل كبير فى شدة مقاومة الفرد للإغراء الجنسى أو ضعفه !

ولمجموعة الغدد المجاورة للكلى «درنال» أثر فى مقدار تهيج المرء حين يخاف أو يغضب ، نظرًا لما تسكبه هذه الغدد فى الدم من عصارات منشطة للقلب والعضلات .

من أجل ذلك نلاحظ أن الأفراد يختلفون فى ميولهم وانفعالاتهم ، وتتباين مواقفهم بإزاء ما يعرض لهم من مشكلات الحياة وأعراضها ومفاتنها ومباذلها .

لكن هذه الموروثات المعقدة لن تزيد فى قوتها عن الغرائز العامة .

وهذه وتلك يمكن ـ كما يقول علم النفس- تعديلها حتى توائم القوانين المشروعة ، فبدلاً من أن يهتاج الإنسان للباطل يهتاج للحق !

وأما كون هياجه عنيفًا أو خفيفًا فى الحالين فأمر فطرى لا يعنينا . . وإن كنا لا نغفل حسابه فى تقويم أقدار الناس .

وقد نعيره اهتمامنا عند تحديد المسئولية[١] فى الذنوب المرتكبة .

ويقول علم النفس : إن هناك مصابين بالشذوذ[٢] فى تصرفاتهم .

فيهم المولع بعدِّ درجات السلم ، أو قطع البلاط ، أو مصابيح الشوارع .

ومما أثر عن الأديب الإنجليزى «جونسون» أنه لا يمر بحاجز خشبى إلا لمس بيده كل قائمة من قوائمه ، فإذا نسى واحدة عاد إليه ليلمسها من جديد .

ومنهم من يفزع من رؤية فأر ، مع أنه معروف بالشجاعة .

ومنهم من يميل إلى سرقة أشياء من نوع خاص ، مهما بلغت تفاهتها ، مع أنه من الأغنياء المحترمين !

هذه الأمور وأشباهها تدل على أن المرء قد يسلك سلوكًا لا يقصده ، وأن فيه قوى باطنة تعمل فى الخفاء .

وكان القدماء يعزونها إلى التعب أو الخبل أو الألغاز .

ولكن المحدثين يردونها إلى إيحاء العقل الباطن .

وفى مسألة تداعى المعانى ، يقول علم النفس : إن هذا التداعى كثيرًا ما يتحكم فينا ، ويغلب إرادتنا ، ويوقعنا تحت تأثير ما نحب وما نكره ، ولاشك أن هناك أحوالاً من الكآبة النفسية قد تتوارد على الإنسان من حيث لا يدرى ، فتوهى من عزمه .

وربما كانت أمثال هذه الحالات هى التى دفعت على بن أبى طالب إلى أن يقول للنبى ﷺ كلمته السابقة! (أنفسنا بيد الله . . .) .

وقد رفض النبى ﷺ قوله ؛ لأن قوانين الحياة العامة لا تربط بأمثال هذه الساعات الواهنة من تداعى المعانى أو تنافرها ، سواء أكانت فى السراء أو فى الضراء .

---

(١) و (٢) فى مبحث الإيمان والخطيئة شروح طويلة لهذه المسالك وصِلَتِها بحقيقة التقوى .



العمــل أساس الإيمــان

آمنت بالله ، أى عرفته معرفة بلغت حد اليقين .

وأسلمت له ، أى خضعت لحكمه عن طواعية وانقياد .

وكلمتا الإيمان والإسلام فى نظر الشرع مترادفتان أو متلازمتان .

فحقيقة الإسلام تتضمن أداء العبادات المطلوبة ، فهى تصديق بالله وتنفيذ لأمره . وحقيقة الإيمان تنطوى على المعرفة الصحيحة والقيام بحقوقها .

ومن ثم فمعنى اليقين ملحوظ فى الإسلام ، ومعنى الخضوع ملحوظ فى الإيمان .

ولا يقبل إسلام خلا عن اليقين كما لا يقبل إيمان تجرد عن الخضوع لله .

وقول الله تعالى : ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ** ﴾ (الحجرات : ١٤) .

فإن هذا الإسلام الذى ذكرته الآية ، ليس الدين الحق الذى عَنَتْه الآية الأخرى : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ (آل عمران : ٨٥) .

بل هو خضوع عن قهر ونفاق ، ولا قيمة له إلا إذا سكن الإيمان القلب واستقر فيه .

والإيمان المعتبر ما اقترن بالسمع والطاعة ، وتطهر من الجحود والاستكبار عن أمر الله .

﴿ **وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (النور : ٤٧) .

وقد اعتبرت كلمة «الإسلام» علمًا على الدين الذى جاء به صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله ﷺ ، وتعارفت الأجيال هذه الحقيقة .

فإذا ذكر الإسلام ، عُرِفَ من هذا العنوان أنه الدين الذى يقوم على اتباع القرآن الكريم والسنة المطهرة .

ويدخل فيه من شاء من بابه الرئيسى المعروف «كلمة التوحيد» ، ثم يؤدى بعد ذلك ما يفرض عليه من تكاليف شتى .

على حين توسع العرف العالمى فى كلمة «الإيمان » .

فهناك إيمان نصرانى ، وآخر يهودى ، وآخر وثنى ، وآخر شيوعى . . . إلخ . وهذا العرف العام يغض من قيمة الحقيقة الشرعية التى ذكرناها آنفًا .

فمتعلقات الإيمان ، والدائرة التى يتسع لها فى ديننا ، تجعله لا يصح فى نظرنا إلا إذا كان مرادفًا للإسلام ، أو ملازمًا له .

ولكن هذا العرف الشائع يؤكد أن الإسلام يرفض رفضًا حاسمًا أى مسلك ينطوى على الاستهتار بالأعمال المطلوبة ، والتمرد على شارعها جل شأنه .

ولذلك نعد رفض الخضوع لله خروجًا على الإسلام ، ومروقًا عن الدين ، وهدمًا للإيمان ، مهما زعم هذا الرافض من معرفة ويقين .

لقد كان إبليس يعلم أن الله واحد لا شريك له ، وكان يعلم أن مصيره إليه يوم يبعثون .

بَيْدَ أنه لما صدر إليه الأمر : أن اسجد ، فقال- مستكبرًا جاحدًا : لا . عُدَّ كافرًا ولم تشفع له معرفته بوحدانية الله ؛ لأن المعرفة المجردة عن مبدأ الخضوع المطلق لرب العالمين لا وزن لها .

والمعصية التى يقارنها هذا التمرد تخلع صاحبها من الإيمان خلعًا .

والشعور بتلك الحقيقة هو الذى جعل أبا بكر يُسَوِّى بين مانعى الزكاة وبين المرتدين برغم زعمهم أنهم مؤمنون .

فقد صدر إليهم الأمر بإيتاء الزكاة فعصوا ، وشهروا السلاح ، وآثروا القتال على دفع المال .

فساق إليهم الخليفة الأول جيوش الإسلام تَفْلِقُ هاماتهم ، وتلحقهم بإبليس الجاحد المستكبر!

فإن التأبى عن قبول أمر الله والهزء بالفرائض التى أوجبها ، والفخر بالمحرمات التى زجر عنها لا يمكن أن يوصف بأنه خضوع وإسلام ، إلا إذا كانت أحوال الجهال تسمى علمًا ، وأحوال الكذابين تسمى صدقًا!

وقد ذهل بعض المصنفين فى الفقه ، عن هذا الأصل الراسخ ، فأفتوا بأن الممتنع عن الصلاة يقتل حَدًا ، ولا يسمى مُرتدًا .

وهذا غلط ، فإن الذى يُؤْثِرُ أن يُقتل على أن يصلى لا دين له ، فكيف يحسب من المسلمين؟

أما صلة الإيمان بالأعمال ـ كما فُصِّلت فى القرآن والسنة ـ فسنشرحها بعد .

سُوءِ العَمَلِ بالدين سِرُّ أزمتِه فى العالمين

معرفة الله والخضوع له ، والإعداد للقائه ، والرهب من عقابه ، هى لباب الدين وروح شرائعه .

نعم فى تعاليم الدين نظم خلقية واجتماعية كثيرة ، تتناول الحياة الخاصة والعامة من القاع إلى القمة .

لكن هذه التعاليم كلها بناء دعامته العقيدة ، أو هى أعمال غايتها وجه الله ، فإذا انهارت الدعامة ، أو اختلفت الغاية فقدت هذه النظم الخلقية والاجتماعية طابعها المميز ، وقيمتها النفسية .

وصارت شيئًا آخر له قيمة أخرى كما تفقد الأوراق المالية قيمتها إذا فقدت رصيدها الذهبى .

الدين قبل كل شىء : «شعور بوجود الله ، واعتراف بحقه فى حكم عباده ، ووضع المبادئ التى ينطلقون منها ، والحدود التى ينتهون إليها» .

ومقتضى هذا الشعور الباطن ، والاعتراف الظاهر ، أن نفعل ما يوصينا الله به ، لا على أنه خير فقط ، بل على أنه «انقياد لله – وقيام بحقه . . . إلى جانب ما فيه من خير ذاتى» . .

إن الوجودى قد يرى الصدق فضيلة فى المعاملات التجارية وغيرها .

ولكنه لا يعبد الله حين يصدق مع غيره ، فهو لا يعرف الله ، ولا يؤمل فيما عنده!!

أما المؤمن فالصدق عنده طاعة لله الذى قال :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾(التوبة : ١١٩) .

فهو يصدق أولاً إيمانًا بالله ، ثم هو يرتفع بإيمانه هذا إلى فضيلة الصدق . . .

إن الأعمال الصالحة كلها ، نفسية كانت أو اجتماعية عندما تكون جزءاً من تعاليم الدين ، أو جزءاً من سلوك المؤمنين ، تأخذ طريقها فى الحياة مقترنة بهذا

اليقين السماوى ، أو مصطبغة بهذه الصبغة الإلهية ، فيكون الإيمان بالله هو الباعث على العمل ، وتكون تقواه ـ جل شأنه ـ إحساسًا دائمًا مصاحبًا .

ونحن بهذا الكلام نلفت الأنظار إلى خطورة ما شاع من مسالك بشرية مجردة تجعل الناس يتواضعون على أعراف وتقاليد قد تكون حسنة أو لا تكون ، ثم يرون فى الوفاء لهذه الأعراف والتقاليد الخير والفضيلة . .

مع أن صلتها بالإيمان مقطوعة ، بل ربما لم يفكر صاحبها فى الله لحظة .

وهذا الفريق من الناس قسم الدين إلى قسمين : فما كان من عقائد وعبادات طرحه جانبًا وازورَّ عنه .

وما كان من معاملات ونظم احتفى به وروَّجه وأكثر من الحديث عن قيمته .

وقد علمت أن أى عمل أمر الله به ، فإنما الجدوى من فعله ابتداء **طاعة الله والقيام بحقه** .

أما إتيانه دون نظر إلى وجه الله فلا قيمة له ، وإن صلحت به إلى حين بعض شئون الدنيا .

إن الإيمان بالله ليس نافلة قط فى المجتمع المؤمن . إن تسبيحه وتحميده جل جلاله ، يجب أن يكونا شغلاً للناس ، وشارة لحياتهم بالغدو والآصال .

وقد يضحك بعضهم من الحديث عن الآخرة ، والجنة والنار ، ويظن ذلك كلامًا فات أوانه ، أو كلامًا يتهامس به بعض الوعاظ فى مواكب الموت .

والحق أن الدين يذوب ويتلاشى يوم يكون الحديث عن الآخرة مجونًا أو لغوًا .

إن قوافل الأحياء يجب أن تعى بلباقة وجد ، أن عقيدة الجزاء الأخير ليست هزلاً ، وأن **البعد بنشاط الحياة عن الإيمان بالله واليوم الآخر، بعد عن الصراط المستقيم، وجرى وراء سراب خداع** .

ونحن المسلمين يجب أن نشوب نشاطنا كله بمعالم هذا الإيمان الحق ، وألا تجرفنا تيارات الحضارة المادية التى تسود الشرق والغرب ، تلك الحضارة التى ذهلت عن الله ، وتجاهلت وحيه ، وآثرت أن تحيا وفق هواها ، وأن تأخذ من دينه ما لا يصادم هذه الأهواء . . . ثم تطرح جانبًا أهم شعب الإيمان .

***

المعروف فى دراستنا النظرية أن الدين عقائد وعبادات وأخلاق ، وأن الصلة بالله هى القائد الأول لبقية الشرائع ، وأن صحة هذه الصلة ضمان للنجاة وإن قلت حظوظ المرء من بقية التكاليف الشرعية . . .

ونريد أن نتوقف قليلاً لنناقش هذا التفكير ، فلا نجور على أصل الإيمان ، ولا نجور على مجموعة الأعمال المرتبطة به والناشئة عنه .

من حق علمائنا الأقدمين أن يهدروا كل خير يصنعه الكافر ، وأن ينوهوا بثقل كلمة التوحيد فى ميزان الصالحات .

إن وجهة نظرهم واضحة ، فإن الذى يرتكب فى عصرنا جريمة الخيانة العظمى ، تعصف جريمته بكل خير فعله من قبل .

ويوم يقال : فلان خان وطنه وباعه للأعداء . فلن ترى إلا الازدراء والمقت والإجماع على استحقاقه أقسى العقاب .

ولو قيل : إن هذا الشقى كان بارًا بأمه ، أو كريمًا مع خدمه ، أو لطيفًا مع أصدقائه . فإن هذه الخصال جميعًا تُطوى فى صمت ، وتزم دونها الشفاه ، ولا تغنى عن حكم الموت المادى والأدبى الذى يستحقه هذا الخائن .

والواقع أن سلفنا نظروا إلى الكافر نظرة العصر الحاضر إلى الخائن لأمته ، ورفضوا الاعتراف بأى خير يفعله ، أو الإقرار بأى ميزة له .

والكافر ـ فى نظرنا ـ أهل لهذا الهوان .

والجاحد لوجود الله ، الخائن لنعمته ، المنكر للقائه ، يرتكب بهذه الخلال أشنع جرائم الخيانة العظمى ، وليس له ما يدفع عنه ، مهما صنع ؛ ﴿ **وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ** ﴾ (الحج : ١٨) .

إلا أن هذه الحقيقة تولّد عنها خطأ شائع ، ألحق بالإيمان وأهله ضررًا بليغًا .

فقد فهم العامة أن حسن الصلة بالله ـ وهو فضيلة بيقين ـ يجبر النقص فى بقية الواجبات المفروضة .

ثم تدرج هذا الفهم إلى أن هذه الواجبات يمكن أن تتلاشى ، ويغنى الإيمان المجرد عنها .

وانضم إلى هذا الوضع أن الذين انحرفوا عن الإيمان ، ونسوا الله ، أتقنوا طائفة من الأعمال الإنسانية ، والفنون الحيوية ، وسبقوا بها سبقًا بعيدًا .

وعندما قام فى العالم هذا التناقض ؛ اهتزت قضايا الدين ، وتخاذلت صفوف المؤمنين ، ونجمت فى أرجاء الدنيا فتن عاصفة .

والأمر بحاجة إلى أولى الألباب يتداركونه بصدق الفهم ، ولطف العلاج .

وعلينا معشر المؤمنين أن نصلح شأننا قبل أن نطالب غيرنا بتغيير نفسه وفكره ، إن الإيمان أعظم الفضائل فى هذا الوجود ، وهو عنصر غال ، ما دخل فى شىء إلا زانه ، ولا نزع من شىء إلا شانه . . .

بيد أن الإيمان الذى يستحق هذه النعوت له نواح عديدة ؛ فهو صلة بالله قائمة على الخشوع والإخبات ، وهو صلة بالنفس قائمة على التأديب والضبط ، وهو صلة بالمجتمع قائمة على العدل والرحمة ، وهو صلة بالكون قائمة على السيادة والارتفاق .

ذلكم هو الإيمان الجدير بالإعظام وحُسن المآب ، وهو إيمان غلاب منتصر لا يثبت الإلحاد أمامه فى معركة ، ولا يقاس به فى مفاضلة .

إنما يزرى بالإيمان أن يكون علاقة مفتعلة برب العالمين ، لا تبعث على كمال ولا تصون عن نقص ، تدارى هوانها بصور العبادات المفروضة ، ولا تحقق فى صاحبها ولا فيما حوله خلقًا عظيمًا ، أو سلوكًا ناضرًا .

ومثل هذا الإيمان الصورى ـ وما أشيعه بين الناس ـ لا يرفع رأسًا ولا يكسب نصرًا .

وهل انتفخ الإلحاد ، وتحركت وساوسه إلا فى ميدان لقى فيه هذا الإيمان الزائف ، وهل رفع رايته وفرض شارته إلا بين مؤمنين من هذا الطراز المهين؟

إننا نرفض رفضًا باتاً أن تعيش الخليقة بغير دين يصلح بالها ، ويزكى أحوالها ، ونرفض كذلك أن تعيش الخليقة بدين تأوى إليه الخرافة ، وتنهزم فيه الخصائص الإنسانية العليا ، وتتأخر فى ظله الحياة ، وتذبل ملكات الابتكار والإبداع والتجمل .

ويجب أن ننصف الإسلام ، فنعلم أنه دين أعلى قدر الإنسان ، ورفع شأن الحياة ، لا بعبادتها والتفانى فيها كما يفعل الجهال ، بل بضبط رسالة الإنسان فيها وحسن إفادته منها .

الإنسان ـ فى تصوير الإسلام ـ عبد لله وحده ؛ يعرفه ويتقيه ! سيد لهذا الكون ؛ يرتفقه ، ويستخدمه ، ويستغل قواه .

أخ لنظرائه من الناس يتعاون معهم على الخير ، ويعاشرهم بقانون العدل والرحمة . ويعجبنى قول الأستاذ إسحاق الحسينى فى وصف الإسلام :

«تبين فى الإسلام فى ضوء تاريخ الأديان البدائية والسماوية جميعًا فضيلتان : الأولى : النظر الشامل إلى الحياة باعتبارها وحدة مؤلفة من عناصر متداخلة ، فالجانب الروحى لا يقل خطرًا عن الجانب المادى ، وأدب النفس لا يقل عن أدب الجماعة .

والمعاملات تعتمد على أسس أخلاقية ، اعتماد العبادات على أسس روحية ، وللفرد ما للجماعة من حقوق .

والفضائل جميعها متساوية فى الاتباع ، لا تغنى واحدة عن الأخرى .

وبعبارة أخرى : دعا الإسلام إلى السعادة الكاملة فى الدارين ، وإلى إقامة مجتمع فاضل مشترك فى السراء والضراء ، متعاون على البر والتقوى ، آمر بالمعروف ناه عن المنكر ، قال الله تعالى : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾(التوبة : ٧١) .

والفضيلة الثانية : النظر إلى الناس جميعًا أسرة واحدة تتعارف وتتعاون ، لا تفاضل بينها إلا بالتقوى .

والنظر إلى وحدة الرسالات السماوية ، وأخوة الأنبياء جميعًا دون تفريق بين أحد منهم .

ونجم عن ذلك النظر سماحة فى المعاملة ، وعدل وإحسان ، وأخذ للحكمة حيثما كانت ، وللفائدة حيثما وجدت ، وانتشار الإسلام فى الأرض ، واستيعاب الحضارة الإسلامية خير ما فى الإنسانية .

ووردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى مكارم الأخلاق ، وإلى الفضائل الاجتماعية ، وإلى التعامل بالحق والعدل : كالبر بالوالدين ، وإيتاء المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وإطعام البائس الفقير ، والرفق بالضعفاء والمرضى ،

والعفو ، والصلح ، والصبر ، والصدق ، والوفاء ، والصدقة ، والتعاون على البر والتقوى ، والانتشار فى الأرض ابتغاء فضل الله .

ووردت آيات كثيرة تنهى عن مساوئ الأخلاق والرذائل : كالجهر بالسوء من القول ، وظن السوء ، والكذب ، والخيانة ، والظلم ، والبغى ، والعدوان ، والفحشاء ، وأكل الأموال بالباطل ، وأكل أموال اليتامى وقهرهم ، والتطفيف فى الكيل والميزان ، والتبذير .

أما أحاديث الرسول ﷺ وآثار الخلفاء والصحابة فكثيرة جدًا ، وهى جميعًا مستوحاة من المبادئ القرآنية ، ومؤيدة إياها وشارحة لها .

وظاهر من هذا الوصف الدقيق أن العمل شبكة محكمة النسج ، لا يفلت منها شىء من خير الدنيا والآخرة .

لكن بعض المشتغلين بعلوم الدين ، وتهذيب السلوك العام قد يهبطون دون هذا المستوى فى فهم الدين وعلاج المجتمعات به .

نعم إن المعنيين بالتربية الدينية قد يسيئون إلى الإيمان ، حين يتصورونه منديلاً يمسح فيه الخطاءون عيوبهم ، فهم يعثرون والإيمان يغفر ، ويكسرون والإيمان يجبر .

وكثير من أتباع الأديان السماوية ظنوا التمسك بأصل الدين كافيًا فى النجاة مهما صنعوا وقالوا ﴿ **لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ . . .** ﴾(البقرة : ١١١)

وقد فند القرآن الكريم هذه المزاعم ، ورسم طريق النجاة الحقيقى ، وهو مزيج من الإيمان الحى ، والإحسان فى العمل ، والإخلاص لله ؛ ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾(البقرة : ١١١ ، ١١٢) .

وبعض الوعاظ قصار النظر قد يقعون على آثار دينية محدودة المعنى والمجال ، فيسيئون فهمها وتطبيقها ، ويتجاهلون بها- جملة- الكتاب والسنة ، بل طبيعة الإيمان نفسه .

تلك الطبيعة التى تخلق من الموات حياة ، ومن الفوضى نظامًا .

خذ مثلاً حديث البطاقة الذى رواه الترمذى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما من أن رسول الله ﷺ قال : «**إن الله تعالى سيخلص رجلاً من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب .**

فيقول تعالى : بلى ، إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، فيقول : يا رب ، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات! فقال : فإنك لا تظلم .

فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شيء» .

هذا حديث مثير الدلالة ، وهو لو أخذ على ظاهره يضع عن الناس شتى التكاليف الإلهية ، ويبطل قوله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ** (٨١) **وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾(يونس : ٨١ ، ٨٢) .

وعندى أن هذا الحديث ـ إن استقام سنده ـ إنما يصح فى شخص مشرك ، قضى حياته فى الفساد ، ثم آمن قبل أن يحين أجله بقليل فلم يستطع بعد إسلامه أن يبقى مدة يصلح فيها ما مضى ، والحديث بهذا ينوه بما لخاتمة الإيمان من قيمة ، وما لتوحيد الله من منزلة .

أما إطلاق هذا الحديث وأشباهه بين العوام أو بين الناشئة دون وعى ؛ فهو هدم للدين كله ، وهو الأساس لتكوين طوائف من المتدينين ، تحط من قدر الإيمان وأثره . .

إن العالم اليوم فقير إلى الإيمان الذى يصله بربه صلة وفاء وبر ، ويربطه بالحياة رباط إنتاج وجد ، وإلا فالمستقبل حافل بالنذر .

الإيمان والعمل

صلة الإيمان بالعمل كصلة الخُلُق بالسلوك .

فإذا آمن الإنسان بالله العظيم ، وأيقن باليوم الآخر ، وصدق بما جاء به المرسلون ، دفعه ذلك ـ لا محالة ـ إلى استرضاء ربه ، والاستعداد للقائه ، والاستقامة على صراطه .

كما أن الشجاع فى ميادين الخطر يقدم ، والكريم فى مواطن البذل ينفق ، والصادق فى أداء الحديث يتحرى الحق . . إلخ .

وعسير ـ بل مستحيل ـ أن يهبط الإنسان بحقيقة الدين عن هذا المستوى ، أو أن يفهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما يغاير ذلك .

بيد أن أعداء الإسلام ـ وقد عجزوا عن هزيمته فى ساحات القتال ـ لم تُعْيِهِم الحِيَلُ لسحقه فى عقر داره .

فدسوا على المسلمين من يصور لهم الإسلام كلمة لا تكاليف لها ، وأمانى لا عمل معها .

وفى ظل هذا الفهم المعوج ترى المسلم واليهودى والقبطى يتعاشرون سنين عددًا ، فلا تستطيع أن تميز أحدهم من الآخر فى شىء .

الكل لا يدخل مسجدًا ، ولا يقيم فريضة ، ولا يحترم لله شعيرة .

والكل يشرب الخمر ، ويأكل الربا ، ويفجر بالأعراض .

وغاية ما بينهم من فوارق ، أن اليهودى يقدس يوم السبت ، وقد يذهب النصرانى إلى كنيسته خلسة .

أما ذلك المسلم المزعوم فليس يربطه بالإسلام إلا اسم سجل فى شهادة الميلاد فحسب .

والمؤسف أن أقوامًا ـ من أهل العلم الدينى ـ لا يكترثون بذلك .

فالمرء إذا غمغم بين شفتيه بكلمة التوحيد ؛ تحصن وراءها ، فأصبح يسيرًا عليه ألا يقوم إلى واجب ، وألا ينتهى عن محرم .

وقد زعم هؤلاء المغفلون أن الدين ينص على ذلك! ألا ساء ما يصنعون .

ولو فرضنا أن حزبًا ما ، تقدم إلى الناس وقد أضاف إلى جملة المواد التى تبين للجماهير منهاجه وتوضح أغراضه ، مادة أخرى تصرح أو تلمح بأن لكل منتم للحزب ألا يعمل بمبادئه وألا يتقيد بتعاليمه ؛ لقال الناس أجمعون : هذا هو العبث والمجون!

فكيف نتهم الإسلام بأنه يحمل فى ثناياه ما يهدمه؟

كيف ننطلق إلى نصوص نبحث بينها عن (المادة) التى تبيح الخروج عليه واللعب به؟ وكيف ندعى أن الأعمال أمر كمالى بحت ، لا يضير نقصانه؟

أولئك هم الحمقى ﴿ **الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** ﴾ (الأعراف : ٥١)

وعلى رءوسهم يقع التفريط الهائل فى إقامة حدود الله وأداء فرائضه ، وما أصاب المسلمين من كوارث ونكبات عندما فهموا دينهم على ذلك النحو الأبتر .

أمة تعتبر العمل من (الكماليات) الخفيفة ، كيف يقوم لها دين؟ أو تقوم بها دنيا؟

إن الله عز وجل جعل العمل رسالة الوجود ووظيفة الأحياء ، وجعل السباق فى إحسانه سر الخليقة ودعامة الحساب .

﴿ **الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** ﴾(الملك :٢) .

وما من آية فى كتاب الله ذكرت الإيمان مجردًا ، بل عطفت عليه عمل الصالحات ، أو تقوى الله ، أو الإسلام له ، بحيث أصبحت صلة العمل بالإيمان آصرة لا يعروها وهن .

فإذا عقدت مقارنة بين الهدى والضلال ، جعل الإيمان والعمل جميعًا فى كفة ، وجعل الكفر فى الكفة الأخرى .

﴿ **وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ** ﴾ (غافر :٥٨)

كثيرًا ما يشار إلى الإسلام وحقيقته الشاملة بمظاهر عملية واضحة محدودة :

﴿ **فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ** ﴾(البلد : ١١ ــ ١٦) .

بل إن العلامة التى ينصبها القرآن دليلاً على فراغ النفس من العقيدة ، وخراب

القلب من الإيمان ، هى فى النكوص عن القيام ببعض الأعمال الصالحة :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾(الماعون : ١ ـ ٣) .

وقد ينظر إلى الإيمان على أنه وصف يلحق الأعمال ، ويطرأ على السلوك الإنسانى المعتاد ، فيصلحه ويصله بالله ، فيذكر العمل أولاً كما هى مرتبة وجوده ، ثم يذكر الإيمان ثانيًا على أنه شرط صحته وقبوله .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾(الأنبياء : ٩٤) .

ثم ما الذى يوزن فى الدار الآخرة؟ أليست الأعمال التى تميل بالإنسان إلى النعيم أو الجحيم أو الدعاوى والمزاعم؟

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾(الأعراف : ٨ ، ٩) .

***

إننا نعرف تاريخ أمم هلكت بسوء عملها . ونعرف أن الله نقم على قوم لوط ـ مثلاً ـ لارتكابهم الفاحشة ، وعلى قوم شعيب ـ مثلاً ـ لبخسهم المكيال والميزان ، وقد عرفنا مصاير أولئك الفاسقين .

فهل أمتنا ـ وحدها ـ هى التى تريد أن ترتكب السيئات ، دون حذر أو وجل ، ليس الإسلام بِدْعًا من الشرائع السابقة ، فيوجب الإيمان دون العمل .

بل إن القرآن الكريم ليقص علينا عبر السابقين لنتعظ منها ، ثم لنسمع قول الله بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِى الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس : ١٣ ، ١٤) .

هكذا نمتحن وتُراقب تصرفاتنا ، ويكلفنا الله بالإيمان والعمل جميعًا ، ثم ينظر

وفاءنا بما حملنا من أعباء! .

وقد خاطب الله أبناء آدم - قاطبة - بهذه الحقيقة السافرة ، وأفهمهم - فى جلاء وقوة - أن نجاتهم فى الصلاح والتقوى ، لا فى النفاق والدعوى :

﴿ **يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾(الأعراف : ٣٥ ، ٣٦) .

وعندما اهتدى أولو الألباب إلى الحق ، وأعلنوا إيمانهم وهتفوا : ﴿ **رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا** ﴾(آل عمران : ١٩٣) .

وعندما تضرعوا يطلبون من الرحمن أن يصفح عن زلاتهم :

﴿ **رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ** ﴾(آل عمران : ١٩٣) .

وعندما تطلعوا إلى النصر والتمكين فى الأرض ، والفوز والرضوان فى الآخرة :

﴿ **رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾(آل عمران : ١٩٤) .

مع هذه الحرارة فى الدعاء ، والإخلاص فى التوجه ، أعلن الحق أن استجابته مقرونة بالعمل وحده ، وأن الكلام- فحسب- لا يروج ، وأن تحقيق هذا الرجاء مرهون بجهاد وتضحيات وتكاليف :

﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾(آل عمران : ١٩٥) .

إن النصوص الهادية إلى تلازم الإيمان والعمل كثيرة ، يزخر بها القرآن وتستفيض بها السنة ، وتقر الحق فى نصابه ، وترسم لكل مسلم غايته ، وتخط له مكانته ، وتقرع الآذان بذلكم الأمر الحاسم :

﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾(التوبة : ١٠٥) .

لا يعلمون الكتاب إلا أماني

ومن الناس من وقع على نصوص لم يفهمها ، وحاول أن يشغب بها على القواعد المقررة .

وكم تدور على ألسنة العامة أحاديث شتى .

مثل ما رواه أنس أن النبى ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل قال : «يا معاذُ» . **قال :** لبيكَ يا رسولَ الله وسَعدَيك . ثلاثًا ، قال : «**مَا من أحد يشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأن محمدًا رسولُ الله صِدقًا من قلبهِ إلا حَرَّمَهُ اللهُ على النارِ**» .

قال : يا رسول الله ، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال : «**إذن يَتَّكِلُوا**»**!** .

وأخبر به معاذ عند موته تَأَثُّما .

بهذا الحديث وأمثاله تتعلق العامة فى نقض بناء الإسلام وهدم أركانه ، والتهوين من خطر العمل وآثاره . وهو تعلق باطل مردود .

قال الحافظ المنذرى : «ذهب طوائف من أساطين أهل العلم إلى أن مثل هذه الإطلاقات التى وردت فيمن قال لا إله إلا الله «دخل الجنة ، أو حرم على النار» أو نحو ذلك ، ربما كان فى ابتداء الإسلام حين كانت الدعوة إلى مجرد الإقرار بالتوحيد .

فلما فُرضت الفرائض ، وحُدّت الحدود ، نسخ ذلك .

والدلائل على هذا كثيرة متظاهرة .

وإلى هذا القول ذهب الضحاك ، والزهرى ، وسفيان الثورى وغيرهم .

وقالت طائفة أخرى : لا احتياج إلى ادعاء النسخ فى ذلك .

فإن كل ما هو من أركان الدين وفرائض الإسلام هو من لوازم الإقرار بالشهادتين وتَتِمَّاته .

فإذا أقر ، ثم امتنع عن شىء من الفرائض جحدًا أو تهاونًا- على تفاصيل الخلاف فيه - حكمنا عليه بالكفر وعدم دخول الجنة» .

وذكر المنذرى أقوالاً أخرى تتفق كلها على أن ظواهر هذه الأحاديث غير مراد ، وكيف يعتد بظواهرها مع ورود مئات من النصوص الأخرى من الكتاب والسنة تربط الإيمان أوثق رباط بأعمال معينة!

والواقع أن ما أجُمِلَ فى نص يُفصَّل فى نص آخر .

وقد قال النبى ﷺ : **«أمُرت أن أقاتلَ الناسَ- مشركى العرب- حتى يشهدوا ألا إلهَ إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، ويُقيمُوا الصلاةَ ، ويُؤتوا الزكاةَ ، فإن فعلوا ذلك عَصَمَوا مِنِّى دماءَهم وأموالهم إلا بحقِّ الإسلامِ ، وحسابُهُمْ على الله»** .

فهذا الحديث أحصى أعمالاً لم تذكر فى حديث النطق بالشهادتين ، وهو تفسير لقول الله تعالى :

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ (التوبة : ١١) .

وقوله من قبل :

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ (التوبة : ٥) .

إن النطق بالشهادتين بداية لما بعده من اعتقاد وعمل ، لا ما تحسب الأبصار الكليلة ، والهمم القاصرة من أن مجرد النطق فيه الكفاية والغناء .

وحروف هذه الكلمة- كلمة التوحيد- منافذ تُفْضى بالإنسان إلى ساحات رحيبة ، وآفاق ممتدة يشرب القلب فيها حقيقة التوحيد الخالص كلما سجد لبارئه وبادر إلى مرضاته ، ونفر من مساخطه ، وأدى الواجب وترك المحرم .

وأدران الشرك ليست كلمة تلوث الفم وحده حتى تطهرها كلمة مقابلة ينطق بها الفم .

ولكن الشرك تَوجُّه الفؤاد لما دون الله ، وعمَلُ الجوارح لغير الله .

فإذا لم يسيطر التوحيد على القلب والجوارح ، ويتحول إلى قوة باعثة إلى العمل الصالح فلا قيمة له!

إن كلمة التوحيد حصانة البشرية من الخنوع للآلهة المزيفة .

وهذه الآلهة ليست حجرًا منحوتًا فحسب ، بل كل ما يقطع صلة الإرادة الإنسانية بالله ، ويربطها بغير رباط الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة ، والألم والأمل ، فهو ذريعة للشرك .

وهناك ألوف مزقت المعاصى صلتهم بالله شر ممزق ، وظلت أهواؤهم تجمح بهم بعيدًا عن الله ، حتى نسوا الله أتم نسيان .

فلو قارنت بين ضمائرهم وضمائر أهل الجاهلية الأولى ، ما وجدت فارقًا بين جحود وجحود ، وكنود وكنود !

إلا أن هؤلاء نطقوا بكلمة التوحيد ولم يفهموها ، وأولئك فهموها ولم ينطقوا بها .

إن البشرية ـ بفطرتها ـ تحلق فى أجواء مشرقة من توحيد الله ، فإذا علقت بها حبائل الشيطان ، ورانت عليها أثقال الشهوة ، وزهدت فى السماء ، ونظرت إلى الأرض ظلت تهبط وتهبط ، وتسقط دون فضل الله ، وتسقط حتى تصل إلى الحضيض .

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج : ٣١) .

ما كانت كلمة التوحيد نبتًا مشلولاً فى تربة خبيثة .

ولكنها نبت تمتد أصوله فى القلب الخصب ، وتظهر آثاره ظلالاً وارفة ، وثمرات شهية .

تظهر أعمالاً طلبها الإسلام وأكدها ، وربط وجوده بنمائها ووفرتها :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥) .

وهذه الكلمة أعلى عند الله قدرًا ، وأعلى شأنًا ، من أن يستغلها منافق أو لعوب .

فالرجل العقيم من الأعمال لا تنفعه دعواه ، ولا يغنى عنه إيمان منتحل :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة : ٨) .

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ (التوبة : ٥٦ ، ٥٧) .

ولما كان الإسلام قد قرر ما ينبغى عمله فى الشئون المتصلة بنواحى الحياة كافة ، من أحكام ومعاملات وأخلاق ، فإن موقف المؤمنين تجاه ذلك واحد لا يتغير ، هو الخضوع المطلق .

فإذا انكشف الغطاء عن غير ذلك ، وتبين من ضلال السلوك ضلال القلب ، فإن الإيمان زعم باطل .

وبهذا القياس فضح الله طوائف المنافقين الأولين ، وبه- كذلك- نفضح أشباههم اليوم .

أعرف فى إحدى المدن مصنعين للنسيج ، يدير الأول أجنبى يخشى الاتهام بالتعصب ، فهو يأذن لعماله أن ينصرفوا ساعة لصلاة الجمعة .

أما الآخر - ويديره مسلم بالوراثة - فهو باسم إسلامه الدعى لا يخشى هذا الاتهام فهو يضن على العمال بالوقت الذى سمح به الأجنبى للصلاة!

ولعلك إذا جادلته فى هذا الصد عن سبيل الله تطاول على الصلاة والمصلين ، ناسبًا إليهم كل رذيلة .

أفمثل هذا الوغد الذى لا يكترث بشعائر الإسلام يسلك فى عداد المؤمنين؟

وقد تسمع أحدهم يذكر تشريعات الإسلام ، فيسلقها بلسان حاد ، وقد يتناول أنصارها بالسخرية .

إن إجماع العلماء منعقد على طرد هؤلاء من حظيرة الإسلام .

وينبغى أن نسارع بغربلة الأمة الإسلامية ، حتى يُنفى خبثها ويُعزل سقطها ، ويمتاز فيها المسلمون من المجرمين والملحدين .

في ميدان التربيـة

هذه أحاديث تطيش فيها أفكار العامة .

وينبغى أن نقف قليلاً لديها حتى نشرح ملابساتها ، ونذكر المعنى المقصود منها . والأحاديث فى العفو والعقاب ، والخطيئة والمتاب .

وماذا نصنع إذا كانت الأمة مبتلاة بمن يهوِّن لديها بشاعة الأخطاء ، وفظاعة الجرائم ، مستندًا إلى نصوص لم يفهمها ، وراكنًا إلى رحمة لم يتهيأ لها؟

وفساد الحضارات الدينية يرجع إلى تكوُّن أخلاف من الناس يحرِّفون الكلم عن مواضعه ، ويخلطون خلطًا شائنًا فى تطبيق أحكام الشريعة على أعمال الجوارح وخطرات القلوب ، ويريدون أن يرتكبوا آثام الملحدين وينالوا جزاء الأوابين .

وقد عاب القرآن الكريم على اليهود وأعقابهم هذا المسلك الطائش ، فذكر إقبالهم على دنايا الحياة ، وارتباطهم بأعراضها الفانية ، ثم آمالهم الجريئة فى نعيم الآخرة ـ مع ذلك ـ ثم زعمهم أنهم بهذه السيرة الحقيرة مستقيمون مع منطق التوراة وهدى موسى ـ وهذا هو الأدهى .

ذكر القرآن صورة ذلك ، ووضعها أمام أعيننا ماثلة :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾(الأعراف : ١٦٩) .

ثم أبان الله لهم ـ سبحانه ـ أن للمصلحين أجرهم الذى لا يضيع ، وأن عناصر هذا الإصلاح هى فى التمسك الحق بالكتب السماوية ، وما تأمر به من عبادة ، ومن ثَمَّ قال :

﴿ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾(الأعراف : ١٦٩ ، ١٧٠) .

ولكن أين تمسُّك المتدينين بكتبهم؟

بل أين نزول المسلمين على هدْى قرآنهم؟

إن جرائم القتل التى تقع بوادينا المسلم (!!) تزيد على ما يقع فى نصف قرن ببلد كـ «فنلندا» لا يعرف الإسلام ولا غيره من الأديان .

وعلل هذا الهرج كثيرة ، ولكن تفتيت الصلة بين الإيمان والعمل ، وقطع التلازم بين الجريمة والعقاب ، وسَوْق نصوص الرجاء للعاطلين ، ووضع الندى موضع السيف ـ ذلك كله فى مقدمة الأسباب التى جرَّت على الحضارات الدينية هذا الفساد ، وجعلت بعض الحضارات الأخرى ترجحها فى ناحية ما .

أما الأحاديث التى يغلط العامة فى فهمها ، فقبل أن أسردها أذكر هذا المثل للدكتور عبد العزيز إسماعيل ، قال :

«شخص يخاف ربه ويطيع أوامره ، ولكن حدث له أن وقع مرة تحت تأثير انفعالات نفسانية شديدة ، ضاع معها رشده ، فارتكب جريمة قتل ، فلما ثاب إلى رشده ندم على فعْلته .

فهذا الرجل ارتكب الجريمة بجوارحه فقط ، ولم يقتل ضميره .

فقد ثبت طبيّا أن الانفعالات الشديدة تحدث زيادة إفرازات فى بعض الغدد الصماء ، تؤثر على ضغط الدم وعلى المخ .

وقد تحدث تشنجاً عصبياً ، أو شللاً وقتياً فى قوة الإدراك (غيبوبة) يأتى الشخص فى أثنائها من الأفعال ما يستنكره فى حالته العادية» .

هذه الخطيئة يظهر فيها قهر القدر الغالب .

وتشخيص حقيقتها من طبيب مختص يفسر لنا مدى المسئولية الأخروية عليها .

وفيها وفيما يجرى على نسقها من أخطاء يصح أن يفسر قول النبى ﷺ : **«والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»** .

ليس هذا الحديث دعوة عامة إلى ارتكاب الخطايا ، ولا هو تقرير لبيان حكمة الوجود بأنه فعل السيئات .

فإن الله ـ فى كتابه ـ أظهر لنا الحكمة العليا من وجودنا فقال : ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ (الملك : ٢) .

وقال النبى ﷺ شرحًا للآية : «**أيكم أحسن عقلاً، وأورع من محارم الله، وأسرع فى طاعة الله**» .

الحديث فى الحقيقة تعليق على الموجات النفسية التى تجرف فى تيارها أبناء آدم وتضع عزائمهم ـ مهما قويت ـ أمام عواصف القدر الجتاحة ، فإذا بها تصبح هباء منثورًا .

فإذا خرج امرؤ من غمراتها ، وفى رأسه من عمايتها دوار ، استمع إلى هذا الحديث : «**لو لم تذنبوا . . .**» . كما يستمع المحزون إلى كلمة عزاء .

والحديث مبتوتُ الصلة بمسلك السفلة ومعتادى الإجرام .

ونحن نحتاج إلى هذا التوجيه الكريم فى علاجنا لعثرات الشباب ووقوعهم المتكرر فى مآزق الغريزة الجنسية .

فكم لنشاط الغدد من آثار خطيرة! تسكب إحدى الغدد إفرازها دافقًا فى الدم المهتاج!!

فإذا الرجل لا يكاد يقوم حتى يكبو .

وكأنما يريد ربك أن يجعل من الإنسان العملاق عبدًا كسير الجناح ، أمام جبار السماوات والأرض ، وحتى تكون آمال الإنسان أعلق بانتظار العفو والتوفيق منها بتقديم الأعمال وشتى الطاعات .

وقلما يحدث ذلك إلا لذوى المواهب والملكات ، ممن يُخْشى عليهم الغرور بطاقاتهم الواسعة ، لولا ما يعرض لهم من غلطات ويقعون فيه من سيئات .

ومن هذا التحديد ندرك سر قول النبى ﷺ : «**كُتبُ على ابن آدم نصيبه من الزنى ، مدرك ذلك لا محالة . . . العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرِّجل زناها الخُطا ، والقلب يَهْوى ويتمنى . . ويصدِّق ذلك الفرْجُ أو يكذِّبه**» .

هذا الذى كتب هو لوْثاتُ الغريزة فى جماحها الطاغى .

ومدى عفو الله فى هذا مربوط بما خرج عن دائرة المجاهدة والتطلع إلى الكمال .

أى إن الشاب مكلف ببذل جهده كله ، فى محاربة الجريمة ، والبعد عن مغرياتها ومثيراتها .

فإذا حدثت مضاعفات فوق الحسبان ، شَرَدَتْ بالمؤمن عما التزمه .

كالسابح الذى يضرب بيده فى اللجة ، ويدفع صدره إلى الأمام ، ويستهدف الوصول إلى الشاطئ فى بأس وعزيمة ، ثم يظهر له أن جهده يذهب سدى ؛ لأن التيار ضده .

فهو مهما بذل لا يعدو مكانه ، عندما يحاط بأمر ما فى أوضاع الحياة على هذا النحو ، يساق هذا الحديث ، لا لتبرير الخطأ ، ولكن لتيسير الخلاص منه ، ومنع الارتكاس فيه .

ثم توجه الإرادة البشرية عندئذ إلى العبادات الإيجابية ، ففيها الدواء لما أصابها من فشل فى العبادات السلبية :

﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ** ﴾(هود : ١١٤) .

وأبواب الأمل فى الخير إن حاول الشيطان سدَّها من ناحية ، فتحت من ناحية أخرى ، ولذلك قال :

﴿ **وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾(هود : ١١٥) .

والحق أن فعل الصالحات ليس علاجًا فقط للفشل فى ترك السيئات ، بل هو الطريق الوحيد للنجاح فى تركها ، والتطهر من أدرانها ، مهما عزَّ ذلك أول الأمر .

وتلك آية الإيمان .

أما أن نرى قومًا يفعلون الشر ، ويتركون الخير ، ويزعمون الإسلام فهم كذابون ، وليس فى الحديث الآنف ما يصحح إيمانهم .

وهذا حديث آخر ذكره أحد الجهال فى تهوين قيمة العمل .

قال رسول الله ﷺ : «**قال رجل : والله لا يَغفرُ الله لفلان ، وإن الله تعالى قال : مَن ذا الذى يتألَّى علىَّ ، أن لا أغفرُ لفُلانٍ ! فإنى قد غفَرتُ له وأحبطتُ عملَكَ**» .

والحديث صحيح رواه مسلم ، وأخرج أبو داود مثله .

قال رسول الله ﷺ : «**كان مع بنى إسرائيل رجلان متواخيان ، أحدهما مذنبٌ والآخَرُ فى العبادة مجتهد ، فكان المجتهدُ لا يزالُ يلقى الآخرَ على ذنبٍ فيقول له : أقصر . فقال خَلِّنى وربى ، أَبُعِثتَ علىَّ رقيبًا؟ فقال له : والله لا يغفر الله لك . أو قال : لا يدخلُك الجنةَ . فقبض الله أرواحَهُمَا ، فاجتمَعَا عندَ رَبٍّ**

العالمين ، فقال الرب تعالى للمجتهد : أكنتَ على ما فى يدى قادرًا؟! وقال للمذنب : اذهبْ فادخل الجنةَ برحمتى . وقال للآخر : اذهبُوا به إلى النار» .

هذا الحديث نظر إليه العلماء ففهموا منه المعنى الوحيد الذى يفهم منه .

وهو : أن الرجل المستكبر بطاعته ، أبعد عن الله من الرجل المستخذى بمعصيته وهذا حق ، فهناك ممن يلبسون مسوح الدين ، رجال يحسبون أنهم ببعض صلوات أقاموها ، قد شاركوا الله فى تقرير مصير العباد ، وأنهم يحملون معه مفاتيح الجنة والنار .

وقد رأيت كثيرين من المتصعلكين فى الأندية الدينية ، تنطوى نفوسهم على هذه الجهالة وتُعوزُهُمْ مشاعر الرقة والتواضع .

والحديث المذكور قمعٌ لتداول هؤلاء .

ومن بقايا النصرانية اليوم ، قد تجد إنسانًا كسير القلب لأنه أخطأ ، يذهب إلى راهب الكنيسة ، ليقوم بمراسيم الاعتراف الشائعة عندهم .

ولو غُصْتَ فى أغوار هذا وذاك ، لوجدت نفسية المخطئ أقرب إلى الكمال الإنسانى ، من نفسية الراهب الذى سيمنحه المغفرة ، وهو مُدِلٌّ مختال .

وإننى فى تجاربى الكثيرة لا أزال أشكو قسوة القلب ، وخلال الفظاظة التى أجدها فى مسالك بعض المنسوبين إلى الدين .

على عكس ما يلمحه المرء أحيانًا من تأدب وسماحة فى سير بعض الذين لمَّا يهتدوا بعد إلى ما فى الدين من حق وخير وجمال . . .

ويستحيل أن يكون الحديث المذكور مناقضًا لقول الله فى كتابه :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾(القلم : ٣٤ ـ ٤٠)

ونحن نسأل الجهال العابثين بالنصوص :

كيف جاز لهم أن يقطعوا صلة الإيمان بالعمل ، والخطيئة بالعقاب لحُجُبٍ غطت على عيونهم ، فلم تر الصواب ، ولم تفقه الكتاب؟

الخطيئة والمتاب

الإيمان والخطيئة

ما ذكرناه من تلازم الإيمان والعمل ، لا يعنى أن الإيمان يقتضى العصمة فإن المؤمن قد يخطئ .

وما يقع فيه المؤمن من خطأ أو خطيئة لا يسلخه من الدين .

ولابد من بيان مُفصّل ، تُضم به أطراف هذا الموضوع .

عندما يكون المرء وثيق الإيمان ، كثير الطاعات ، طويل المراقبة لله ، فإن أخطاءه تقل لا محالة .

وما قد ينزلق إليه من سيئات ، يعتبر غريبًا على حياته غرابة الشذوذ بالنسبة إلى القاعدة .

وطبيعة الخطأ من رجل هذه حاله ، تجعل لسيئته صفة خاصة .

فهو لا يقصدها ، ولا يستريح إليها ، ولا يستقر عليها .

كالسائر فى طريق ما إلى هدفه لا يفكر إلا فى أعماله وآماله ، فإذا قدمه تخبط فى حفرة غير منظورة ، أو تمر بقشر فاكهة ملقاة ، فإذا المسكين يهتز ويضطرب ويهوى إلى الأرض .

إنه يخجل من سقطته ، ويقوم منها شديد الضيق والسخط .

كذلك قد تزل قدم المؤمن ، وهو سائر فى طريقه إلى الله ، فيُلمُّ بعمل لا ينبغى منه ، ثم لا يكاد يتورط فيه حتى ينزع عنه ، وهو بادى الألم ، عميق الحسرة .

هذه السيئات لا تَصِمُ سيرة المؤمن ولا تهدم شخصيته .

وهى من قبيل «لكل جواد كبوة ، ولكل صارم نبوة» .

ولما كانت خليقة الإنسان مزدوجة ، يلتقى فيها عنصران : أحدهما من السماء والآخر من الأرض .

فإن آثار هذا الاختلاط تبدو فى سلوك الإنسان .

وليس يستغرب على طبيعته أن تخلد إلى الأرض لحظة ما .

ومن ثم جعل الله سبحانه وتعالى دائرة عفوه تتسع لهذه السقطات :

﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ...** ﴾

وعلل هذا العفو بقوله : ﴿ ... **هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ ...** ﴾(النجم : ٣٢) .

قال الشاعر :

ولا بُدَّ مِنْ أَنْ يَنْزِعَ المرءُ مَرَّةً إلى الحَمَأ المَسْنُونِ ضَرْبَةَ لازِبِ

على أن هذه المزالق ـ كما قلنا ـ تعترى الإنسان وهو فى طريقه إلى ربه ، يؤدى واجبه ، ويقيم حقوقه ، ويتحرى رضوانه .

وما يصاحب هذا اللمم من ألم ، وما يسبقه من غفلة ، وما يعقبه من دهشة وغصَّة ، ذلك كله يكشف سواده ويخفف عواقبه .

وحَسْبُ صاحبه من عقابٍ دَوِىٌّ هذه السقطات فى نفسه ، وإسراعه بالإنابة إلى الله يجأر بالدعاء !!

وفى مثل هذه الحالات ، يساق قوله تعالى :

﴿ **وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾(الزمر : ٣٣ ـ ٣٥) .

﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾(العنكبوت : ٧) .

والمعنيون بتربية النفوس وتزكية السرائر ، لا يحبون أن يقفوا طويلاً عند هذه العثرات العارضة .

وَهَمُّهم أن يأخذوا بيد الكابى ، لكى يستطيع النهوض ويستأنف المسير ، ويقبل على واجباته بنشاطه القديم أو أشد رغبة .

وتهوينهم من هذه السيئات المقترفة ، لا لأن هذه السيئات تافهة أو مستحسنة ،

بل ليخلصوا المذنب من آثارها ، ويفكوه من آصارها ، ويمنعوه من الارتكاس فيها والانكباب عليها .

وذاك أخطر ما يتوقع ، وأول ما يحاذر الشرع منه .

وفى مثل هذه الحالات يساق قول النبى ﷺ فيما يحكى عن ربه عز وجل ، قال : **«أذنب عبد فقال : اللهم اغفر لى ذنبى . فقال الله عز وجل : أذنب عبدى ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب فقال : أىْ رب ، اغفر لى ذنبى . فقال الله تعالى : أذنب عبدى ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب فقال : يا رب اغفر لى!! فقال الله تعالى : أذنب عبدى فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، اعمل ما شئت فقد غفرت لك»** .

هذا الحديث وأمثاله مما يفتح مصاريع التوبة على كثرة العثار ، وهو فيمن قدمنا من الناس .

والمراد منه حفز الهمم إلى الصالحات ، والتقصى عن دائرة الجريمة ، مهما حدث من الإنسان ، ورفع أنظار البشر إلى أعلى ، كلما نكسها الشيطان .

وليس المراد منه- البتة - ما يفهمه سفهاء العامة من تحقير الجرائم ، وتهوين السيئات ، وإغراء العصاة بالجرأة على المخالفات واستباحة الحرمات .

فهذا المعنى نقض لحقيقة الرسالة الهادية ، وتجاهل وقح لآلاف الأحاديث المرهبة عن ارتكاب الذنوب .

والتفريط فى الأعمال الصالحة ـ بناء عن فهم معوج لهذه الأحاديث ـ هو ضلال مبين!

وليست الخطايا كلها من هذا القبيل ، ولا الذين يقعون فيها جميعًا من هذا الصنف .

فهناك حالات من النزق والسفاهة ، تغوى ذويها بارتكاب الدنايا ، وقد لا ينزعون منها على عجل .

على أن الإيمان فى نفوس هؤلاء يعانى ـ لا ريب ـ أزمات عنيفة .

وبقاؤه أو انتهاؤه ، مرهون بمدى ما يصل إليه العاصى من بُعْدٍ عن الله ، واستمراء للخطايا .

ومهما عصى المسلم ، فهو بين توبة سريعة تطهره ، أو توبة مضمرة يستنيم إليها ، ويرتبط بالإسلام على أساسها .

ومصاير أولئك الذين يتدنسون بالمعاصى ، ويرجئون المتاب منها ـ مع الإحساس بالخزى وتوقع العقاب ـ مجهولة!

لأن إلحاح المعاصى على القلب قد يزهق الإيمان ، ويرد المسلم إلى الكفران .

كما يلح المرض الخبيث على الجسم ، فينزع منه الروح ويتركه جثة بالية .

وأيـاً ما كان الأمر ، فإن رباط المعاصى بالإيمان واه . .

ونستطيع أن نقول : إنه باق ، إلا يوم يقترف الجريمة مفتخرًا ، أو يترك الفريضة مستهزئًا .

فإنه يومئذ ينسلخ عن الإسلام ويحكم بارتداده .

وليس يتصور هذا فى مؤمن .

فإن المؤمن إذا لم يكن ذا عزيمة فى الخير ، فلن يكون ذا عزيمة فى الشر ، تجعله يبارز الله بالمعصية ، وهو وقح صفيق!

وقد بين الله فى كتابه أن المعصية التى تقع من الموسومين بالإيمان ، إنما تصدر عن جهالة (أى : عن طيش ، وضعف ، وغلبة ، وشهوة ، وضعة همة) :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ .

(النساء : ١٧ ، ١٨)

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

(الأنعام : ٥٤ ، ٥٥)

إن صلة الطاعات والمعاصى بالإيمان لا يجوز نكرانها .

فالأولى أغذية ينمو بها ويزدهر .

والأخرى سموم يضعف بها ويذوى .

وقد أبان الله عز وجل ـ أنه ما من شخص يدعى الإيمان إلا فحصت نفسه بألوان التكاليف ، وبليت بمراتب شتى من الجهاد ، جهاد الشبهات ، وجهاد الحياة والمبادئ .

ولابد أن يجتاز الشخص هذا الامتحان ، ليحكم بعدئذ بنجاحه أو سقوطه ، ولن يترك الإنسان سدى .

ولن يغلب العصاة ربهم بإيمان مزعوم وكفران مكتوم .

والتكاليف التى شرع الله لعباده هى الطليعة الأولى للفتن التى تقتحم النفس ، وتكشف دخائلها .

ولن تزال هذه الفتن تسبر أغوار الإيمان ، ومدى صلابته ، ومدى استعداد صاحبه للنعيم أو للجحيم ، أو لهما معًا ، حتى يرجع الإنسان من حيث بدأ ، إلى الله .

﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(العنكبوت : ١ ـ ٤) .

ومصير المرء لا يحدد بمعصية واحدة ولا طاعة واحدة .

فالأجل طويل والتكاليف متجددة ، والأمر أعقد من أن نصدر بصدده حكمًا عامًا .

وفى الحديث : «**تُعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا ، فأىُّ قلب أُشربَها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تعود القلوب على قلبين :**

قلب أسود مُرْبَادًّا كالكوز مُجَخِّيًا (مكبوبًا) **لا يعرف معروفًا ، ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشْرِب من هواه . وقلب أبيض لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض**» .

وهذا الحديث يبين : أن المعاصى منازل ومزالق ، يسلم بعضها إلى بعض ، وأن الإيمان يتأثر بما يعرض للقلب من أحوال .

فهناك قلوب أقفرت منه تمامًا- بإدمان المعاصى واتباع الفتن .

وهناك قلوب فى طريقها إلى البوار لَمَّا تُقْفِرْ بعد ، وتوشك أن تصل .

وهناك قلوب بين طريق الخير ، وطريق الشر ، تتأرجح ناحية اليمين أو الشمال .

والحديث يشبه عرض الفتن على القلوب شيئًا فشيئًا ، كعرض عيدان الحصير ، على الخيوط التى تنتظمها شيئًا فشيئًا .

وقسم القلوب عند عرضها عليها قسمين :

قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها ، كما يشرب الإسفنج الماء ، فتنكت فيه نكتة سوداء ، فلا يزال يشرب كل فتنة عرضت عليه حتى يسود وينتكس ، وهو معنى قوله «كالكوز مجخيًا» أى منكوسًا .

فإذا اسوَدَّ عرض له من هذه الآفات مرضان خطيران ، يتأديان به إلى الهلاك :

أحدهما : اشتباه المعروف عليه بالمنكر ، فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا .

وربما استحكم فيه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا .

وثانيهما : تحكيم هواه فى ما جاء به الشارع ، وانقياده لهذا الهوى حيثما ترامى به .

أما القلب الآخر ، فهو أبيض أشرق فيه نور الإيمان ، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها ، فازداد نورًا وإشراقًا .

وفى أحوال الإيمان مع الفتن والمعاصى ورد- كذلك- عن النبى ﷺ : « **إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقُل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه**» .

وهو الرَّانُ الذى قال الله فيه : ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ** ﴾

(المطففين : ١٤ ـ ١٦)

بين التوبة والعِصمة

من حقائق التربية النفسية أن الإنسان خطّاء ، وأن الغلط مركوز فى طبيعته ، يجرى فى عروقه مع الدماء ، وأن الله لم يكلف أحدًا بالعصمة المطلقة!! إنما كلف الإنسان إذا أخطأ أن يثوب إلى رشده .

وإذا بدرت منه زلة أن يراجع تفكيره .

وإذا زلقت قدمه ، فكبا ، أن ينهض من كبوته ، وأن يزيح عنه ما علق به ، ثم يستأنف طريقه إلى غايته المنشودة .

ويظهر أن نفس الإنسان كجسمه ، كلاهما يحتاج إلى تطهير دائم .

لأن كليهما ينضح من داخله ، ويتعرض من خارجه ، لما يضطره إلى مداومة الغسل ومتابعة النظافة!

ففى البدن غدد وأجهزة دائبة الإفراز .

وجو الأرض التى يحيا عليها يكسوه أبدًا بالغبار والأكدار .

فكان لابد ـ لعافية الجسد ـ من إزالة هذه الأدران كلها .

والنفس الإنسانية كذلك ، تهفو إلى السيئات ، وتنزع إلى الشرور ، وتتعرض فى مخالطتها الآخرين إلى ضروب من الفتن والمغريات المحرجة .

وهى بحاجة إلى توبة متجددة متكررة ، تمسح عنها هذه الأكدار ، وتمحو هذه الآثار .

مثلما يحتاج الجسد إلى أنواع الغسل وضروب المطهرات .

وإلى هذا يشير القرآن فى قوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ **(البقرة : ٢٢٢)**

وقد كان الرسول ﷺ يجدد التوبة إلى الله بين لحظة وأخرى ، ويقول : «**توبوا إلى الله فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة**» .

ومدح القرآن الأنبياء بهذا المعنى :

فقال عن سليمان عليه السلام : ﴿ **نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ (ص : ٣٠) .

ووصف المؤمنين بأن الله ينقذهم من أوضار الشهوات ، وظلمات الأهواء ومفاتن الحياة ، ساعة بعد ساعة ؛ لأنهم- ما داموا أحياء- معرضون لها فى كل حين .

وهذا ما يوحى به نظم الآية الكريمة : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** ﴾ (البقرة : ٢٥٧)

على أن الأخطاء الصادرة من الناس تتفاوت تفاوتًا كبيرًا .

فما يعتبر صوابًا يصح صدوره من إنسان ، يعتبر خطأً لا يسوغ صدوره من إنسان آخر .

وَيَخْتَلِفُ الرِّزْقَانِ وَالْفِعْلُ وَاحِدٌ إِلى أَنْ يُرَى إِحْسَانُ هَذَا لِذَا ذَنْبَا

وهذا معنى عبارة المتصوفة : «**حَسَنَاتُ الأبرَارِ سيِّئَاتُ المُقَرَّبِين**» .

والغرض من سوق هذه الحقيقة ، أن نحسن الانتفاع بها فى ميدان التربية النفسية انتفاعًا نعالج به غلطات العصاة ، وأخطاء المتهورين .

إن القالة الخبيثة التى شاعت بين المسلمين ، توهمهم أنه لا يضر مع الإيمان معصية ، لا أصل لها ، وهى ـ فضلاً عن أنها أفسدت حضارتهم ، وأسقطت دولتهم ـ أضرت بالإيمان ـ كوازع خلقى وحصانة اجتماعية ـ أبلغ الضرر .

وقبل ذلك أضرت بالإيمان ، كفكرة تنير العقل ، ويقين يملأ الصدر ، فمحقته محقًا .

ولسنا نزعم أن كسب سيئة يرد المؤمن كافرًا فى طرفة عين ، فقضية الإيمان أخطر من ذلك!

ولكننا نؤكد أن القلب إذا أحدقت به السيئات ، وترادفت عليه الفتن ، وطال عليه الأمد ، وهو بين ظلمات معتمة ، لا يخرقها بصيص من متاب .

هذا القلب ينفلت منه الإيمان رويدًا رويدًا ، حتى يطمس بهاؤه ، ويرتد صاحبه إلى جاهلية نكراء .

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ **بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ (البقرة : ٨١) .

فإن إحاطة الخطيئة بالفاسدين ، تتأتى على مر الليل والنهار ، وهم يتقلبون فى مهاد الخزى والعار ، فهيهات أن يكون لهم إلا النار وبئس القرار .

أما تفسير كلمة «سيئة» فى الآية بأنها الشرك وعبادة الأصنام ، فلا معنى له ، فإن سياق الآية فى مخاطبة أحبار اليهود ، واستعمال اللغة ، واصطلاح الشارع ذلك كله ينفى هذا التأويل الذى لا مبرر له .

مِنْ مُخلَّفات حَرْب الجدَل

هذه صورة خلَّفها الجدل المحض ، وثار النزاع فيها نظريًا لا أثارة فيه من رعاية الواقع ، أو استقراء أحوال المؤمنين على ضوء التجارب الصادقة !

قالوا . . ثم اختلفوا فى الإجابة : ما حكم المسلم الذى يصر على المعصية؟

قال بعضهم : كافر .

وقال آخرون : بل مسلم ، ولا تضر مع الإيمان معصية!

وقال غير هؤلاء وأولئك : بل هناك منزلة بين المنزلتين!

وانقسم المسلمون فرقًا متقاتلة لهذا الاختلاف الذى يرجع فى أساسه إلى التلاعب بالألفاظ ، والنزوع إلى المراء ، والتعلق بالجدل .

والحق أن هذا السؤال لا يجوز إيراده ، فهو غلط ظاهر فى فهم طبيعة الإسلام .

إن كلمة «إصرار» تعنى توجه الإرادة وانعقاد العزم ، وتقدير النتائج المستقبلة ، والسيطرة على البواعث والأساليب المقارنة للعمل .

أى : إن الإصرار مبارزة لله بالعصيان ، على نحو مقرون بالتحدى وعدم الاكتراث ، وذلك لا يتصور فى مسلم قط!

نعم قد يعكف بعض الناس على معصية ما ، لانهيار فى إرادتهم ، وجماح فى شهوتهم .

وهذا الانكسار فى القوة الإيجابية الدافعة إلى الخير ، لا يُسَمّى ما ينشأ عنه إصراراً على الشر .

إذ إن المسلم الذى يقارف ما لا يليق ، لا ينفك عنه شعور قوى أو ضعيف ، بالخزى والمعرَّة .

أما يوم يصل إلى الحال التى يُقبل بها على الكبائر وهو مسرور باسم ، ويترك معها الواجبات وهو مستريح هادئ ، فهو اليوم الذى يتبخر فيه الدين من القلب ، ولا يبقى له بالإسلام سبب ولا نسب .

وهذا الشعور المفروض فى المسلم ـ إذا سقط فى كبيرة ـ هو نواة التوبة المعجلة أو المؤجلة التى تربط الرجل بالإيمان أى رباط .

فإذا غاض هذا الشعور ، وانفصم ذلك الرباط ، فأى إيمان يبقى بعد!

رُوىَ عن النبى ﷺ : **«مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس فى آخيته ، يجول ثم يرجع إلى آخيته ، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع»** .

وروى : «**المؤمن واهٍ** (مذنب) **رَاقِع** (تائب مستغفر) **فسعيدٌ من هَلك على رَقْعِهِ**» .

والإصرار حالة تتولد بعد مراحل متطاولة ، من إلف المعصية ، وموت الشعور بما فيها من نكر .

وجذور الإيمان ـ مع الولوغ فى المآثم ـ تنقطع جذرًا جذرًا ، ما لم تُتَدارَكْ بمتاب .

والبحث فى هذا الموضوع تتكون النتائج فيه بالملاحظة والاستقراء ، لا بالتلاعب والمراء .

وإليك طائفة من الحقائق المقررة فى علم الأخلاق ، تستطيع فى ضوئها أن تتبين ملابسات الأعمال المنكرة ، ومراتب مقترفيها ، والحكم على أنواع الجرائم والمجرمين ، والذى قربها أو بعدها من الإيمان والكفر .

ذكر الأستاذ محمد يوسف موسى ـ رحمه الله ـ فى كتابه «مباحث فلسفية فى الأخلاق» درجات التوجه والتنبيه عند الكائنات المختلفة .

فسمى امتداد جذور النبات إلى أدنى طلبًا للغذاء ، وامتداد الأغصان والفروع إلى أعلى طلبًا للضوء والهواء ، سمى ذلك «حاجة» .

وسمى تطلع الحيوان إلى ما به قوام حياته ، وإدراكه المحدود لمقومات وجوده ، دون شعور بالغاية المترتبة على تحصيلها ، سمى ذلك «شهوة» .

ثم قال : «نرتقى بعد ذلك للإنسان فنجده يسعى لما يحتاج إليه ، وهو شاعر تمامًا به ، متصور اللذة التى تعقب وجوده ، والألم الذى ينتابه لفقده» .

وذلك ما يميزه عن الحيوان ، ويسمى ذلك فى الإنسان «ميلاً» .

ويعرف«الميل بأنه توجه من الإنسان لشىء متصور بوضوح مع إدراك الغاية المترتبة عليه ـ وباختلاف غايات الناس اختلفت ميولهم .

هذا غايته الشهرة ، وذاك غايته السيادة ، وغيرهما الغنى ، وهكذا .

وكل طائفة متشابهة من الميول ، تدور حول غاية واحدة تسمى «عالمًا» ، ومنها تنشأ الرغبة .

فإذا تغلب ميل من هذه الميول على سائر الميول المتشابهة التى تدور معه فى محور واحد ، وسيطر عليها ، كان ذلك ما يسمى بـ «الرغبة» .

فإذا فكر فيما يرغب فيه ، ورآه ممكنًا ، ليذلل ما قد يكون بينه وبين نيله من عقبات ، ثم أجمع أمره عليه ، ارتقى ذلك الاتجاه فسمى «إرادة» .

والفرق بين الرغبة والإرادة ، يتضح من أن الرغبة قد لا يتلوها العمل المثمر . . . ربما رغب المرء فى أمر يستحيل الحصول عليه .

أما الإرادة فلا تتكون إلا حيث يتروى الإنسان فى الأمر ، ويزن جميع الظروف والملابسات .

ثم بعد ذلك يراه ممكنًا فيعزم عليه .

وبهذا يعقبها العمل الذى إذا اعتيد صار خلقًا .

ويظهر من هذا الخلق عادة للإرادة ـ وليس مجرد الإرادة ـ أن الإرادة تَغَلُّبُ عالم من قوى النفس على غيره . .» انتهى باختصار .

فالإصرار على الكبائر ـ فى ضوء هذه الحقائق النفسية المقررة ـ هو نتيجة لمقدمات طويلة ، وأطوار يتولد بعضها من بعض فى نظام مرتب دقيق .

فإذا علمنا أن التدنس بخطيئة عقب ميل مفاجئ ، أو رغبة جامحة يوقع الإيمان فى مأزق خطير ، ويصيبه بجرح عميق ، ما لم يندمل هذا الجرح بتوبة .

وسمعنا قول النبى ﷺ : «**لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**» .

فكيف بإيمان ترادفت عليه هذه الجراحات الدامية ، من آثار الذنوب الفاجرة؟! كيف تكون حال هذا الإيمان ، إذا اقترن به الميل إلى الجريمة ، ثم ارتقى هذا الميل إلى رغبة ، فإرادة ، فعزيمة صادقة ، فخلق معتاد ، فإصرار بالغ!!

هيهات هيهات أن يكون له بقاء إلا فى أوهام المجادلين والعابثين بعلم الكلام . على أن للإصرار على الكبائر طبيعة يجب أن تعرف .

فهو لا يمد سحابة الشر حتى تغطى وجه الإيمان الجميل فحسب! بل يرسب بسوءاته فى النفس ، فيحول بينها وبين فعل أى خير ، وتقديم أى بر .

فليس المصر رجلاً من النوع الذى قال القرآن فيه : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٠٢)

كلا ، فمعنى الإصرار على الشر أن ينابيع الخير جَفَّتْ تمامًا فى الضمير فلن يرشح بخير قط .

ومن ثَمَّ استقر الأمر فى علم «الأخلاق» على أن الاتجاه المائع الذى تتأرجح فيه النفس لا يسمَّى خلقًا .

ويقول الأستاذ «محمد يوسف موسى» :

«لا يصح أن نقيم وزنًا للرأى القائل بأن الخلق أمر نسبى ، بمعنى أنه يحكم على المرء بالميل الذى يغلب عليه .

فمن غلب عليه حب الإعطاء ، وأعطى كثيرًا ولم يبخل إلا قليلاً ، كان كريمًا . وكذلك الصدق والكذب وسائر الفضائل والرذائل .

لا يصح أن نقيم وزنًا لهذا الرأى ، ذلك أنه مما لابد من ملاحظته فى الخلق : الرسوخ ، والثبات لحالة نفسية معينة ، حتى تعطى ثمرتها من الأعمال باستمرار .

ويؤيد هذا ما ذكره «ماكيزى» فى كتابه «الأخلاق» :

«إنه لابد لتكوين خلق من ثبات عالم من العوالم ـ يعنى المشاعر النفسية ـ أما مجرد باعث خير ، أو غرض نبيل فى حياة الإنسان ، فلا يكفى لجعله فاضلاً» .

وتطبيقًا لهذه القاعدة الخلقية فى محيط الإيمان ، يجعلنا نجزم بأن الإيمان الكامل يقتضى العمل الصالح وجوبًا ، وينقص الإيمان كلما نقص العمل .

فإذا لم نجد إلا شرًا محضًا جزمنا بأن ظل الإيمان قد تقلص .

ولذلك قلنا : إن الإصرار ـ بمعناه الشامل ـ لا يتم فى نفس مؤمنة أبدًا .

***

وإذا أحصينا النصوص الواردة ، والتفاسير الصحيحة لها ، وجدنا أن الشرع الشريف ، يهتم بالبواعث المقارنة للعمل اهتمامًا شديدًا ، ويبنى الحكم على الإيمان والجزاء ، بعد التأكد من الحالات النفسية التى لا ينفك عنها عمل ، والتى ينقطع العمل أو يتكرر لارتباطه بها .

قال ابن قتيبة شرحًا لقوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾(طه : ١٢١) .

يجوز أن يقال : عصى آدم . ولا يجوز أن يقال عاص ؛ لأنه إنما يقال لمن اعتاد فعل المعصية .

كالرجل يخيط ثوبه ، يقال له : خاط ثوبه ، ولا يقال : هو خياط حتى يعاود ذلك مرارًا ويعتاده .

فهذه معصية لا يأخذ صاحبها وصفًا يسجل عليه الشر ، ولو أنه فعلها!!

بينما يسجل الإثم وعقابه على شخص آخر لم يفعل الجريمة ، ولكنه عزم عليها .

فعن النبى ﷺ : «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قيل : هذا القاتل ، فما بال المقتول؟ قال : إنه كان حريصًا على قتل صاحبه!**» .

إن للنية المصاحبة مدخلاً كبيرًا فى الحكم على الأخطاء والخطايا .

ولا نحب أن نغفل فى تقديرنا لأثر المعاصى فى الإيمان :

١- أن المعاصى ليست سواء فى تهاوى الناس إليها وبلائهم بها ؛ فجمهور المسلمين فى بلادنا ، لا يطعم لحم الخنزير مثلاً ، ويستغنى عنه فى يسر ولذة بلحوم البقر والضأن .

وجمهور الفقراء لا يلبس الحرير ، ولا يتحلى بالذهب ، فإذا كان لحم الخنزير أو لبس الحرير ـ مثلاً ـ من المناكر التى حرمها الإسلام فإننا نلاحظ أن طبيعة هذه المحرمات تغاير المعاصى القائمة على دسائس الشهوة الجنسية مثلاً ، وما أكثر التعرض لها .

٢- أن هناك بيئات تعين على العصمة ، وأخرى تغرى بالفاحشة .

وقد يوجد أقوام لا يسعون إلى الجريمة ؛ فيبلون بمجتمع دنس يسهل لهم الانزلاق .

وقد يتمنى قوم الشر ، بَيْدَ أنهم يجدون الأبواب إليه موصدة فى بيئة محافظة مصونة مأمونة .

٣- أن درجات السقوط نفسها تتفاوت .

فالذى يهوى من قمة مشرفة غير الذى يسقط وهو يسير ، غير الذى يتردى فى حفرة عميقة .

كذلك السقوط فى المعاصى .

فقد يقارف الشخص الذنب عن ميل عارض وفرصة مواتية .

وهذا غير من يقع فيه عن رغبة ملحة ، وذلك غير من يسعى إليه عن إرادة يقظة .

وهؤلاء غير من يعزم على الفعل ويستمرئ العودة إليه ، ويدأب على ارتكابه حتى يصير فيه خلقًا .

٤- أن الدنايا نفسها حلقات موصولة .

فالكاذب يخون ، والخائن يرتشى ، والمرتشى يهدم المصلحة العامة ويبيع وطنه وشرفه ودينه لأول مساوم .

والسكير يزنى ، والزانى يقتل ، والقاتل يستحيل إلى وحش لا دين له . . . إلخ .

***

والحق أن مدلول كلمة «معصية» فى أفراد الناس وأحوال الحياة ، يتفاوت تفاوتًا واسعًا .

فكما تدل كلمة «سفر» على الرحلة القريبة ، والطواف حول العالم .

وكما تدل كلمة «مرض» على الصداع العارض والحمى المهلكة ، كذلك تدل كلمة «معصية» على طرفين متباعدين .

لا لأن المعاصى تنقسم إلى صغائر وكبائر ، بل لأن الكبائر نفسها ـ بما يكتنفها من مشاعر نفسية ـ ليست سواء .

ومن الخطأ الكبير أن نقول ـ مع المرجئة : إن الإيمان لا تضر معه كبيرة . أو نقول ـ مع الخوارج : إن الكبيرة لا يبقى معها إيمان .

ولعل دقة الظروف الملابسة للمعاصى هى التى جعلت الناظم القديم يقول :

وَمَنْ يَمُتْ وَلَمْ يَتُبْ مِنْ ذَنْبِهِ ... فَأَمْرُهُ مُفَوَّضٌ لِرَبِّهِ..!!

يشير بذلك إلى قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا** ﴾(النساء : ٤٨) .

والآية تشير إلى أن الشرك لا يغفر .

وهناك أمور مساوية للشرك ؛ كجحود الألوهية ، أو الاعتراف بها وجحود أوامرها ، ورفض الانصياع لها .

وما دون الشرك صنوف كثيرة قد تهبط إلى اللمم المغفور ، وقد تفحش حتى تمحق الإيمان كما أسلفنا بيانه . . فلا تكون دون الشرك أبدًا .

وفى الحد الفاحش من المعاصى يساق قوله تعالى :

﴿ **وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ (النساء : ١٤)

﴿ **وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ﴾(الجن : ٢٣) .

وفى الحد الأدنى يقول تبارك وتعالى :

﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾(آل عمران : ١٣٥) .

هل المعصية مرض؟

فى أحيان كثيرة يتجه البحث العلمى إلى اعتبار عوج السلوك وارتكاب المحظورات ظواهر لأمراض نفسية كامنة!

ويفسر وقع الجرائم على أنها أعراض تستوجب العلاج الحكيم، للاضطرابات النفسية والعصبية التى تختفى وراءها . .

وعَدُّ العصيان مرضًا يجب التفكير فى مداواته، قبل عده جريمة تستوجب القصاص من صاحبها، أمر يستحق النظر العميق على ضوء التعاليم التى جاء الإسلام بها!

وقد تسأل : هل المعصية مرض حقًا؟

والجواب أن تعابير القرآن الكريم فى غير موضع واحد تبيح لنا أن نقول : نعم، ففى سورة البقرة وصف النفاق بأنه مرض : ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** ﴾ (البقرة : ١٠) .

ومرض القلب هنا ليس سرعة نبض ولا بطء خفقان بداهة!!

وفى كثير من السور شاع هذا الوصف حتى لقد تكرر فى سورة الأحزاب ثلاث مرات، ويدل اختلاف السياق على اختلاف المقصود به .

ففى النصح لأمهات المؤمنين يقول الله عز وجل :

﴿ **إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾ (الأحزاب : ٣٢) .

والمراد بالمرض هنا ما يتخلف فى نفوس الناس من اضطراب الغريزة الجنسية اضطرابًا يجعلها تطمع فى غير مطمع، ويشرد زمامها حيث يجب أن تقف وتستكين !!

والله عز وجل يريد لنسوة نبيه ﷺ منزلة تعلو على هواجس النفوس .

فلا عجب إذا صانهن عن آخر ما تصل إليه الأمانى المحرمة للنفوس المريضة .

وقد ثبت أن الشهوة الجنسية أساس لعدد هائل من الأمراض الفكرية والعصبية والخلقية!

وفى موقف الضعاف والمترددين عند هجوم الأحزاب على المدينة وإحكامهم الحصار على من فيها يقول القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ (الأحزاب : ١٢)

وقد سبق وصف النفاق بأنه مرض .

وجرثومة هذا المرض تنمو مع ضعف الشخصية وانحلالها .

فترى المرء يلقى هؤلاء بوجه ورأى ، ويلقى أولئك بوجه ورأى ، حتى إذا مرد على ذلك أصبح أخصائياً فى العيش بشخصية مزدوجة .

وقد بلى المجتمع الإسلامى الأول بحزب ضخم من المنافقين كانوا شرّاً عليه من الكافرين الصرحاء .

وهذه الآية قد يكون معناها : وإذ يقول المنافقون الذين فى قلوبهم مرض .

فهى صفات متعاطفة يكشف بعضها خفاء بعض .

أو يكون الذين فى قلوبهم مرض صنفًا آخر من الناس ، أشبهوا المنافقين فى جزعهم من الأعداء ، وجبنهم عند اللقاء ، وشكهم فى أمر الرسول ﷺ وعاقبته فالتحقوا بهم وصاروا لذلك منهم .

والذين تظهر عليهم أعراض يعزلون مع المرضى إلى أن تتميز أحوالهم .

وقد جمعت سورة الأحزاب هذه الأصناف كلها فى قوله تعالى : **﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً ﴾**(الأحزاب : ٦٠) .

وقد جاء هذا التهديد بعد أمر عام لنساء المؤمنين بالاحتشام التام فى ملابسهن ، مما يدل على أن المقصود بالذين فى قلوبهم مرض هم الشبان المتسكعون فى الطرق المتتبعون للعورات .

وتحفظًا من هؤلاء أنزل الله الآية السابقة : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ** ﴾
(الأحزاب : ٥٩)

والأمراض النفسية تتفاوت خفة وحدة ، ويتفاوت معها ما ينشأ عنها من مخالفة للشرع والقانون ، وشذوذ عن العرف والتقاليد الفاضلة .

على أن المجرم مهما كان مريض النفس فلا يمكن إخلاؤه من المسئولية الجنائية وتركه طليقًا دون أية مؤاخذة .

والإسلام ينظر إلى هذه الأحوال المرضية نظرتين مختلفتين .

فهو يضع الحدود والعقوبات التى لابد منها لصيانة المجتمع ، وتدعيم أركانه ، وتقرير فضائله ، والمحافظة على مثله العليا ، والمغالاة بقيمتها وقمع من يستهين بها .

ومن ثم فهو يجلد ، ويرجم ، ويقطع ويقتل .

ولكنه ـ إلى جانب هذه النظرة الصارمة ـ يرسل نظرة عطف إلى المجرم نفسه على حساب أنه مريض .

فهو يحتاط فى الحكم عليه ويجعل القاضى أن يخطئ فى العفو خيرًا من أن يخطئ فى العقوبة ، ويأمر بالدعاء له ، لا الدعاء عليه .

وقد حدث أن جىء بسكير إلى النبى ﷺ ليؤدب على سكره ، فقال أحد الجالسين : لعنة الله عليك ، ما أكثر ما يجاء بك!

فقال ﷺ : «**لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله**» .

وفى رواية أخرى : «**لا تقولوا هذا، ولكن قولوا: اللهم ارحمه، اللهم تب عليه**» .
وهذه النظرة الرحيمة هى التى أوصت بالستر على المخطئ ، وإعطائه الفرصة التى يصلح بها نفسه ، والتشفع له قبل أن يصل الأمر إلى القضاء ، عساه يرجع عن غيه ويبرأ من علته .

وأولى الأمراض النفسية ظفرًا بالرحمة والعطف فى دين الله هى : الأمراض التى تصيب الإرادة الإنسانية فى محاولاتها المتكررة المتعثرة أن تصل إلى الكمال المنشود .

فإن المرء إذا طلب السمو بنفسه عن الدنايا ، لاحقته من طبيعته الأرضية نزعات شتى قد تُزِلُّه عن الخير ، حتى يكاد ييأس من بلوغه ، فتمرض إرادته ويضعف عزمه .

وهنا يتدخل الدين بتعاليمه ليعيد إلى الإرادة صحتها وقوتها ، حتى تسعى بصاحبها إلى الكمال ما دام حيًا .

وفى ذلك الموضع الدقيق من علاج النفس ، تساق أحاديث الرجاء وآيات الرحمة ، والنصوص الكثيرة التى تفتح عينى الإنسان على آفاق بعيدة المدى من غفران الله ورضوانه ، والتى لا تسد منافذ الأمل أمام نفسه أبدًا .

مثل قوله تعالى للعصاة : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾ (الزمر : ٥٣) .

وأمثال هذه البشارات الرحبة يظنها القاصرون ذريعة إلى التقصير فى العمل والاستهانة بالخطأ ، وهذا وهم مغرق فى الضلال .

فما قصد بهذه النصوص إلا تشجيع المجاهد لهواه على المضى فى طريقه ، لا تقفه عثرة ولا تلويه عقبة ، ولا تنكسر عزيمته فى الخير لكثرة ما اقترف من الشر ، ولا يقنط من رحمة الله ـ مهما صنع ـ ما دام يريد استئناف حياة أنقى وأفضل .

وبهذا الضوء تدرك العلاقة بين النصوص الكثيرة التى تجعل العمل كل شىء فى الدنيا حينًا ، **والتى تسوق العفو والمغفرة حينًا آخر على اليسير من الأمور .**

وخير ما نستصحبه فى ملاحظتنا فى أحوال الناس قول عيسى ابن مريم عليه السلام : «لا تنظروا فى أعمال الناس كأنكم أرباب ، بل انظروا فى أعمالكم على أنكم عبيد ، فإنما الناس رَجُلان ، مُبتلًى ومُعافًى ، فاعذروا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية» .

وللإسلام تعاليم إيجابية لكى يكتسب المؤمن منها صحته النفسية ، وعافيته الروحية . ويخطئ من يحسب العبادات التى شرعها الإسلام ضربًا من الطقوس التى تؤدى فى جو من الغفلة السائدة ، والفناء فى مجهول غير مفهوم .

فإن الفرائض الأولى فى الإسلام تقوم على اليقظة العاطفية والعقلية ، وقلَّما تحظى بالقبول إلا إذا تركت أثرًا غائرًا فى القلب واللب!

ومن ثم فالعبادات التى كلف بها المسلم أساس مكين لصحته النفسية .

والحكمة المذكورة فى تشريعها أنها وقاية من الأوضار والأوزار ، وأنها ـ إذا وقع المرء فى خطيئته ـ نظافة تغسل الروح مما لحق به من فتن وذنوب .

وكلا الأمرين ـ من وقاية ونظافة ـ سبيل العافية والبعد عن الأمراض النفسية ، أى : عن المعاصى والسيئات .

إن التعبد بتلاوة القرآن مثلاً ليست الغاية منه ترديد الألفاظ المقدسة ، بل المقصود أن يتصل الروح بالوحى لينتعش ويتطهر ، ويترفع حين يناجى الله عن الإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى .

﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾(الإسراء : ٨٢)

والتعبد بالصلاة منهاة عن الآثام ، ومطردة للوساوس الصغيرة ، ودواء للعصيان إذا مس المرء عارض منه .

ومن الكلمات الحكيمة : «**إذا لم تشغل نفسك بالخير شغلتك بالشر**» . وبهذا المبدأ وقى الإسلام الفرد والمجتمع من أمراض نفسية جائحة .

فإن الفرد العاطل والأمة التى لا رسالة لها مرتع خصب لأخبث الأمراض العقلية والقلبية .

ولو اشتغل المجتمع المسلم بما طولب به من جهاد دائم ، وما كلف به من صلوات جامعة ، لما وجد متسعًا من الوقت لجرائم الفراغ والتبطل ، ولا انحلت عقد كثيرة من تلقاء نفسها فى ميادين العمل السامى إلى الأهداف المرسومة .

وعندى أن كثيرًا من معاصى الأفراد يقع قسط كبير من وزرها على الدولة ؛ لأنها لم ترحم حيلتهم بما يصرفهم عن الموبقات .

إن الأمراض النفسية التى يشرد بها السلوك الإنسانى كثيرة .

ولو استمعنا إلى آراء علماء النفس لما نجا أحد من الاتصاف بعقدة كامنة ، أو لوثة خفية ، أو داء نفسى دفين .

غير أن هناك فارقًا بين أن يوصم المرء بالجنون مثلاً ، وبين أن تصدر عنه أفعال تعد شعبة من الجنون ، ويقال للإنسان ـ إذا صدرت عنه : أما بك عقل؟ وقد قال الله تعالى لأحبار اليهود :

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة : ٤٤)

والأمراض النفسية تتفاوت شدة وضعفًا ، وهى فى بدايتها غيرها فى نهايتها .

ومنها ما تكون الإصابة به كالوباء العام ، ومنها ما يقع فى حدود وظروف ضيقة .

وأكثر الأمراض النفسية شيوعًا ما ينشأ ـ كما ذكر القرآن فى غير موضع ـ عن اضطراب الغريزة الجنسية ، أو عن الشعور الإيجابى أو السلبى بالذات ـ كما يعبر علم النفس .

لهذه الاضطرابات النفسية أطوار ومضاعفات ليس هنا موضع البحث فيها .

ومن مرض الغريزة الجنسية تتولد الجرائيم المسببة للزنى واللواط والسحاق والتعشق الخيالى والتذلل للمحبوب . . . إلخ .

ومن مرض الشعور الإيجابى بالذات ينشأ الفخر والخيلاء والتكبر وجنون العظمة .

ومن مرض الشعور السلبى بالذات تتولد مركبات النقص والتلون والملق ، وقد يكون الإحساس بالضعة باعثًا على الكبر والفخر بشكل حاد مثير .

***

والإسلام ـ كما قلنا ـ يتعهد النفس بالعبادات فيحصنها ضد هذه الأمراض . ويخفف من آثارها إذا أصيبت بها .

ولا يزال يعالجها حتى يشفيها أو يقارب ، على قدر أخذ الإنسان نفسه بالمجاهدة والتربية .

ولسنا ندرى من أحوال الجرائم والمخالفات إلا ظواهر يسيرة .

ولسنا نجرؤ على إصدار حكم عام فى هذه الأمور .

وقد نستطيع تحديد مصاير الناس فى الدنيا بما يظهر لنا أنه إيمان ، أو فسوق وكفران .

أما مصاير الناس فى الآخرة فإلى الله وحده .

والقول بتخليد العصاة فى جهنم ، أو العفو عن بعضهم والتنكيل ببعضهم الآخر

إلى حين ، يقترن بهذه الملابسات التى أطلنا سردها ، ورفضنا إخضاع الحكم فيها للجدل والسفسطة وألاعيب المنطق القديم .

وفى ذلك يقول زميلنا الفاضل الأستاذ إسماعيل حمدى من بحث طويل :

العدل كمبدأ والعقاب كجزء منه ، لا مناقشة فيهما إذن .

ولكن أى المجرمين ينبغى أن يتجرد له العدل؟ وأيهم يعامل بالعدل مع الرحمة؟ وأيهم هو المريض الذى تتجرد له الرحمة التامة؟ إنهم مختلفون بلا ريب .

فصور النفوس أشد تنوعًا من صور الوجوه . والإرادة والوعى ها هنا أساس التنوع والاختلاف .

فامرؤ يقارف الجريمة مريدًا واعيًا يبصر آثارها كاملة ، ويقدر على مجانبتها تمامًا ، ويرتب وسائلها ، ويهيئ ظروفها ، ويستعد لمفاجآتها غير امرئ تتسلط عليه إحدى العواطف الحادة ؛ كالغضب أو الحب أو القرابة ، فيتورط فى جناية مندفعًا إليها اندفاع المنقوص الإرادة والوعى معًا .

وكلاهما غير ثابت ، أعوزته أسباب القوت فسرق ، أو أسباب النشأة الصالحة والتربية الضرورية فأفسد .

لا حاجة بنا إلى بيان ما يستحقه كل نوع من هؤلاء ، فهذا واضح كل الوضوح .

وإذا كان قضاء البشر لا يأبى الرحمة على من يستحقها كاملة ، ولا العدل على من يستحقه مجردًا ، ولا هما معًا على من يستحقهما معًا ، لأن وضاع القوانين ، والقضاة بين الناس ، لا يضعونها ، ولا يحكمون وهم آلات صماء .

وإنما هم بشر ، فيهم ما فى البشر من صفات يستوحونها .

وتظهر - حتمًا - فيما يضعون وفيما يحكمون ، بل المفروض أنهم من أرقى البشر . فصفاتهم من العدل والنزاهة والعلم بالأنفس وتقدير البواعث والرحمة وما إليها من أرقى الصفات .

والقرآن يتحدث بحديثه الفياض عن صفات لله هى المثل الأعلى ، من علمه المحيط بمن خلق ، وعدله الناصع الذى آثره لنفسه ، وأمر به الناس ، ورحمته الواسعة ، وإحسانه الجميل ، وعفوه السمح .

وهى صفات من الأدب أن نقول إنها غير عقيمة ، أو غير سلبية ، أو غير موقوتة بهذه الحياة الدنيا .

فنحن ـ بهذا القول ومثله ـ نقدرها حق قدرها ؛ لأنها صفات إلهية ، فهى عاملة دائبة ، وهى مباركة متصلة ، تتناول الدنيا والآخرة .

ومعاملة الله للناس فيما يشرع لهم وفيما يقضى بينهم ، لابد أن تكون مظهرًا تظهر فيه هذه الصفات ، ومجالاً تبدو فيه آثارها الجميلة .

فالظروف المخففة التى تقضى باستعمال الرأفة ، كما يعبر رجال القانون ، والبواعث المحزنة التى تثير فى القاضى عواطف الطبيب الرحيم ، كما يكون لها تقديرها عند البشر يكون لها كذلك تقديرها عند الله .

والله أمن وأفضل ، وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض .

إن الإيمان يستلزم العمل كما يستلزم النهار الضوء .

وقد يثور فى رائعة النهار غبار يحجب الأفق ، أو تتكاثف غيوم تملأ الأرض بالظلام .

بيد أن ذلك لن يرد النهار ليلاً ؛ إذ هو عرض زائل ، طال أمده أم قصر ، فلن تلبث أشعة الشمس أن تغمر الأرجاء بالدفء والضياء .

كذلك نور الإيمان قد تحجبه إلى حين غيمة من شهوة عارضة ، فتغيم جوانب النفس حتى لا يكاد المؤمن يرى النهج ، ثم يعمل الإيمان عمله ، فإذا الأمر كما قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾(الأعراف : ٢٠١) .

أما الظلام المطبق للمعاصى الدائمة ، فذلك حيث يخيم ليل الكفر ، وتغيب شمس الإيمان ، ويفقد المرء حاسة البصر تمامًا ، فهو لا يعرف لله طريقًا :

﴿ **وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾(الإسراء : ٧٢)

إن قصة الخليقة الناجية كما مثلها أبونا آدم «خطأ ومتاب» .

وقصة الخليقة الهالكة كما مثلها إبليس «جريمة وإصرار» .

فاختر لنفسك ما يحلو ، وليس الحساب من مغالطات المنطق والتلاعب بالنصوص ، ولكنه إلى الله . . وكفى بالله حسيبًا .

خلافات لا مبرّر لها

إذا نشب خلاف على مسألة ما بين علماء مخلصين ، فإن هذا الخلاف لن يطول أجله .

وإذا قدر له أن يطول ، فلن يترك فى النفوس حقدًا ، ولا فى الصفوف صدعًا . . وإذا حدث من ذلك شىء فلابد أن يكون لأسباب مصطنعة بعيدة عن دائرة العلم ، أو عن دائرة الإخلاص ، أو عن كلتيهما جميعًا .

وقد لمحت وراء كثير من ضروب الخلاف ، أشياء كثيرة تغاير البحث المنزه فى العلم ، والإخلاص المجرد للحق .

ولو ماتت أهواء النفوس ، وشهوات الغلب ، وامحت الأغراض الدخيلة من وراء إعلاء رأى ونشر مذهب ؛ لَبادت عشرات من الفرق يوم ولدت ، أو لبقيت فى نطاق لا يعدو صفحات الكتب وحلقات الدرس ، كآراء تشتجر فى ميدان النظر الحر ، وتنتهى ضجتها بانتهاء النقاش فيها .

إن سعة العلم تلد رحابة الأفق ، وإن حسن النية يلد رحابة الصدر ، وإن الإيمان المحض يلد الحفاظ الدقيق على وحدة الأمة .

فأنى يتسرب الشقاق إلى دين يقوم على هذه الحقائق؟

ومن ثم حسم الله عز وجل صلة أتباع الهوى وهواة التفرقة بصاحب الرسالة العظمى ، فليس منهم وليسوا منه .

وسوف يلقون جزاء صنيعهم يوم ينقلبون إلى الله العليم بذات الصدور .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾(الأنعام : ١٥٩) .

وقد تسأل : لكن المسلمين اختلفوا فرقًا كثيرة ، وقد اشتغلت هذه الفرق بالجدل قرونًا طويلة ، فكيف يتفق هذا الواقع مع المبادئ التى مهدتها ؟؟

ونحن لا نبالى أن ندفع بالحق المجرد من تنكَّبوا سبيله .

فإن بعض الآراء التى ظهرت بها هذه الفِرَق حدث مثله فى العصر الأول بين فقهاء الصحابة ، وظل على هامش المجتمع الإسلامى فلم يَعْدُ قدره ، ولم يثر تعليقًا يذكر .

***

خذ مثلاً رؤية الله فى الدار الآخرة ، فإن هذه المسألة تطاحن عليها المعتزلة وأهل السنة ، وتنابزوا بالألقاب ، وملأوا بها المحافل والأسواق!!

مع أن هذه المسألة ثار حولها كلام خفيف فى المجتمع الأول؟ ثم مر ولم يعقب شحناء ، ولا بغضاء .

كان ابن عباس وجمهور الصحابة يجيزون الرؤية ، ولهم فى ذلك أدلة ، وروى أن الرسول ﷺ - رأى ربه ليلة عرج به .

وكانت عائشة تقول : لم ير رسول الله ﷺ ربه .

قال مسروق : قلت لعائشة : يا أماه ، هل رأى محمد ﷺ ربه؟

فقالت : لقد قف شعر رأسى مما قلت ، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب؟

من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت ﴿ **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾(الأنعام : ١٠٣) .

ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ، ثم قرأت : ﴿ **وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ** ﴾(لقمان : ٣٤) .

ومن حدثك أن محمدًا كتم أمرًا فقد كذب ، ثم قرأت :﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾(المائدة : ٦٧) .

ولكنه رأى جبريل فى صورته مرتين .

وعن أبى ذر قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك؟ قال : «**نُورٌ أَنَّى أراه؟**» .

والتوفيق بين هذه الآراء المتقابلة سهل .

وقد مر بها الصحابة الأولون فلم يجدوا ما يحبسهم عندها ، ولا ما يقيد أفكارهم بإزائها ، ولا ما يشغل العوام بالخوض فيها ، أو الخواص بالتخاصم عليها ، حتى جاءت - بعد - أيام الفراغ والهزل ، فتألفت فرق للمتاجرة بهذا الخلاف . . وإليك مثلاً آخر .

يرى ابن عباس وزيد بن ثابت وابن مسعود أن قاتل النفس متعمدًا لا توبة له ، ويستشهدون بقوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾(النساء : ٩٣) .

روى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : ألمن قتل مؤمنًا متعمدًا من توبة؟ قال : لا ، فتلوت عليه الآية التى فى الفرقان :

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ .... إِلاَّ مَن تَابَ ﴾(الفرقان : ٦٨ ـ ٧٠) فقال : هذه آية مكية نسختها آية مدنية .

وقيل : إن آية الفرقان نزلت فى قوم اقترفوا هذه الذنوب قبل إسلامهم . قال ابن عباس : **«فأما من دخل فى الإسلام وعقله، ثم قتل فلا توبة له»** .

وروى مثل ذلك عن زيد وعبد الله بن مسعود .

وجمهور الصحابة يرى أن للقاتل توبة ، وأن القتل ليس أشنع من الكفر ، والله يقول لنبيه :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾(الأنفال : ٣٨) .

واختلاف الأنظار طبيعة البشر ، وقد تفاوتت أحكام الصحابة فى هذا الأمر ، وفى أمور أخرى مشابهة .

ومع ذلك فإن هذا الاختلاف مر على هامش المجتمع ، فما غامت له حياتهم ولا طال فيه لجاجهم .

***

ولكن الخلاف يعظم ويشتد عندما يدخل فى الميدان عنصر غريب على العلم والإخلاص والإيمان .

أى عندما يتدخل حب الرياسة ومكر السياسة وعبث الحكام . .!! عندئذ تتحول الحبة إلى قبة ، وبدلاً من أن يجلس جماعة ليتجاذبوا أطراف الحديث فى سكون ودعة ، إذا أطراف الحديث تشدها أيد مدججة بالسلاح ، من ورائها عقائر تنشق بالغضب والصياح .

وقد افتعلت مذاهب شتى للخلاف ، وأمدتها السياسات الخبيثة بما يزيد الهوة اتساعًا ، ثم توارت على مر الأيام هذه المذاهب ، ولم يبق من خلاف بين المسلمين اليوم إلا ما ترى من أهواء السياسة الدنيئة أن تبقيه أبد الدهر ، وهو الخلاف بين الشيعة والسنة !!

وقد اشتعلت خلافات فى مسائل العقيدة ثم انطفأت ، ونشبت خلافات أخرى فى فقه الفروع ولم يهتم المسلمون لها .

ولو حققت ما يقسم فريقًا من المسلمين اليوم إلى سنة وشيعة لما وجدت شيئًا ذا بال . ولكن عصبيات الأسر ، ومنافع الأحزاب ودنيا الرؤساء المفتونين ، وسذاجة العامة المغلوبين تريد لتبقى هذه الوقيعة فى صفوف الأمة الواحدة كى تعيش باسمها!!

***

هل سمعت أن حزبًا تكون فى «إيطاليا» لتأييد «أنطونيوس» و«كليوباترا» ، وأن حزبًا آخر تألف للدفاع عن «إكتافيوس»؟ وإذا حدث أن هذه المساخر قد تجددت بعد دروس ، ونشرت من أكفانها بعد بلى ، وأن أحزابًا قامت لتسوس إيطاليا الجديدة بذكريات حدثت من عشرين قرنًا ، فماذا يكون حكمك على مثل هذه الأمة المسكينة؟

إنهم يريدون شغل الأجيال الحاضرة بأمر الخلافة الإسلامية ، ومن كان أحق الناس بها منذ أربعة عشر قرنًا مضت ؛ وحكم من لم يستصحب هذه القضية فى حياته المعاصرة!

إن المسلمين اليوم يفعلون هذا المنكر! إنهم يريدون بناء حاضرهم على عقائد تنتزع انتزاعًا من خلافات بالية .

وقد ماتت عشرات من المذاهب المنتحلة بموت السياسات التى رحبت بها وأعاشتها فى حضنها .

وما زالت إلى يومنا هذا سياسة الحكم الفاسد تعمل عملها فى العقيدة الفذة لتجعل من المسلمين الموحدين فرقًا تتنازع على ماذا؟ على الوهم!

وإنى أهيب بالمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يعودوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وألا يسمحوا للمغرضين والطامعين أن يستغلوا تفاوت الأنظار فى أمور يسيرة ليقطعوا ما أمر الله به أن يوصل .

وفى ماضينا عبرة عظيمة ، وفى حاضرنا عبر أعظم .

﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾(ق : ٣٧) .


النبـــوَّات

بين النبوّة والفلسفة

للمعارف المحترمة مصادر معينة لا يعول على ما وراءها .

فإذا كان مصدرها إنسانيًا فيجب أن تنبع من ثنايا المنطق التجريبى أو الرياضى ، كما هو حاصل الآن فى علوم الكون والحياة ، وفيما يتصل بأحوال المادة وشئون الناس .

أما إذا كانت هذه المعارف متصلة بما وراء المادة ـ أى بما يقصر المنطق التجريبى والرياضى عن مناله – فإن الوحى الصادق هو سبيلها الفذة ، ولا يقبل غيره فيها .

ومن ثم فالكلام عن الله وعن صفاته وعن حقوقه ، لا يعتمد فيه إلا ما جاء على ألسنة الأنبياء وحدهم .

وإذا تظاهرت الدلائل على صدق نبى ما ، فإن ما جاء به من عند الله يأخذ وصف اليقين ، وينقطع دونه الجدل .

إن عشرات الفلاسفة والعلماء تكلموا فى المادة وما وراء المادة منذ آماد طويلة . والتراث الذى خلفوه لنا خليط من الصواب والخطأ ، عكف عليه الباحثون فمازوا صحيحه من سقيمه .

ويمكن القول بأن كلام القدامى والمحدثين فيما وراء المادة ينقصه التوفيق لابتعاده عن مناهج الوحى ، ولذا حفل بالنقائض والخرافات .

قال صاحب إخوان الصفا : «إن الأنبياء كلهم مع تباعد أزمانهم ، واختلاف لغاتهم ، وموضوعات شرائعهم ، وافتراق سننهم تجدهم متفقين على رأى واحد ومقصد واحد فيما يشيرون إليه فى دعوتهم الأمم .

أما الفلاسفة فليست شريعتهم واحدة ، ولا دينهم واحدًا ، بل آراؤهم مختلفة وأقوالهم متناقضة ، تورث لأتباعهم حيرة قلما تنجلى غمرتها .

فكيف يرضى العاقل عن مذهب الفلاسفة مع اختلافهم ـ كأنما يكذب بعضهم بعضًا ـ ويعرض عن البحث والنظر فى كتب الأنبياء مع اتفاقها .

إنما ذهل أكثر المتفلسفين عن حقائق الأشياء لعدم معرفتهم كتب الأنبياء وإعراضهم عن النظر فيها ، وقصور أفهامهم عن تصورها» .

هذا فيما يتصل بالمعارف الروحية .

أما الفلسفة المادية فإن اتجاه العلم فى العصور الحديثة إلى البحث المباشر والاستقراء الدقيق أفقد هذه الفلسفات القديمة منزلتها ، وجعل أكثر نتاجها لغوًا .

والحق أن كثيرًا من مذاهب المفكرين ، وآراء الفلاسفة ، ومقالات الأدباء لا تعتمد على ركيزة محترمة من اليقين الراسخ ؛ بل جلها يشبه قصائد الشعراء الهائمين فى أودية الخيال ، أو هى تصوير لمشاعر نفسية خاصة ، ووجهات نظر فى فهم الحياة قد تسلم لأصحابها على أنها نزعات شخصية ، ولكنها لا تقبل مطلقًا فى ميدان العقائد العامة .

والتضارب الهائل بين ثمرات هذا اللون من المعرفة الإنسانية يجعلنا لا نخرج به عن هذا النطاق .

ولو قرأت فلسفة الهنود والرومان والإغريق ، وتطورات الفلسفة الإنسانية عامة فى القديم والحديث ؛ لما تجاوزت بها أبدًا حدود البحث الحائر وراء الحقيقة الغامضة ، وشتى الفروض التى يجافيها الصواب ، ومزيجًا من التحويم الغامض يعلو ويهبط ثم لا يستقر على شىء .

شتان بين هذا القلق وبين المبادئ المحدودة ، والتعاليم الواضحة ، والأفكار المشرقة التى عرضتها الأديان فى بساطة تامة ، كأنما تعرض المبادئ الأولى فى علم الحساب .

إننا لا نقبل من المعارف المادية إلا ما خضع للمنطق التجريبى والرياضى ـ كما قلنا ـ ولا نقبل من المعارف الروحية إلا ما جاء على لسان نبى عرفنا بمنطقنا المادى صدقه ، فأمناه على ما يغرس فى عقولنا وقلوبنا ، وما يرسم لآحادنا وجماعاتنا ؛ لأنا آمنا بأنه مبلغ عن الله ، وما جاء من عند الله فهو الحق المطلق .

أما ماعدا ذلك فهو وهم مريب ، والتعلق به اتباع للظن ، وقد نهانا الإسلام أن نركن إلا إلى اليقين : ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ (الإسراء : ٣٦) .

﴿ **وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ** ﴾

(النجم : ٢٨ ـ ٣٠)

الوحـــى

أما الأنبياء فأساس علمهم الوحى .

هؤلاء الرجال المصطفون من أبناء آدم تتلقفهم العناية من نشأتهم الأولى لتقيهم أوضار الطبيعة البشرية ، وترقى بهم صعدًا فى مدارج الكمال ، وترشح قلوبهم الكبيرة لاستقبال ما يفد به الملأ الأعلى عن حضرة القدس .

فإذا الحكمة تفيض من ألسنتهم ، والأسوة تقتبس من أعمالهم ، والنزاهة المطلقة تقترن بأحوالهم واتجاهاتهم .

والوحى الذى تشرق به المعرفة على قلوب الأنبياء أنواع ومراتب .

يبدأ بالرؤيا الصالحة فى النوم ، ورؤيا الأنبياء ليست من أضغاث الأحلام التى تترجم بها النفس عن رغباتها المكبوتة فى صور مهوشة متقطعة ، كما يحدث لجماهير الناس! كلا ، فإن الكمال البشرى الذى وصل إليه النبيون يجعل قلوبهم يقظة ، ولو نامت أبدانهم ، بعكس الدهماء الذين تنام قلوبهم ليلاً ونهارًا ، فهى فى غفوة لا تصحو منها ، ولو نشطت أبدانهم وراء أغراضها الصغيرة .

أما أفئدة الأنبياء ؛ فكأجهزة الاستقبال المعدة لالتقاط الأنباء فى كل حين ، وكهرباؤها المتألقة تسجل ما يقذف الملك فيها . . ثم لا تلبث أن تذيعه على الناس أجمعين .

وكانت الرؤيا الصالحة أول مطالع الوحى فى حياة محمد ﷺ صاحب الرسالة العظمى :

«أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح» .

وقد ظل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ موصول القلب بالله فى يقظاته وهجعاته إلى الرمق الأخير من حياته .

ومن الوحى عن طريق الرؤيا حدثت قصة إسماعيل ، ونزل الأمر بذبحه :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الصافات : ١٠٢) .

ويكثر أن يكون الوحى إلهامًا - فى اليقظة- بوساطة الملك ، ينضح به المعنى على قلب النبى فيتكلم الحق .

وفى سنة النبى ﷺ أمثلة كثيرة لهذا الضرب من الإلهام ، سواء صرح فيه بخبر هذه الوساطة كما فى الحديث : «**هذا رسول رب العالمين جبريل ، نفث فى روعى أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب**» .

أو طوى ذكر الملك وأرسل الحديث إرسالاً كما فى سنن أخرى .

وقد نزل القرآن كوحى بألفاظه ومعانيه جميعًا . . فعلم منه الرسول ﷺ ما لم يكن يعلم ، وكان حظ جبريل فى ذلك مجرد النقل من لدن الخبير البصير : **﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾** (الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٥) .

وقد ينزل الوحى بتكليم الله مباشرة لعبده من غير وساطة كما تم لموسى .

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ . . . . ﴾ (القصص : ٣٠ ، ٣١) .

وكما حدث للنبى ﷺ ليلة عرج به ـ على رأى طائفة من العلماء ـ بيد أن تكليم الله لأنبيائه أمر لا ندرى كنهه ، وليس على النحو الذى نألفه بين المتخاطبين من تكاشف ومشافهة ؛ بل كما قال الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ (الشورى : ٥١ ، ٥٢) .

والتصديق بمبدأ الوحى ليس مما يتعاظم على العقول إدراكه .

وشبه الماديين حوله تتساقط من تلقاء نفسها ، ما دمنا قد اعترفنا بأن الله حق ،

وأن وجوده فوق الرِّيَب ، وأن له ـ جل شأنه ـ أن يصطفى من عباده من يبلغ عنه مراده ، ومن يتعهد به الأمم الشاردة ويخرجها من الظلمات إلى النور .

وحاجة العالم إلى الرسل ماسة .

فلو تركت أزمة الفكر الإنسانى للاجتهاد المحض ؛ لضل النّاس رشدهم ، ولما اتفقوا على حقيقة واحدة تصلح حالهم ومآلهم .

ونحن ننظر فى تاريخ الأرض القريب والبعيد فلا نجد مثابة تفرغ إليها الشعوب ، وتلتمس فى ظلالها الخير والبركة إلا تعاليم الأنبياء .

هذه التعاليم منها ما يعجز العقل عن ابتداعه لو ترك وحده ، ومنها ما يمكن أن يصل إليه العقل بعد لأْيٍ وبعد تجارب مريرة .

ومع ذلك يكون تصوره له غامضًا ، وفكرته عنه منقوصة .

أحسب أنه لو لم تأتنا رسل من عند الله تعرفنا بوجوده ، لبحثنا عن سر الوجود! وستصل أفكار حصيفة حتمًا إلى الجزم بأن هذا الكون لن يخلقه الوهم ولن ينظمه العدم ، بل لابد من خالق موجود وقدرة منظمة .

ولكن هذه الأفكار الصحيحة ستكون فروضًا قلقة ، وقد تجرفها الآراء المناقضة ، والمذاهب الملحدة .

ولو استطاعت البقاء فإنها ـ فى غيبة الوحى ـ ستكون تخمينات شتى ، يلتبس فيها الحق بالباطل .

ومن ثم فإن بعثه الرسل كانت ضرورة إنسانية لتجنيب العالم متاعب الضرب فى بيداء طامسة .

وقد أدى الرسل واجبهم فى قيادة الفكر والقلب ، وورَّثوا الأجيال المتعاقبة حقائق الإيمان بالله سهلة غضة ، لا تحس وأنت تتناولها من أيديهم الطاهرة بهذا الكلال العقلى المعنت الذى يصاحب دائمًا أفكار الفلاسفة فى تصويرهم لأسرار الوجود .

وكما عرفنا عن طريق الرسل مبدأ الإيمان بالله ؛ عرفنا كذلك الإيمان باليوم الآخر وما يسبقه وما يلحقه من حساب وثواب وعقاب ، عرفنا ذلك على جهة اليقين الجازم! ولولا بلاغ الوحى لعجز العقل المجرد عن فهم النهاية المرتقبة لعالمنا الزاخر .

بلى ، إن المرء قد يرفض التسليم بأن هذه الحياة الدنيا هى كل شىء ، لاسيما وهو يرى الجزاء مبتسرًا فيها .

فكم من الأخيار والأشرار يموت قبل أن يلقى جزاء ما اكتسبت يداه ، وكم من معارك دارت بين الأفراد والجماعات علا فيها مبطلون وهلك فيها مصلحون .

وجور موازين الجزاء فى الدنيا يعلق الأفئدة بيوم تتم فيه النَّصَفَةُ ويتحقق فيه العدل .

بل إن الفطرة ـ فيما تهدى إليه من حقائق ـ تجعل الإنسان يستشعر معنى الخلود ، ويستعد له فى حياته القصيرة بمختلف الأساليب . .

بيد أن رسالات السماء وحدها هي التى كشفت الغطاء عن كل ما قد يثار حول البعث من ريب ، وقدمت للمرء كشفًا مفصلاً بالجزئيات التى سوف يلقاها عقب انتهاء أيامه فى هذه الدار .

وليست وظيفة الرسل هذا الإرشاد العقلى إلى حقائق الحياة فحسب ، بل إن تربية الأصحاب والأتباع على هذه المبادئ من أهم ما جاءوا له .

والتربية (كالذوق) شىء ليس فى الكتب ، إنها ليست حشو الأذهان بالمعلومات ، ولا قيادة الحياة بالأوامر العسكرية .

بل إن التربية الدينية التى تولاها الأنبياء ، كتبوا بها صحائف جديدة فى التاريخ تقوم على إحداث تغير نفسانى عميق يشبه تغير الطين بعد نفخ الروح فيه .

وذعار الجاهلية الذين عاشوا فى باديتهم عبيد شهوات ، ومساعر حروب فاجرة ، لم يتحولوا بين عشية وضحاها إلى حنفاء ربانيين ، يقدمون أنفسهم وذراريهم قرابين للحق . . إلا لأن نفخة عامرة من روح النبوة المقدسة خامرت مواتهم الأدبى فردت عليه الحياة ، وبعثته يدأب ويسعى .

ووظيفة الرسول تقوم على إسداء العون والنصح للفرد والجماعة فى كل ناحية ؛ فهو يسكب من طهارة قلبه على أوضار القلوب فيغسلها ، وهو يشعل من تألق عقله الأفكار الخابية فيضيئها ، ثم يبعثها هى الأخرى لتضىء وتهدى . .

والنبوة فى هذا المضمار لا يسبقها شىء .

ومهما عظمت نتائج الفلسفة فلن تخطو فى هذا السبيل أشبارًا بعد أشبار حتى يدركها العثار!

العصمة

وحياة الأنبياء تحلِّق فى مستوى من الكمال ، لا تهبط عنه أبدًا .

والمؤمن ـ من عامة الناس ـ تتذبذب حرارته فى مدارج الارتقاء .

ويعتبر الحد الأسمى الذى يقف عنده هو مقام الإحسان .

وهو «**أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» .

بيد أن مقام الإحسان ، وهو آخر ما يصل إليه الناس بعد الجهد والمران ، هو المرتبة الدنيا للأفق الذى يعيش الأنبياء فيه ، إذ يستحيل فى حقهم أن يسقطوا دونه .

أما ما يرقون فيه ـ بعد ـ من معانى الصلة بالله فأمر لا ندرك كنهه .

وقد قرر علماء المسلمين أن العصمة واجبة لرسل الله كافة .

فلا يليق أن تصدر عن أحدهم كبيرة ، لا قبل البعثة ولا بعدها .

ولا تصدر من أحدهم صغيرة تخل بالمروءة أو تسقط الاعتبار .

وقد تقع منهم أخطاء يعاتبون من الله عليها ، ويوفقون إلى الصواب فيها ، ولكن هذه الأخطاء لا تتصل بأمور اعتقادية أو خلقية ، مما يعد الوقوع فيه أمرًا شائنًا .

بل مكان ذلك : الأمور التقديرية التى تتفاوت فيها الأنظار عادة من شئون الدنيا وسياسات الأمم .

وقد يعتبر الأنبياء أنفسهم مقصرين فى حق الله ؛ لأنهم أعرف الناس به وبجلال ذاته ، وعظمة حقوقه على عباده ، وبقصور الهمم مهما بذلت عن الوفاء بما ينبغى له .

وإذا كانوا يعدون ذلك ذنوبًا تتطلب الاستغفار ، فليس استغفار الأنبياء عن مثل ما نقارف من خطايا أو نرتكب من سيئات!

وما ورد مما يوهم غير ذلك فإن حقيقته وراء أوهام العامة ، وتفصيل الموضوع فى غير هذا المكان .

المعجـــزة

من حق الناس أن يسألوا كل رجل يزعم أنه مرسل لهم من عند الله : ما دليلك على صدق قولك؟

فإذا قدم لهم الدليل المقنع على صحة رسالته ، قبلوه واستمعوا له .

وقد جاء صالح إلى ثمود يخبرهم بأنه نبى من الله ، ثم يصيح فيهم : ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ** ﴾(الشعراء : ١٥٠ ـ ١٥٢) .

ولكن ثمود ردوا هذا النصح ، وطالبوا صالحًا بالبرهان على أنه ليس شخصًا عاديًا .

﴿ **قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾(الشعراء : ١٥٣ ـ ١٥٦) .

فكان طلب ثمود معقولاً ، ولذلك جاءت الإجابة عليه سريعة .

وكانت الطريقة التى وجدت وعاشت بها هذه الناقة ، خارقة لما تعارف عليه القوم ، ودل محياها على أنه أثر لقدرة عليا لا لقدر الناس المعتادة .

وهذا النوع من الاستدلال يقوم على تفهيم الناس أن الشخص الذى يحدثهم لا يمثل نفسه ، ولكن يمثل رب الأرض والسماء ؛ لذلك يعمل بقوته المطلقة ، لا بقوى البشر المحدودة .

وقد فزع موسى إلى هذا الدليل ، لما كذبه فرعون فى دعواه أنه مرسل من رب العالمين وتهدده :

﴿ **لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ** ﴾(الشعراء : ٢٩ ـ ٣٣) .

وكذلك صنع عيسى عليه السلام ـ عندما عرض نفسه على بنى إسرائيل ، فنبأهم بأنه رسول من عند الله سبحانه وتعالى .

ثم سرد أدلته على رسالته : ﴿ **أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾

(آل عمران : ٤٩)

وقد لوحظ أن أكثر الأمم ـ برغم ما سبق إليها من آيات باهرة ـ لم تستجب للحق ، ولم تسلم بدعوى المرسلين ، لا عن قصور فى الأدلة التى تسندهم بل على عناد وتبجح .

﴿ **الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾

(آل عمران : ١٨٣)

***

والدليل على صدق أية دعوى قد يكون بأمور خارجة ، أو يكون بحقيقتها فى نفسها .

فقد يزعم أحد الناس أنه مهندس ، ويقول : دليلى على ذلك أنى أستطيع السير بقدرتى على الماء ، أو الطير بجناحى فى الهواء .

فإذا فعل ذلك سلمنا له .

وقد يقول : دليلى على ما أقول : أن أبنى - فعلاً - عمارة مدعمة الأركان ، أو أصل بين شاطئين - مثلاً - بجسر متين .

فإذا فعل ، فقد دل بقدرته الهندسية على أنه مهندس يقينًا .

بل قد تستريح النفس إلى هذا الاستدلال أكثر من راحتها إلى البراهين الخارقة الأُوَل .

قال ابن رشد : «إن دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ ليست كدلالة انقلاب العصا حية ، ولا إحياء الموتى ، وإبراء المرضى .

فإن تلك وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلا على أيدى الأنبياء ، وفيها ما ينفع الجماهير من العامة ، إلا أنها مقطوعة الصلة بوظيفة النبوة ، وأهداف الوحى ، ومعنى الشريعة .

أما القرآن فدلالته على صفة النبوة ، وحقيقة الدين مثل دلالة الإبراء على الطب .

ومثال ذلك ، لو أن شخصين ادعيا الطب ، فقال أحدهما : الدليل على أنى طبيب أنى أطير فى الجو .

وقال الآخر : دليلى أن أشفى الأمراض وأذهب الأسقام . لكان تصديقنا بوجود الطب عند من شفى من المرض قاطعًا ، وعند الآخر مقنعًا فقط» اهـ . ملخصًا بتصرف .

والتفاوت بينها واسع النطاق باختلاف البيئات التى ظهرت فيها ، والرسالات التى اقترنت بها .

وقد كان التعويل فى العصور الأولى على الخوارق المادية فحسب ، أما ما تضمنته الأديان من حقائق فكانت منزلته ثانوية .

حتى جاء الإسلام فغض من شأن الإعجاز المادى . . . ونوه بالإعجاز العقلى والقيم المعنوية للرسالات .

وقرر إلى جانب ذلك أن الخوارق التى دعمت بها الديانات القديمة لم تمنع التكذيب بها أولاً ، فلا معنى لطلب التصديق بها آخرًا .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾(الإسراء : ٥٩) .

ومن ثم اتجه تأييد الأنبياء وجهة أخرى .

المعجزة بين الرسالة الخاتمة والرسالات الأولى

جرت سنة الله فى أنبيائه جميعًا أن يؤيدهم بالمعجزات الواضحة ، وأن يسوق بين أيديهم من الخوارق ما يلفت الأنظار ، ويستهوى الأفئدة ، ثم ما يبنى معالم اليقين ، وعناصر الاستقرار ، ودواعى الطمأنينة فى النفوس .

وكانت معجزات الأنبياء شيئًا آخر غير الرسالات التى يبشرون بها ، ويدعون إليها ؛ فطب عيسى غير إنجيله ، وعصا موسى غير توراته .

إلا أن الله شاء أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة شيئًا لا ينفصل عن جوهرها . فجعل حقائق الرسالة ودلائل صحتها كتابًا واحدًا .

وجعل من أصول الدعوة وأساليب عرضها ، البرهان الأكبر لدعوى الرسالة ، والسناد الأعظم لصدق صاحبها .

فآى القرآن الكريم ـ بما تتضمن من دساتير العدالة الخلقية والاجتماعية والسياسية ، وبما تغرس فى الطبائع من آثار الأدب والتربية والاستقامة ـ هى هى رسالة الإسلام ومعجزته .

وأعظم ما فى هذه الآيات أن الفطرة الإنسانية تجد فيها مجالها الحيوى الفذ ، وتجد فى جوها المتنفس الطلق الحر .

ومن ثم كان القرآن كتابًا إنسانيًا ، وكان نبى القرآن إنسانًا كاملاً ، وكانت رسالة الإسلام فى موضوعها وأهدافها إنسانية بحتة .

ولذلك توجه القرآن– مباشرة – إلى العقل البشرى يخاطبه ويفك عنه آصاره ، ويرد له اعتباره .

وأكد القرآن أن أصحاب هذا العقل وحده هم الذين يستطيعون فهمه وتبين معانيه .

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (الرعد : ١٩) .

بل إن أصحاب هذا العقل وحده ، هم الذين يفهمون رسالة الوجود ويفقهون أسرار الكون .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾

(آل عمران : ١٩٠)

فلتكن إذًا معجزة نبى الإسلام عقلية .

ومادام البشر يحترمون عقولهم ، فستبقى لهذه المعجزة قيمتها ، أجل ، ستبقى لهذه المعجزة قيمتها ما بقى العقل أنفس شىء فى الحياة ، وما استلهم الناس عقولهم فى الحكم على الأمور وفى قيادة الإنسانية إلى آفاق الترقى والكمال .

مُقترَحات كافرة

غير أن هذا المنطق لم يكن ليلقى القبول الواجب له عند أعراب الجزيرة ، وبقايا القرون الأولى ، وصرعى الأوهام والخيالات .

إذ كان أقصى ما يفكر فيه هؤلاء أن يشاهدوا خارقًا يقلب البر بحرًا أو الخصب جدبًا .

وعندئذ يلقون السلم ويدخلون فى الإسلام .

ولم يكن شىء من هذا الذى اقترحوه عزيزًا على قدرة الله .

ولكن حكمة الله أبت إلا أن تغالى بقيمة العقل الإنسانى الذى أرخصوه ، وإنه لعزيز على هذه القدرة العليا أن تعطى الإنسان عقلاً يصنع المعجزات ـ إذا ما اعتنى به والتفت إليه ـ ثم تترك هذا الذى أعطت يضيع عبثًا ، وتستجيب لرغبات الجاهلين الذين سفهوا أنفسهم وأفكارهم ، وأبوا تحكيم مشاعرهم وعقولهم ، وطالبوا بمعجزات مادية قليلة أو كثيرة لتصديق نبيهم .

وكان لابد فى معاملة أولئك القوم من سلوك منهج يرغم آنافهم على احترام العقل الإنسانى لمصلحتهم ولمصلحة الأجيال من بعدهم!

ولذلك تقرر أن تكون المعجزة الكبرى لمحمد صلوات الله وسلامه عليه ـ هى هذا القرآن الكريم .

فيه كان التحدى ، وعليه كان الرسول ﷺ يعتمد فى سيرته مع خصومه وأصحابه طول حياته .

ومن بعده ظل القرآن كتاب الإسلام الناطق بدعوته وحجته معًا .

إلا أن الحكمة الإلهية اقتضت أن تبث فى طريق الرسول ﷺ أنواعًا من الخوارق التى أُيِّدَ بها النبيون الأولون ، فجاءت هذه الخوارق تحمل طابعًا خاصًا ينبغى أن نعرفه حتى لا نتجاوز به حدوده الصحيحة . . هذه الخوارق ثانوية الدلالة فى تصديق النبوة والشهادة لها .

والطريقة التى أرسلت بها من عند الله تشير إلى أن الحكمة الإلهية لم تعلق عليها كبير أهمية ، ولم تغض بها من قيمة المعجزة العقلية التى انفرد الرسول ﷺ بها .

فقد حدثت جملة من هذه الخوارق بين المؤمنين الذين استقر الإيمان فى قلوبهم فعلاً ، والذين سبق لهم تصديق النبى ﷺ فى دعوته لأنهم أعملوا عقولهم واحترموا إنسانيتهم . وحدث بعض آخر أمام أعين الكافرين .

بيد أن الصورة التى تم بها تثير الدهشة .

إذ كانوا يقترحون معجزة فتأتيهم أخرى ، أو يأتى ما يقترحون بعد سنين طوال ، وعلى وجه يبدو منه أن إجابتهم إلى ما طلبوا لم تقصد أصلاً .

وربما تهمل مقترحاتهم كلها ، فلا ينظر لها قط .

فما معنى ذلك؟ وما السر فيه؟

حقيقة الإعجاز المادى

بين الله عز وجل – أنه فصل فى كتابه أسباب الإيمان وأسانيد النبوة كافة ، ولكن الناس أبوا الرضا بهذا اللون من الإقناع .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ .

(الإسراء : ٨٩)

وماذا بعد أن كفروا؟

طلبوا أشياء معينة ، زعموا أنها ـ وحدها ـ هى التى تدعوهم إلى الإيمان .

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ ... إلخ﴾

(الإسراء : ٩٠ ـ ٩٢)

ودعك من المطالب التى أملاها العناد والسخف من سلسلة هذه المقترحات الطويلة ثم تأمل .

أتفجير ينبوع من الأرض ينظر إليه البشر على أنه عمل تنزل قوى من السماء لإتمامه؟ فما هو إذًا عمل القوى الإنسانية؟

إن المرء فى طفولته يعتمد على أبيه دائمًا فى جلب كل خير وإتمام كل عمل ؛ أفليس من حق الأب إذا رأى ابنه جاوز الطفولة أن يضربه على يديه ، ويتركه يتجشم وحده مشقة السعى ، واقتحام المستقبل ، وتحمل أعباء الرجولة؟

هكذا صنع الله مع عباده ، لقد أرضى الإنسانية فى طفولتها بألوان صارخة من الخوارق ، حتى إذا اشتد عودها واستوى فكرها ؛ تركها لتستخدم مواهبها الفكرية ، ولتتبين الصواب والخطأ .

فإما هلكت عن بينةٍ أو نجت عن بينة .

ويوم أن تعرف البشرية «العقل» فى قبول دين أو رفضه ، فستعرف من تلقاء نفسها كيف تستغل هذا العقل فى تفجير الينابيع وتحويل رمال الصحراء إلى حدائق غناء .

وهذا بعض ما طلب أعراب الجزيرة من رسول الله ﷺ ليصدقوا رسالته!

وقد طلبوا منه أن يرقى فى السماء ، ولكن الله أحب أن يكشف لهم عن سقم البواعث التى توحى بهذه المطالب ، وأن يثير فيهم الإيمان بإنسانيتهم المهدرة ، وأن يرد الحرمة إلى عقولهم المحتقرة ، وأن يعلمهم تكريم البشرية المجردة بالإيمان بنبى البشرية المبعوث لمد ضيائها وبسط روائها .

ولذلك يهتف القرآن عقب هذه المقترحات :

﴿ **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً** ﴾ (الإسراء : ٩٣) .

وقد حدث بعدئذ أن رقى النبى ﷺ فى السماء ليلة الإسراء بعد تقديم هذه الاقتراحات بأمد طويل .

فكان وقوع الارتقاء على هذا النحو دليلاً ناطقًا على أن الحكمة الإلهية لم تكترث قط بمطالب الكفار ولم تعرها أية قيمة .

بل جاء الرقى فى السماء ليلة المعراج مظهر تكريم بحت من الله لنبيه ﷺ !

لم تنزل به الإرادة العليا على رغبة بشر ، ولم يرتب على إيقاعه ما يترتب - غالبًا - على وقوع التحدى من إيمان أو كفران .

بل تركت مسألة اتباع النبى ﷺ أو التخلف عنه موكولة إلى المعجزة العقلية الفريدة معجزة القرآن الكريم :

﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ (الكهف : ٢٩) .

وقد أقسم المشركون مرة أنهم يؤمنون لدى أية معجزة مادية تقع ، كما يضرع الشاب لوالده أن يرضى نوازع طفولته ثم يسمى بعدئذ رجلاً!

فأبى الله إلا أن يردهم إلى أفئدتهم وأبصارهم يتعرفون بها الحق ، ويثبتون بها عليه . فإن معجزات الأرض والسماء لا غناء فيها إن لم يستنر القلب والعقل بما أودع الله فيهما من نور :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . . . ﴾ (الأنعام : ١٠٩ ، ١١٠) .

ويزيد هذا المعنى جلاء ، قول القرآن فى تصوير موقف الكافرين ، وبيان ما انطوت عليه أفئدتهم وأبصارهم من عناد وغباء :

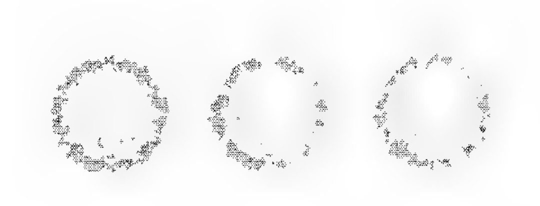
﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (الحجر : ١٤ ـ ١٥) .

فماذا تجدى المعجزات المادية مع هؤلاء؟

وهم إنما ضلوا لاستغلاق قلوبهم وعقولهم .

وهم لو تفتحت قلوبهم لاكتفوا بالقرآن آية لا تعلوها آية ، ومعجزة لا تدانيها معجزة :

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (محمد : ٢٤ ، ٢٥) .



النبى الإنسان

ولئن كان القرآن هو الكتاب الذى يصور للإنسانية آفاق كمالها . إن محمدًا صلوات الله عليه وسلامه ـ هو الرجل الذى حقق فى شخصه ، وفى آثاره أعلى ما تنشده الإنسانية من قبل .

فقد رفع شأن «الضمير» عندما أعلن أن التقوى تستقر فى القلوب الزكية ولا تغنى عنها قشور العبادات ، وثبت قيمة العقل ، وجعله أصل دينه .

وأسس عليه المسلمون حضارة متشعبة الثقافات والفنون ، وصلت ما انقطع من تراث الإنسانية الفكرى ، وكانت البذور المنتجة التى أورثت العالم حضارته الحديثة!

ثم إن هذا النبى ﷺ هو المحور الأول للإنسان ، والمقرر الأول لحرية العقل والضمير . . لقد جعل الكون كله مسخرًا لنشاط الإنسان الذهنى والبدنى .

وجعل الإنسان سيدًا فى نفسه ، سيدًا لعناصر هذا العالم ، عبدًا لله فقط ، فلا سلطة البتة لدهاقين السياسات والديانات .

ونبى الإسلام عربى ، ولكن الدين الذى جاء به لا جنسية له .

وأى جنسية لدين يخاطب العقل حيث كان ، ويبنى أدلته على النظر فى فجاج الأرض والسماوات ؟

بين النبوّة والعبقرية

تاريخ البشر حافل بأسماء الكثيرين من أصحاب المواهب الرفيعة ، والكفايات الضخمة .

وعتهم الإنسانية فى ذاكرتها ، وسجلت لهم فى صحائف الخلود ما قاموا به من أعمال جليلة .

وروت للأجيال آيات مجدهم وآثار نبوغهم لتكون منه عبرة حافزة .

والعظمة قدر مشترك بين ألوف من الناس ، ظهروا فى شتى الأعصار والأمصار ودفعهم امتيازهم المعنوى إلى اعتلاء القمة .

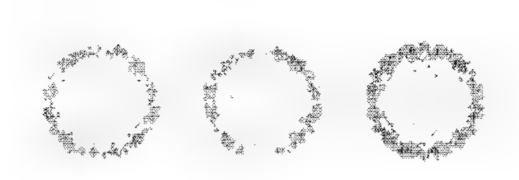
إلا أن العظماء يتفاوتون فيما بينهم تفاوتًا بعيد المدى .

ألا ترى كواكب السماء ونجومها؟ إن بعضها أكبر من الآخر ألف ألف مرة .

ومع ذلك فالدرارى الصغيرة ليست من الحصى والجنادل!

فإذا فحصنا تواريخ العظماء ، وفيهم الأنبياء من مبلغى الوحى ، وفيهم الفلاسفة من قادة الفكر ، وفيهم المخترعون من علماء الكون ، وفيهم الزعماء من قادة الجماهير ، وفيهم الأدباء من حملة القلم ، وفيهم ، وفيهم .

فإن هذا التمحيص وما يستتبعه من موازنة وترجيح ، لا يميل بقدر أحد من أولئك العظماء إلى الحد الذى يهوى فيه إلى منازل السوقة .



العباقـــرة

كثيرًا ما تكون العظمة امتدادًا فى موهبة من مواهب النفس .

بل كثيرًا ما يكون هذا الامتداد على حساب المواهب الإنسانية الأخرى .

فإما أصابها بالضمور والشلل ، وإما رد النواحى الأخرى من شخصية العظيم إلى مثيلاتها فى سائر الناس .

بل قد تكون أبعد سقوطًا وأشد ضراوة .

ومن هنا لا تعدم فى سيرة كل عظيم من أولئك المشهورين نقطة سوداء ، وجانبًا غائمًا .

كان (نابليون) قائدًا محنكًا مسعر حروب ، ولكنه كان ساقط الخلق ، فاحش العذر .

كان (جاك روسو) أديبًا ثائرًا ، من أعظم واضعى دساتير الحرية فى العالم ، ولكنه كان معوج السلوك ، هزيل الشرف .

وكان «بسمارك» داهية فى السياسة لا يبارى ، وكان كذلك كذابًا مزورًا . .

وهناك من الفلاسفة والشعراء والمفكرين والمخترعين من تفجؤك فى أحوالهم وأعمالهم أمور شائنة تستغرب كيف يصدر مثلها عنهم!!

وهم ـ مع هذا كله ـ عباقرة ؛ لأن إنتاجهم العلمى والأدبى ، وتراثهم الرائع الفريد يسمو بهم فوق مستوى العامة .

والذين طهرت سيرهم من هذه الشوائب ، تراهم مبرزين فى ناحية ، ومعتادين فى ناحية أخرى ، أو مرضى بما يفسد عليهم أفكارهم .

فأبو العلاء الأديب الرقيق المتشائم ، لو وهب معدة قوية ، أو بصرًا حادًّا لكان لفلسفته اتجاه آخر غير التبرم بالدنيا ، وتسخط الوجود فيها .

ومن أعظم زعماء العلماء من تراه أسير عقدة نفسية ، أو شذوذ جنسى ، أو أثرة حادة!

ومنهم المصابون بجنون العظمة وتقديس الذات ، وكراهية شىء معين أو محبته ؛ ولذلك تتسم حياتهم بالنقائص الموزعة على جانب مستور منهم ، وجانب مكشوف للجماهير لا غبار عليه .

وقد اعتبرت الحضارة الأوربية هذا التناقض شيئًا عاديًا مألوفًا .

ومن ثم أباحت للعظماء أن تكون لهم شخصية مزدوجة .

ورأت أن تنتفع الأمم بمواهبهم ، وأن تتجاوز لهم سقطاتهم . والإنجليز يعرفون أن «نلسن» مات وهو يختلس عرض غيره ، ولكنهم يغضون الطرف .

ويعرفون أن «تشرشل» خان عهودًا شخصية واجتماعية ، بيد أنهم يتعامون عنها .

فلندع هذا الفريق المعدود من زعماء العالم ولنرتفع .

أجل لنرتفع كثيرًا ، لنصل إلى مستوى أكرم وأطيب ، ولنتكلم عن صنف آخر . . هم :

الأنبيـــاء

لئن كانت العبقرية امتدادًا فى موهبة واحدة ، أو فى جملة مواهب ، إن النبوة امتداد فى المواهب كلها ، واكتمال عقلى وعاطفى وبدنى ، وعصمة من الدنايا ورسوخ فى الفضائل ، وعراقة فى النبل والفضل :

هُمُ الرِّجَالُ المصَابِيحُ الَّذِينَ هُمُ	كَأَنَّهمْ مِنْ نُجُومٍ حَيَّةٍ صُنِعُوا
أَخْلاَقُهُمْ نورهم مِنْ أَيِّ نَاحِيَةٍ	أَقْبَلْتَ تَنْظُرُ فِى أَخْلاَقِهِمْ سَطَعُوا

فالذين يرشحون للنبوة يُصطَفون لها اصطفاء .

قلوب نقية تربطها بالملأ الأعلى أواصر الطهر والصفاء .

وعقول حصيفة ناضجة لا تنخدع عن حقائق الأشياء ، ولا يصيبها ما أصاب كبار الفلاسفة من شرود وعماء .

وأجسام مبرأة من العلل الخبيثة ، والأمراض المشوهة أو المنفرة .

وصلة بالناس قوامها البر والخير .

فليس يتصور فى حق نبى لله ، أنه أخل بحق المروءة والتفضل ، بله أن يرتكب ما يخدش الشرف ، أو يقدح فى العصمة!

ثم إن الرسل أمناء على الوحى السماوى والهداية الإسلامية .

فكلامهم حكمة ، وحياتهم أسوة ؛ سريرتهم وعلانيتهم سواء .

«ليست لأحدهم صفحة مطوية وصفحة مكشوفة» .

طرائق معيشتهم الخاصة كمناهج دعوتهم العامة ، تنضح عفافًا واستقامة .

ظلوا بين الناس ما شاء الله فكانت مجتمعاتهم بركة ، ثم قبضوا فخلفوا أقدس مواريث ، وأقدس تركة .

وحسبك أنهم خيرة الله من خلقه .

﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ (الأنعام : ١٢٤) .

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ (الحج : ٧٥ ، ٧٦) .

وأقدار الرسل تتفاوت سناء وسموًا .

فالرسول فى قبيلة محدودة ، أفضل منه الرسول لمدينة فيها مائة ألف أو يزيدون ، أفضل منه الرسول لشعب بأسره .

وصاحب الكتاب المستقل أفضل ممن يحكم بشريعة سابقة .

ولا نزال نرقى فى مراتب العظمة ، ولا نزال نحلق صعدًا نحو القمة ، ولا نزال نقطع أشواطًا بعد أشواط فى مدارج الكمال البشرى ، حتى نصل إلى مستوى تنحسر دونه أبصار العباقرة مهما طمحت ، وتتطامن عنده أقدار الأنبياء مهما عظمت ، لنجد صاحب الرسالة العظمى إلى خلق الله قاطبة ، ملتقى الفضائل المشرفة ، ومظهر المثل العليا التى صورتها الخيالات ثم صاغها الله إنسانًا يمشى على الأرض مطمئنًا .

ذلكم هو محمد بن عبد الله ﷺ ، وذلكم منزله بين عباقرة الأرض وأمناء الوحى!

أفق للمجد يزهو على كل أفق ، وتسطع فيه أشعة متموجة تنطلق بالحب والحنان والرحمة والعقل والفراسة والحكمة .

هيهات هيهات أن يدرك كنه ذلك أحد ، فالعظيم لا يعرفه إلا عظيم مثله ، ومن كمحمد فى الناس؟؟

كيفَ ترْقى رقيَّك الأنبياءُ ... يا سماءً ما طاولَتْها سماءُ
لمْ يُساووك فى عُلاكَ وقَدْ ... حَالَ سنًا منْك دونَهم وسناءُ

مسك الختام

كان المرسلون الأولون مصابيح تضيء فى جوانب الليل الذى ألقى بجرانه على أنحاء الدنيا .

فلما بدأ فجر الإنسان ينشق عنه الظلام ، وبدأت أشعة الرسالة العامة تتهادى فى الأفق ؛ انتقل العالم من عهد إلى عهد :

لاتَذكُروا الكُتُبَ السّوالفَ قَبْلَهُ طلَع الصباحُ فأَطْفِئوا القِنْدِيلا

والكلام فى عظمة الشخصية التى حملت عبء هذه الرسالة يطول ، وحسبنا أن الله عز وجل - جمع فى سيدنا محمد ﷺ من شارات السيادة والنبالة ما تفرق فى النبيين من قبل .

ولقد ذكر الله أسماء ثمانية عشر نبيّا ، فيهم أولو العزم وأصحاب الرسالات الأولى ، ثم قال :

﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ** ﴾ (الأنعام : ٨٩ ، ٩٠) .

وهذا الأمر بالاقتداء كان ماثلاً فى ذهن النبى ﷺ وهو يقوم بتبليغ الدعوة .

فلما طعن أحد المنافقين فى تصرف له ، وهو يقسم الغنائم قائلاً : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . كظم النبى ﷺ غيظه وقال : «**رحم الله موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر**» .

من ثَمَّ قال المفسرون فى شرح هذه الآية : إنها تومئ إلى فضل الرسول ﷺ على من سبقه .

فإن خصال الكمال التى توزعت عليهم التقت أطرافها فى شخصه الكريم .

كان نوح صاحب احتمال وجلد وصبر على الدعوة .

وكان إبراهيم صاحب بذل وكرم ومجاهدة فى الله .

وكان داود من أصحاب الشكر على النعمة ، وتقدير آلاء الله .

وكان زكريا ، ويحيى ، وعيسى من أصحاب الزهادة فى الدنيا ، والاستعلاء على شهواتها .

وكان يوسف ممن جمع بين الشكر فى السراء ، والصبر فى الضراء .

وكان يونس صاحب تضرع وإخبات وابتهال .

وكان موسى صاحب شجاعة وبأس وشدة .

وكان هارون ذا رفق .

حتى تنظر إلى سيرة محمد ﷺ بعد هذه السير السابقة فتراها كالبحر الخضم تصب فيه الأنهار :

فَمَبْلغُ العِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ ... وأَنَّه خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمِ

مَوئِــلِ البَطــولات

من ذوى المواهب من يعيشون فى عزلة قصية عن الجماهير ، ويؤثرون البقاء فى البرج العاجى عما تستتبعه مخالطة الناس من سخط وتبرم .

ومنهم من يلقى بنفسه فى معترك الحياة ومعه عدة النجاح ، مع عمق النظرة ، وذكاء الفكرة ، والبصر النافذ إلى أدواء الشعوب وأدويتها . .

غير أنه مع هذه المواهب الجليلة ضَيِّق العاطفة لا يألف إلا القليلين ممن هم على شاكلته فى المزاج ، أو ممن يتفقون معه فى الأهداف .

ومن العظماء من أوتى امتدادًا فى شخصيته ، وبسطة فى مشاعره تجرف الناس إليه وتعلق القلوب به .

ولسنا نقصد بهذا قوة السيطرة على العامة ، والقدرة على تحريكهم وتسخيرهم ، كلا ، كلا .

وإنما نقصد هذا النوع من العظماء الذى يلتف به أصحاب الكفايات الكبيرة ، ويرمقونه بالإجلال ، ويقدمونه على أنفسهم عن طواعية واختيار .

ولقد ظهر أفراد قلائل من زعماء الشعوب على هذا الغرار الفذ ، وتركوا فى تاريخهم أثرًا لا يمحى .

على أن الإنسانية لم تعرف فى ماضيها الطويل - ولن تعرف - رجلاً وقَّره الأبطال وكرمه العظماء ، وانطبعت محبته فى شغاف القلوب ، كما عرف ذلك فى النبى الكريم محمد ﷺ .

كان أصحاب الشجاعة فى القتال يحبونه لأنه أشجع منهم حين تحمر الحدق ويشتد البأس .

وكان أصحاب الحذق فى السياسة والتدبير يحبونه لأنهم يرونه أكثر منهم مرونة وأرحب أفقًا .

وكان الأجواد الأسخياء يرونه وقد ملك واديًا من الإبل والغنم ، فما غربت عليه الشمس إلا وهو منح وهدايا للطالبين والراغبين .

وكان العُبَّاد يرونه صوامًا ، والزهاد يرونه عفيفًا مترفعًا ، وأصحاب البيان واللسان يرونه فصيحًا معربًا .

وهكذا ما عرف أحد من العظماء ميزة فى نفسه يفخر بها إلا وجد رسول الله ﷺ على خلق أعرق منها وأرقى .

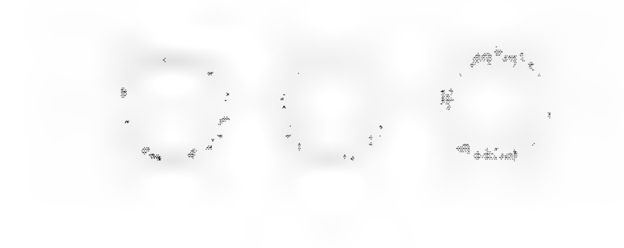
ولذلك يرفع إليه بصره مثلما يرفع الناس أبصارهم إلى القمم الشواهق التى لا تنال!! ومع هذا الجلال الفارع ، وذلك الامتياز الرائع ، فقد كان هذا الرسول الأمين قريبًا بسهولة طبعه من كل فرد .

فما يعز مناله على أرملة أو مسكين .

بل بلغ من اتساع عواطفه وتدفق مشاعره ، أن كل فرد كان يحس فى نفسه أنه آثرُ الناس عند رسول الله ﷺ وأقربهم إليه ، وأعزهم عليه .

كالشمس ترسل أشعتها فيستمتع الجميع بها ، ويأخذ كل امرئ حظه من الدفء والحرارة والمتعة ، لا يحس بأن أحدًا يشاركه فيها أو يزاحمه عليها .

كذلك كان محمد ﷺ مع صحابته ، يأوون من نفسه الكبيرة إلى كنف رحيم .



الوصف بالعبقرية

يقولون : إن النبوة هبة لا كسب ، وفضل يغدق ، لا نصيب يطالب به ويسعى إليه ، وهذا حق ؛ ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ (الزخرف : ٣٢) ، ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾

(الطور : ٣٧ ، ٣٨)

بيد أن هذا الخير لا ينزل اتفاقًا ، ولا يدرك اعتباطًا!

وقد حاول شاعر فى الجاهلية ـ بكثرة الكلام فى الإلهيات ـ أن يكون نبيًا ففشل . وتوقع نفر من الأحبار والرهبان أن يصيبوا هذا الشرف ، ففاتهم مع تشوقهم إليه ورغبتهم فيه .

إن الله سبحانه وتعالى يختار لهذا المنصب العظيم أهله!!

ومن ظن أن العصمة تمنع المحنة والابتلاء ، أو أن الرسل الكرام ليسوا أكثر من حملة وحى ، وظيفتهم التبليغ المجرد ؛ كأن أحدهم مكبر صوت تنفخ من ورائه الملائكة ، فليست له مواهب ، ولا استعداد خاص ، ولا امتيازات رفيعة .

من ظن ذلك فقد ضل فى فهم المرسلين ، وجهل ما حباهم الله به من خلال تجعل أعظم فلاسفة الأرض لا يصل إلى مصاف أقدامهم!

إن الكتاب الذين ألفوا فى سيرة النبى ﷺ ووصفوه بالعبقرية يمكننا أن نقبل منهم هذا الوصف بحذر وبقدر .

نقبله إذا كان القصد منه كشف النقاب عن معالم العظمة الشخصية ، وإلقاء ضوء على البطولة الأدبية لأولئك المصطفين الأخيار .

ونقبله إذا كان القصد منه الاعتراف بمبدإ الوحى الذى يصل المادة بما وراء المادة ، وهذا هو أساس النبوة الأول .

ونرفضه إذا كان وصفًا لعظمة إنسانية معتادة تسلك صاحبها مع غيره من رجال التاريخ البارزين .

ذلك موقف المسلم من جمهرة المؤلفين والمؤرخين ممن كتبوا فى حياة النبى الأمين ﷺ .

الإيمان بالنبوَّات كلها

جعل الله سبحانه وتعالى- التصديق برسله كلهم ركنًا فى الدين ، وقرن أسماءهم بذاته المقدسة فأصبح الإيمان بهم متممًا للإيمان به .

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾
(البقرة : ٢٨٥) .

والإيمان بمحمد رسول الله ﷺ هو الشطر الثانى من شهادة الإسلام ، لا يصح إيمان إلا به .

وإنما كان للإيمان بالنبوات هذه المنزلة ؛ لأن معرفة الله على وجهها الصحيح ، وفهم ما يريده لعباده ، ويطالبهم به إنما يكون عن طريقهم وحدهم .

والارتباط بالوحى الذى شرفوا به ، والأسوة التى تؤخذ منهم .

ومن ثم يقول الرسول الكريم ﷺ : **«لن يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»** .

ويقول الله تعالى : **﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾** (الأعراف : ٦ ، ٧) .

***

وسريان الفساد إلى الديانتين الكبيرتين السابقتين على الإسلام ، اليهودية والنصرانية ، وما طرأ عليهما من تغيير ، وداخل كتبهما من تحريف ، جعل الإسلام هو الطريق الفذ للإيمان السليم .

فمن كتاب محمد ﷺ وحده ، ومن سنته وحدها يفضى الناس إلى الحق .

والأبواب إلى الله فى عصرنا هذا ، مهما وقفت عليها فى اليهودية أو النصرانية ، فلن تفتح لك مغاليقها .

أما فى الإسلام وباسم نبيه الكريم محمد ﷺ فستنفذ وراء النبى العابد، ونهجه الخالد، وقرآنه المحفوظ، وسنته المصون.

فتعرف ربك عن يقين، وتعرف ما يكلفك به من غير تزوير ولا تحوير!

من أجل ذلك اعتبر الإيمان بمحمد ﷺ شرطًا لصحة الإيمان بالله.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ (محمد: ١ ـ ٣).

ولا تحسبن هذا غلوًا فى تزكية مخلوق، أو افتياتًا على حق الخالق، أو تجنيًا على أتباع الرسل الأولين.

فإن عيسى وموسى - صلوات الله عليهما - سارا بالناس إلى الله على بصيرة، وهم لا يدرون ما فعل أشياعهم من بعدهم.

ولو عادوا إلينا أحياء لكانوا أول من يبرأ من الكتب المدسوسة عليهم، وأول من يستمع لآيات الذكر الحكيم ويبادر إلى تنفيذ أحكامها ووصاياها.

ثم إن الله لما ضم الإيمان برسله إلى الإيمان به، جعل الكفر بواحد منهم كفرًا به - جل شأنه - وبهم جميعًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١٥٠ ـ ١٥٢).

ومحمد ﷺ خاتم المرسلين، أكمل الله به صرح النبوات، وأتم به حقيقة الرسالات.

«إن مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بنيانًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون ويتعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

فإذا جاء من يدعى النبوة بعده فهو كاذب ، ومن صدقه فى دعواه فهو كافر .

وقد ظهرت طوائف من الحمقى تتبع رجلاً اسمه البهاء يدعى النبوة ، ويطوون نحلتهم وراء قناع من التمسح بالإسلام ، وإظهار التصديق به وبغيره من الأديان ، وهم ليسوا من دين الله فى شىء .

وبهاؤهم دجال ، وتعاليمه زور وبهتان ، وليس بعد القرآن وحى .

﴿ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ** ﴾ (يونس : ٣٢) .

وقد حذرنا النبى ﷺ قبل موته من هؤلاء المخرفين قال :

«يكون فى آخر أمتى أناس دجالون كذابون ، يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم» .
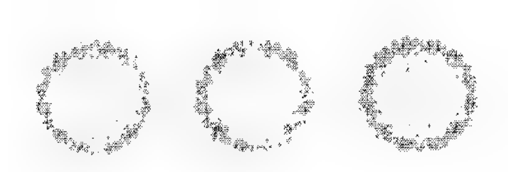
وفى حديث آخر : **«أنه سيكون فى أمتى ثلاثون كذابًا ، كلهم يدعى أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين لا نبى بعدى! ، ولا تزال طائفة من أمتى على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك»** .

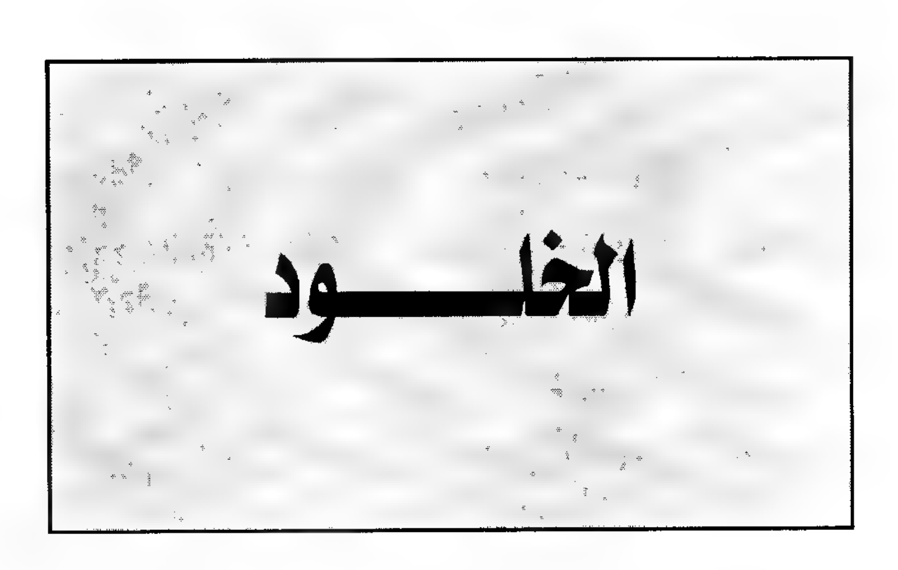
***

وقد عرفنا رسول الله ﷺ عن أمور تتصل بعقائدنا لم تكن عقولنا لتستطيع وحدها أن تدركها أو تعى تفاصيلها ، وهى تتعلق بما وراء الحياة من غيوب .

وقد قلنا : إن العقل المجرد قد يعرف أطرافًا منها بالتأمل والنظر .

ولكن المعصوم قد أعطانا عنها فكرة كاملة ، فسندرسها عن طريقه ، ونؤمن بها تبعًا له ، فهى مما جاء به .




الخلــــود

هـــذى الحيـــاة

قبل أن نأتى إلى الحياة الدنيا ، كم سبقتنا من عصور؟

وبعد أن نغادر هذه الحياة ، كم ستعقبنا من أجيال؟

وما نسبة هذا العمر المحدود بين ما سبقه وما لحقه من أزمنة؟ إنه قليل قليل ، ولكن من هذا القليل الممنوح لى ولك ، تتكون الحياة الدنيا!!

من هذا الظهور المحفوف بالفناء قبله والخفاء بعده تعمر الأرض!

فى طريق الحياة الممتد يجرى جيل من البشر ولا يزال يجرى ، حتى إذا نال منه الكلال وأدركه الإعياء مات .

وقبل أن يخلو الطريق من الأنفاس اللاهثة والأقدام اللاغبة ينبت جيل آخر يستأنف السعى ، ويمثل الدور نفسه .

ويُسحب الجيل المنهوك ، فيلف فى الأكفان ، ويوارى فى التراب .

وينفرد الجيل الجديد بالسعى ، حتى إذا لحقه ما أصاب سلفه ، سُحب - كذلك - وجىء بآخرين ، وهكذا دواليك .

هذه هى مواكب الحياة . . عمل متواصل من أعمار متقطعة!

والعجب أن هذا العمل الموصول يسخر من القائمين به ، فهم لا يحسبون أنفسهم حلقة من السلسلة المتقطعة المتراخية مع الأمس ، والمتطاولة مع الغد .

بل إن الواحد منهم يخدعه الغرور ، فما يفكر أنه جديد على الدنيا ، وأنه - كما ظهر فيها فجأة - سيختفى بغتة .

كلا إن الغرور يخيل إليه أنه كان من الأزل وسيبقى إلى الأبد !!

فإذا جاءه الموت دهش لمقدمه ، كأن الموت حدث غريب .

غير أن الدهشة لا تدفع اليقين ، وكذلك يترك الإنسان الحياة الدنيا .

من الخير للمرء ـ وهو فى صحته البدنية ويقظته الذهنية ـ أن يعرف طبيعة الدار التى يعيش فيها ، فلا يبنى طباقًا عالية على دعائم منهارة .

لكن ما معنى ذلك؟

أهذا فقط كل حظ الإنسان من الوجود؟

ونبادر إلى الإجابة الحاسمة : لا .

لئن كانت الحياة على ظهر الأرض بهذه المثابة ، إن الحياة التى تليها هى الأمل الأسمى والحظ الأوفر .

ولو كان العيش فى هذه الدنيا هو كل شىء ؛ لكان الانتحار العاجل أولى بالناس أجمعين .

إن الدار الآخرة هى الحيوان ، والاستعداد لها هو وظيفة العقلاء فى هذه الفترة الضيقة من آجالهم .

خُلقَ الناسُ للبقاءِ فضلّت أمةٌ يحَسبونَهم للنَّفادِ
إنما يُنقَلون مِن دارِ أعْمالٍ إلى دَارِ شِقوَةٍ أو رَشادِ

والحصيف هو الذى يوزع اهتمامه على كلتا الدارين بقدر ما تستحقانه ، فيجعل عمله لهذه ، بقدر مقامه فيها ، وعمله لتلك بقدر بقائه فيها .

ما وراء الحياة الدنيا

يعلم الناس جميعًا أن الموت نهاية حاسمة لكل حى ، ومصير لابد أن ترده كل نفس . ولكن أكثرهم يأخذ عن الموت فكرة غامضة ، ويكوِّن له صورة مغلوطة مشوهة .

ينال الإنسان منها ما ينال الدواب النافقة ، تحت أكوام التراب ، أو الأنعام المهضومة فى بطون الآكلين! ثم لا شىء بعد ذلك .

وهذا ضلال بعيد . . فليس الموت فناء ولا شبه فناء .

ربما كان الموت نومة طويلة ، كما أن النوم الذى نعرفه وفاة قصيرة !

وقد جعل القرآن الموت قسيمًا للنوم ، وجعل الحالتين أعراضًا للأنفس لا تتأثر كثيرًا بها .

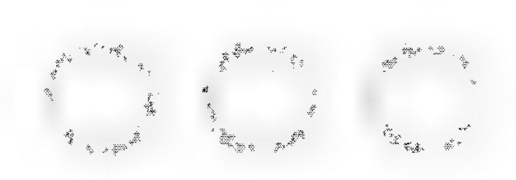
﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾(الزمر : ٤٢) .

ولئن كانت الروح تفارق الجسد إلى حين ، إن ذلك لا يغير من حقيقة الإنسان شيئًا .

فالجسد كالثوب ، يكتسى الإنسان به ويعرى عنه ، ولا مدخل له فى جوهره .

ولا يجوز أن نعد الموت إلا انتقالاً من مكان إلى مكان ، لا ينقص فيه إدراك المرء لحقائق الوجود شيئًا ، ولا يخف إحساسه بها ، بل قد يتضح ويزيد .

ولو فهمنا تلك الحقيقة لما اكترثنا للموت ، ولما تهيبنا الإقبال عليه ، ولما شعرنا بالتوجس من بوادره ومواطنه .



البـــرزخ

لا يكاد المرء يترك دنيانا هذه حتى يبدأ حسابه ، ويظهر ثوابه أو عقابه ، وقد ساق لنا القرآن الكريم طرفًا من أحوال الناس فى هذه المرحلة من حياتهم الآخرة ، فهو يقول عن الكفار من آل فرعون :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾(غافر : ٤٦) .

ويصف نعيم الشهداء ، وترقبهم لإخوانهم وأبنائهم كى يقدموا عليهم ويشاركوهم فى السعادة التى غمروا بها :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠) .

وبوادر الشر أو بواكير الخير تظهر فى اللحظة الأخيرة من عمر الإنسان على آخر منازل الدنيا وأول مراتب الآخرة .

فقد جاء فى السنَّة أنه فى تطمين المؤمن حين يحتضر نزل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾(فصلت : ٣٠) .

كما أن نُذُر العقاب الأليم تواجه الفسَّاق والظلمة فى تلك الساعة الحرجة :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾(الأنعام : ٩٣) .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾
(الأنفال : ٥٠ ، ٥١)

وللعصاة من المؤمنين حظهم من المتاعب والآلام جزاء تفريطهم فى الواجب واستهانتهم بالحرام .

وقد جاء : أن النبى ﷺ مر على قبر دفن فيه شخصان ، فقال :

«يعذبان وما يعذبان فى كبير ، كان أحدهما لا يستبرئ من بوله ، وكان الآخر يمشى بالنميمة بين الناس» .

والأدلة على ثواب القبر وعذابه كثيرة ، تتضافر على إثبات أن قبل الجنة والنار مقدمات تحفل بالبشرى ، أو تطفح بالإنذار .

وفى الحديث : **«إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار . . فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة» .**

إن الموت ـ على الحقيقة ـ طور من الأطوار التى تعرو الحىَّ فى سنيه المختلفة ؛ كالطفولة والرجولة والكهولة .

إلا أن هذا الطور يمتاز بأن الروح فيه أقوى إدراكًا وأصدق حسًا .

ولو تصور المقدمون على الانتحار أى حياة يقبلون عليها ، أو أى مرحلة يصيرون إليها لفكروا طويلاً ، قبل أن يرتكبوا حماقتهم .

إنهم يريدون ـ بفعلتهم الشنعاء ـ أن يفروا من الشعور بالضيق ، ومواجهة النتائج المحزنة إلى عالم يحسبونه خاليًا من الشعور . . . ومن رؤية العواقب المحذورة .

وما دَروا أن قوام العالم الجديد الذى يقتحمون أسواره هو الإحساس المضاعف ومجابهة شتى النتائج .

وفكرة الكثيرين عن الموت تغلب عليها الجهالة والكفران .

والقبر ـ فى نظرهم ـ مكان يخيم عليه الصمت والظلام ، وتعبث فيه الديدان والحشرات فحسب .

ولسنا نتجاهل هذا المنظر الكئيب ؛ ولكننا ننكر أنه النهاية الحاسمة للعواطف الجياشة بالخير ، والمشاعر المهتاجة بالشر ، وما انبنى على هذه وتلك من حضارات وعمران وخصام ووئام .

إن هذا المنظر يخفى وراءه ـ فى عالم لا ندريه ـ سهولاً فسيحة تحفل بالأزهار والنوَّار ، وتفوح منها العطور المنعشة أعدها الله للمؤمنين الصالحين .

وثَمَّ وهادٌ أخرى تُدَعُّ فيها الأنفس الشريرة ، وتئن تحت وقع المطارق المنهالة والمقاطع المحماة ، أعدها الله للفاسقين عن أمره ، الظالمين لخلقه .

وقد كان رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يُفيضُ فى شرح الحقائق المتصلة بهذا العالم المغَيَّب ، حتى ليكاد سامعوه يرون آفاقه رأى العين ، الصحو منها والنائم . وذلك حتى يؤسس فى أفئدتهم يقينًا بأن الموت المرتقب مرحلة تلى هذه الحياة كما تلى الرجولة الطفولة .

وإن وقفة مفاجئة لوجيب هذا القلب الدائب الخفقان ، ترمى بالمرء فى أحضان هذا العالم الحق .

***

وإليك هذا الوصف المفصل لمقدمات اليوم الآخر كما يعرفنا به رسول الله ﷺ :

«إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل عليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ويجيء ملك الموت ـ عليه السلام ـ حتى يجلس عند رأسه، فيقول:

أيتها النفس الطيبة، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان.

قال: فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من السِّقاء فيأخذها.

فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط، ويخرج منه كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض.

قال: فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟

فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التى كان يسمّى بها فى الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له.

فيشيعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التى تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة.

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين، وأعيدوه إلى الأرض فى جسده.

فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان: من ربك؟ فيقول: ربى الله، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام.

فيقولان: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولون: ما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، وآمنت به وصدقته.

فيُنادى من السماء: أن قد صدق عبدى، فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة.

قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له فى قبره مد بصره.

قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول:

أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذى كنت توعد.

فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الحسن يجىء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح.

فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة! حتى أرجع إلى أهلى ومالى.

وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الآخرة وإقبال من الدنيا؛ نزل إليه ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول:

أيتها النفس الخبيثة، اخرجى إلى سخط من الله وغضب.

فَتَفَرَّقُ فى جسده، فينزعها كما يُنْزَعُ السفود من الصوف المبلول، فيأخذها.

فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها.

فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الريح الخبيثة!

فيقولون: فلان ابن فلان. بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له.

ثم قرأ رسول الله ﷺ :

﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ (الأعراف : ٤٠)

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه فى سجين، فى الأرض السفلى. ثم تطرح روحه طرحًا. ثم قرأ:

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج : ٣١) .

فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى.

قال: فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى.

قال: فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى. فينادى مناد من السماء: أن كذب فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه.

ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول:

أبشر بالذى يسوؤك، هذا يومك الذى كنت توعد.

فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه القبيح يجىء بالشر.

فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة».

وفى رواية له بمعناه، وزاد: «فيأتيه آت قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بهوان من الله، وعذاب مقيم.

فيقول: بشّرك الله بالشر، من أنت؟

فيقول: أنا عملك الخبيث، كنت بطيئًا عن طاعة الله، سريعًا فى معصيته، فجزاك الله شرًا.

ثم يُقيِّض له أعمى أصم، أبكم، في يده مرزبَّة، لو ضُرب بها جبل كان ترابًا، فيضربه فيصير ترابًا.

ثم يعيده الله كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين».

قال البراء : «**ثم يفتح له باب من النار ، ويمهد له من فرش النار**».

ونحن لا ندرى عن كنه الجزاء فى القبور شيئًا ، ولا حدود ما يصيب الأبدان والأرواح منه .

نعم ، نحن نوقن بهذا الجزاء .

أما كيف يقع ، وأما البحث فى التفاصيل الواردة به ، وأما التساؤل عن طرائقه بعد بلى اللحم والعظم ؛ فهذا ما لا نستطيع الخوض فيه .

لأن أمر المادة كأمر الروح غريب ، وما يتجلى للناس من خصائص الحياة وأسرارها يومًا بعد يوم ، يجعلنا نصدق ما خبرنا به الوحى ، ونكل دقائقه للمستقبل ولا نحب أن نرجم فيه بغيب .

عُمر الفرد وعُمر الدنيا

عندما ينقضى أجل الإنسان من فوق ظهر الأرض ، يسافر إلى الآخرة تاركًا خلفه الناس ، يكدحون ويؤملون .

فإلى متى يتصل هذا العمران ، ويبقى بنو آدم يؤدون رسالتهم فى هذه الحياة ، ويتخرجون من تجاربها المضنية ، إما إلى الجنة ، وإما إلى النار؟

متى يأذن الله بانتهاء عالمنا هذا الذى تتوارث الأجيال أفراحه وأحزانه ، وتزحمه بصراعها الدائم ، تارة على الحق ، وتارات على الباطل ؟؟ متى؟

الظاهر من نصوص الدين أن للدنيا نهاية مقررة لا تعدوها .

تشَقَّقُ بعدها السماء ، وتنْهدُّ الأرض ، وتغيض البحار ، ويهلك الحرث والنسل ، وتطوى الصفحة الحافلة بتاريخ رهيب ، من بدء الخلق إلى فنائه .

وكما أن للإنسان عادة ـ قبل أن يحين أجله ـ أعراضًا تؤذن بموته من شيخوخة أو مرض أو غيرها ، فللإنسانية كلها قبل انتهاء أجلها أعراض إذا ظهرت عليها دل ذلك على أن عمرها أوشك ، ومصيرها اقترب .

وعندى أن المبرر الأول لوجود الحياة وبقائها هو وجود أناس- قلوا أو كثروا - يعرفون ربهم ويؤدون واجبه حقًا .

فإذا خلت الدنيا من هؤلاء ، وبدا أن مثلهم لن يتمخض عنه المجتمع البشرى فى طول البلاد وعرضها ، فمعنى ذلك أن الدنيا أفلست وحقت عليها الكلمة ، وأن فضَّ هذه السوق أصبح محتومًا!

وعلامات الساعة التى ذكرها القرآن الكريم ، وأفاضت فيها السنة تشير إلى هذا فى جلاء .

إن الرسل الكرام بذلوا جهود الجبابرة فى محاربة الجاهلية ، وقيادة الناس إلى الله ، وقد استجابت لهم أمة من الناس ، ومشت حينًا من الدهر تحت لوائهم ، وستظل تمشى إلى ما شاء الله .

فإذا انكمشت أمتهم ، ونكس لواؤهم ، وطمست شرائعهم ، وهان على الناس أمرهم ، وقامت الحضارات المختلفة على إنكار وحيهم وإقصاء هديهم . . ثم شاع الفساد واستبيحت الحرمات ، وغلقت المعابد ، ونُسِيَ الله جل وعلا ، وماج الناس بعضهم فى بعض . . يومئذ يستحصد هذا العمران كله ، ويقترب للناس حسابهم .
أجل . . . قد تقدم البشرية خطوات رحيبة إلى الأمام فى ميادين العلم ، حتى لتسخر كل شىء لخدمة الإنسان وترفيه عيشه .

بيد أن الإنسان عندما يصل إلى هذه الدرجة من الارتقاء المادى يكون قد وصل إلى الحضيض من الناحية الأدبية .

سيطغى ، ويقتل ، ويعربد ، ويتأله :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس : ٢٤) .

وإليك من حكم النبوة ما يدلك على أن الساعة تقوم عقب فساد عريض لا ينتظر لظلامه فجر!

وفى فترة تخلد الدنيا فيها إلى أهوائها ، فلا يتوقع لها طهر أو ارتقاء .

عن أنس ، عن النبى ﷺ قال : «**لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله الله**»

وعن حذيفة ، عن النبى ﷺ : «**لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع**» .

ويبلغ من امحاء معالم الدين أن تعود الوثنية إلى الجزيرة مرة أخرى : «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أَلْيَاتُ نساء دوس حول ذى الخلصة**» .

وهو صنم كان العرب يعبدونه فى الجاهلية الأولى .

ويتهاوى الناس على اللذائذ يطلبونها من كل سبيل ويدفعون ثمنها شرفهم ومروءتهم : «**يكون بين يدى الساعة فتن كقطع الليل المظلم ؛ يصبح الرجل مؤمنًا ويمسى كافرًا ، ويمسى مؤمنًا ويصبح كافرًا ، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا**» .

وتهيج نيران الحروب فى الأرض نتيجة سقوط الضمائر وخراب الذمم :

«لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج ، قالوا : وما الهرج؟ قال : القتل القتل» ، وتمحق البركة من الأعمار- فهى مهما طالت - قصيرة ؛ تمر ما يكاد أحد يشعر بها .

«لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر ، والشهر كالجمعة ، والجمعة كاليوم ، واليوم كالساعة ، والساعة كالضرمة من النار» - كإشعال عود من الثقاب .

والأحاديث متكاثرة على أن الساعة تقوم على أشرار الناس .

ولا يذهبن بك التشاؤم مذهب بعض الواهمين كلما رأوا منكرًا يفشو ضربوا كفًا على كف ، وقالوا : قامت الساعة !!

إنها ستقوم حتمًا ، بيد أن تربصها بهذا الأسلوب غير مستساغ .

إن الأرض - من قديم - مسرح للفساد وسفك الدماء .

والعراك بين الخير والشر ناشب من قرون سحيقة ، والأيام بينهما دول .

وانهزام الخير حينًا ، لا يعنى أن يفض الله هذا المجتمع المائج .

ولكن الذى نزعمه هنا : أن الإنسانية المبتلاة بوجودها على ظهر الأرض ، قد يُرخى لها العنان ما أثمرت حضارة أو أمة أو طائفة تستقيم على الطريق ، وتسبح بحمد الله ، وقد يغتفر شر كثير إلى جوار هذا الخير .

فإذا انقطع الأمل من رشد الناس ، وأطبق أهل الأرض على العبث فيها ، خلفًا بعد سلف ، استؤصلت شأفتهم ، ثم جمع الأولون والآخرون أمام الله لمحاكمة عامة شاملة .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (الكهف : ٧ ، ٨) .

من أشراط الساعة

على أن هناك علامات حاسمة تسبق الختام الأخير لهذا العالم .

نذكر - في إيجاز- بعضها ، حتى لا يستطرد بنا الحديث .

- منها : رجوع عيسى بن مريم إلى الحياة الدنيا مرة أخرى ، ولعله خص بذلك من بين الأنبياء ؛ لأن الخرافة التي تعلقت بشخصه ملأت الأرجاء ، وقامت باسمها دول قوية ، فليكذب الرجل نفسه ما أشاع الخلق عن ألوهيته ، وهو ليس إلا عبدًا لله . ولما كانت الحياة وحدة متماسكة فنزوله في آخر الزمان كاف في الدلالة على هذا المعنى ، وإن جاء عقب ضلال طويل !!

- ومن علامات الساعة : ظهور الدجال ، وهو رجل أعور داهية ، يبدو من صفاته المذكورة له ، أنه ماهر في علوم الطبيعة ، وقد يوفق إلى طائفة من المخترعات الرائعة ، ويؤتى القدرة على خداع العامة بما يملك من وسائل ليست بأيديهم . وهذا الأعور الدجال من عباقرة اليهود يدعي الألوهية ، وقد حذرتنا السنة من الاستماع له ، وسيطوف في البلاد ، يدعو لنفسه ، حتى يقتل آخر الأمر .

- ومن علامات الساعة : شروق الشمس من حيث تغرب ، وهذا الانقلاب الفلكي إيذان بأن النظام الدقيق الذي تماسك به أجرام السماء يوشك أن يختل بإذن صاحبه ، ثم تنكدر النجوم ، وتسير الجبال ، وتحشر الوحوش !!

- ومن علامات الساعة : خروج الدابة ، وعندي أن هذه العلامة نوع من العتاب والتقريع لبني آدم الذين جهلوا ربهم ، وجحدوا حقه ، مع ما آتاهم من عقل وفكر ، فلا بأس أن تخرج سلالة من البغال أو الحمير لتضرب حوافرها جباه الساسة والقادة ، وتقول لهم : أما لكم رأي يصلكم بالله رب العالمين؟ أين الذكاء والفهم؟! كيف تلحدون؟

﴿ **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ** ﴾ (النمل : ٨٢) .

البعث والجزاء

سننتهى من هذه الدنيا ، وستنتهى هذه الدنيا بعدنا . . . ثم ماذا؟

نحب أن نقول أولاً ، أو نؤكد ما قلناه قبلاً : إن الله سبحانه وتعالى ماجد عظيم ، وإن كماله الأسنى لا ترقى إلى كنهه العقول ، وإنه أوجد البشر تفضلاً وأعطاهم - على ظهر هذا الكوكب الضيق - فرصة خطيرة لو أحسنوا استغلالها ، وإنه - سبحانه وتعالى - لن يمنح الخلود فى جواره الكريم إلا لمن ينتهزون هذه الفرصة . . فترشحهم أعمالهم وأحوالهم للصعود إلى الرفيق الأعلى؟

إن الله المجيد لا يقبل إلى جواره الأوغاد .

إن الله العليم لا يقبل إلى جواره الجهلة .

إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا .

إن الله نظيف يحب النظافة .

إن السفلة الذين التصقوا بالتراب ، وعاشوا له ؛ لن يرتفعوا عنه .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ** ﴾ (الأعراف : ٤٠)

من الخير للإنسان أن يعلم علم اليقين ، أن عمره المحدود فى هذه الدنيا ، إن لم يكن وسيلة للتكمل والترقى ؛ فلن يشرق غده ، ولن يخرج منه بطائل .

فالجنة التى وعد الله بها المتقين لا تتسع لخسيس ولا مهين ، وإذا لم يكن الإنسان على حظ من الكمال والفضيلة ، فلن يجد بها منزلاً .

لما استكبر بها إبليس طرد منها ، وقال الله له : ﴿ **فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ (الأعراف : ١٣) .

ولما غفل آدم عن حق ربه ، ووهنت فى الخير عزيمته ؛ أخرج منها وزوجه وعرفهما الله عز وجل ، وعرف ذريتهما من بعدهما أن للجنة مستوى خاصًا من الكمال من فقده لم يبق لها أهلاً .

فمن بقيت فى نفسه أثارة من شر ، وأدركه الموت ولم يتطهر منها ؛ حبس على شواطئ الآخرة ، ولم يدخل جنة ربه على تلك الحال .

قال النبى ﷺ : «**يخلص المؤمنون من النار فيُحْبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنة**» .

أرأيت؟ لابد من تهذيب وتنقية؟

فمن لم يستوِ وينضج ويطب فى الدنيا انتظرته جهنم لتكمل له ما نقصه ، وتعويض ما فاته .

﴿ **أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ (المعارج : ٣٨ ، ٣٩)

لقد خلق الإنسان من أصول ، فيها كدر وكثافة وهوان ، من حمإ مسنون ، ونطفة أمشاج ، وأمامه فى الدنيا فسحة من الأجل ، ينبغى أن يستغلها فى ترشيح نفسه للملأ الأعلى ، فيقهر أهواءه ، ويمسح أكداره ، ويرقق من طينته ، ويسمو بطبيعته ، ويتعهد روحه بالصقل والتهذيب حتى يطيب ويطهر : فإذا جاءته رسل ربه لتنقله إلى الدار الآخرة ، صدق قول الله : ﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾(النحل : ٣٢) .

إن هناك أقوامًا تشم فى أعمالهم نتن الطين الذى خلقوا منه ، وتلمح فى أخلاقهم كدره وسواده! هؤلاء ليسوا أصحاب الجنة مهما زعموا وأَمَّلُوا !! .

***

يعقد الإسلام صلة وثيقة بين فعل الخير فى الدنيا وما يعقبه من سعادة فى الآخرة ، كما يعقد الصلة نفسها بين اقتراف الشرور ، واستحقاق العذاب الأليم .

وقد يحاول بعض الناس بأساليب ملتوية ، وعلل مكذوبة أن يشكك فى هذه الصلات القائمة ، ولكن هيهات !!

فالمجرم لابد أن يلقى عقوبته ، وأن يواجه الجزاء من جنس العمل .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (يونس : ٨١ ، ٨٢) .

وعندما يتلاوم العصاة يوم القيامة ، ويحاول كل فريق منهم إلقاء التبعة على الآخر لتنصل من الذنب ، ويفر من العقاب ، عندئذ يقرع آذانهم صوت الحق .

﴿ قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (ق : ٢٨ ، ٢٩) .

والمحسن لا يتخلف عنه الوعد الحق ، ولا تنقص مكافأته على صالح عمله ذرة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (لقمان : ٨ ، ٩) .

ونحب أن ننبه إلى تلاعب طائفة من أدعياء العلم بالنصوص الواردة ، وخبثهم فى فصل العلاقة بين العمل وجزائه ، والاحتيال بذلك على تحقير مظهر الخير فى العمل الطيب ، و مظهر الشر فى العمل الفاسد .

والحيلة التى يتوسلون بها إلى ذلك ، إيهام الناس أن الجزاء مرتبط بالمشيئة العليا لا بعمل الإنسان .

وأن الفسقة قد ينالهم العفو مهما ارتكبوا ، وينشد شاعرهم :

وإنى وإن أَوْعدته أوْ وَعدْته — لمخلفُ إيعادى ومُنْجزُ موعدى !!

وأنه يجوز أن يدخل القانتون العابدون نار جهنم . . ! لأن الله لا يسأل عما يفعل .

وهذا كلام يخالف الحقائق المقررة فى دين الله .

والغرض منه - كما أسلفنا - إسقاط قيم الأعمال ، فلا يرهب أحد ذنبًا ، ولا يرجو مؤمن حسنة .

وهذه الفلسفة الحقيرة أدت عملها فى إفساد الأمة ، وتلويث المجتمع ، وإهانة الدين وتعاليمه .

والله سبحانه وتعالى يكذب ذلك كله بأسلوب صريح :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الجاثية : ٢١) .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ .
(ص : ٢٨ ، ٢٩)

إن أولى الألباب يوقنون بأن عموم المشيئة لا يعنى التسوية بين خائن وأمين ، وأن جواز العفو لا يعنى إبطال الشرائع وتعطل القوانين .

حول شفاعة إمام الأنبياء

يلغط عوام المسلمين بأحاديث واردة فى شفاعة النبى ﷺ لبعض العصاة .

وتعلق أولئك العوام بأحاديث الشفاعة يخيل إليك أن قوانين الجزاء بطلت ، وأن نيران الجحيم توشك أن تتحول بردًا وسلامًا على عصاة المؤمنين .

وكثيرًا ما يفرط هؤلاء الجهال فى الفروض ، ويقعون فى أوخم الذنوب ، ثم يقولون : أمة محمد بخير!

وهذا مسلك ساقط .

ومحمد ﷺ أول من يستنكره ويحارب أصحابه ، وينذرهم بأنهم أصحاب الجحيم .

فأما أن الجزاء حق ، وأنه يتناول الذرة من الخير والشر ، وأنه يعم الناس أجمعين ، فذلك صريح القرآن .

﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾(الزلزلة : ٧ ، ٨)

والقول بأن قوانين الجزاء توقف بالنسبة لأتباع نبى ما سخفٌ فارغ ، وقد كذَّب القرآن الكريم فى مواضع شتى مزاعم الأولين والآخرين لما جمحت بهم أمانيهم إلى هذا الوهم الباطل .

ولسنا نرد ما صح من أحاديث الشفاعة ، بل نثبتها فى مواضعها التى لا تعدوها حتى لا نحرف الكلم عن مواضعه .

روى الشيخان : قال رسول الله ﷺ : «**إن لكل نبى دعوة مستجابة وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى ، فهى نائلة منكم إن شاء الله ، من مات لا يشرك بالله شيئًا**» .

هل معنى هذا الحديث أن الشفاعة التى يرجوها الرسول ﷺ تنقذ مرتكبى الفواحش والمناكر ممن ماتوا لا يشركون بالله شيئًا ، دون أن يستوفوا جزاءهم؟؟

إن الرسول ﷺ نفسه يرد هذا الزعم .

وقد روى البخارى حديثًا يصف فيه أهوال الحشر ، وأحوال أهل النار ، قال النبى ﷺ فيه :

«**يضرب الصراط بين ظهرانى جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان ، هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنه مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم من يُوبَق بعمله ، ومنهم من يُخردَل ثم ينجو ، حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار ؛ أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله ، فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود ، وحرَّم الله على النار أن تأكل آثار السجود ، فيخرجون من النار ، فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود فيخرجون من النار قد امتحشوا ، فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل . . .**» .

وهذا الحديث يفيد أن من المسلمين الذين يعبدون الله وحده قومًا سيدخلون النار ، وأن لهبها سينال ملامحهم ، فلا يعرفون إلا بآثار السجود .

وأن رحمة الله فحسب ، هى التى تدركهم فتنقذهم مما يعانون من بلاء .

ثم تغسل أوضارهم الأولى بماء الحياة لينبتوا ـ بعد ـ خلقًا جديدًا يصلح للنعيم والرضوان .

***

فليس للشفاعة هذا النطاق الواسع الذى يبرر به الخطاءون إصرارهم ، وما تفيدهم أمانيهم فيها شيئًا .

وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى ـ أن الشفاعة لا تجدى على كافر ، ولا على فاسق مثقل بالخطايا .

قال الله تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾(البقرة : ١٢٣) .

وقال كذلك : ﴿ **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ** ﴾(فاطر : ١٨) .

والنفس المثقلة بالخطايا ـ ولو كانت لرجل من المصلين ـ لا يفوتها جزاؤها كما رأيت فى حديث الرسول ﷺ ، وهو يصف أمته عند اجتيازها الصراط .

***

والظاهر أن الشفاعة التى يرجوها النبى الكريم إنما تدرك صنفًا من الناس تأرجحت موازين الحق والباطل فى أعماله ، فهو بين السقوط والنجاح .

ونحن فى حياتنا ننظر إلى التلامذة الذين يقتربون من النهاية الصغرى للنجاح نظرة رأفة ، ونميل إلى منحهم درجة أو درجتين جبرًا لنقصهم .

أما الذين يبتعدون عن المستوى الأدنى للنجاح مسافة بعيدة ، فإننا نحكم بسقوطهم فورًا .

فلعل الشفاعة المنسوبة للرسول الكريم تنقذ أمثال هؤلاء المقاربين للنجاة ، وبهذا التفسير يتم الجمع بين النصوص .

***

وقد يكون المقصود من هذه الشفاعة التنويه بمكانة النبى صلوات الله وسلامه عليه ، والإشادة بمنزلته الكبرى عند الله . . .

ومثال ذلك فى مجتمعنا أنه فى مناسبات خاصة ـ كعيد ميلاد الملك أو جلوسه ـ يفرج عن طوائف المسجونين ممن قضوا أغلب المدد المحكوم عليهم بها ، ويراد إشعارهم بفضل المناسبة التى ستسوق لهم العفو والحرية .

وهذه الحرية الممنوحة بالعفو العام ؛ لا تخدش أصل العقوبة المقررة .

ولا يفهم منها أنه لا ضرورة لسن القوانين ، وبناء المحاكم ، وتعيين القضاة ، كما يريد أن يفهم ذلك عوام المسلمين من أحاديث الشفاعة المنسوبة لنبيهم ﷺ ، والتى تشير إلى أن الله قد يجيب دعاء نبيه وهو جاث بين يدى ربه يسأل الصفح عن الأمم الغفيرة من الأولين والآخرين ، التى أدركها حر الموقف المعنت ، وألهب عصاتها شواظ من النار المستعرة ، فهى تضرع إلى الله أن يرفع غضبه ، وتتردد على أنبيائه جميعًا كيما يشاركوهم الرجاء والدعاء .

على أنه مهما بلغت منزلته عند الله فلن يتجاوز فى الله حد الملق والزلفى لمولاه، وما كان لنبى أن يفرض رأيًا أو يقرر حكمًا:

﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (سبأ: ٢٣).

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (النبأ: ٣٨)

فلا كلام إلا بإذن، ولا كلام إلا بصواب، ومردُّ الأمر لله وحده.

فإذا كان من الناس من يقترف الموبقات المهلكة اعتمادًا على شفاعة موهومة فليذكر قول الحق فى أهل النار:

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ (المدثر: ٤٢ ـ ٤٨).

ونحن بعد هذه المقدمات الواجبة نروى حديث الشفاعة العظمى معتقدين أن قارئه لن يتجاوز به حدوده .

عن أنس أن النبى ﷺ قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك ـ وفى رواية: فيلهمون لذلك - فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا. فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شىء، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول: لست هناكم - فيذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها - ولكن ائتوا نوحًا أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. فيأتون نوحًا فيقول: لست هناكم - فيذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها - ولكن ائتوا إبراهيم الذى اتخذه الله خليلاً. فيأتون إبراهيم، فيقول: لست هناكم - ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها ـ ولكن ائتوا موسى الذى كلمه الله وأعطاه التوراة. قال: فيأتون موسى، فيقول: لست هناكم - ويذكر خطيئته التى أصاب، فيستحى ربه منها ـ ولكن

ائتوا عيسى روح الله وكلمته . فيأتون عيسى روح الله وكلمته ، فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا محمدًا ﷺ ، عبدًا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال : قال رسول الله ﷺ : فيأتون ، فأستأذن على ربى - تعالى - فيؤذن لى ، فإذا أنا رأيته وقعت ساجدًا ، فيدعنى ما شاء الله . فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، قل تسمع ، سل تعطه ، واشفع تشفع . فأرفع رأسى ، فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ربى ، ثم أشفع ، فيحد لى حدّا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة . ثم أعود ، فأقع ساجدًا ، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ثم يقال لى : ارفع يا محمد رأسك ، قل تسمع ، سل تعطه ، واشفع تشفع . فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ربى ، ثم أشفع ، فيحد لى حدّا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، قال : فلا أدرى فى الثالثة أو فى الرابعة قال فأقول : يا رب ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن (أى من وجب عليه الخلود)» .

إن أتباع الدين يجب أن يعرفوا أن الحساب الإلهى لا يغفل الذرة من الخير أو الشر ، وأن هذه الدقة تنفى كل تصرف ينطوى على الفوضى ، وكيل الجزاء جزافًا . وقد ندد القرآن الكريم باليهود ، لما سرت بينهم هذه الآراء الغريبة ، حتى ظن عامتهم أن الجنة حكر لهم ولذرياتهم - لأمر ما - فأقبلوا على ملذات العيش الأدنى ينتهبونها ويقولون - فى يقين : سيُغفَر لنا!!

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾

(الأعراف : ١٦٩)

والمؤسف أن هذا القطع بين العمل والجزاء رسب فى أوهام العامة ، فأساءوا به إلى أنفسهم وإلى دينهم ، ثم إن عوج سلوك المنسوبين إلى الدين وقلة تفقههم ، وسوء ذوقهم مكّن للإلحاد فى الأرض ، ورفع الثقة من الأديان وممثليها جملة . والعجب للمسلمين ، يصابون بهذه اللوثة وهم يقرأون قول الله :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ (النساء : ١٢٣) .

***

الجزاء حق ، ولقد أكثر القرآن من التذكير ، ومن سوق النذير بعد النذير ؛ لأن أكثر الناس يذهلهم ما أمامهم عما وراءهم .

بل ربما أنكروه وسخروا منه غير عابئين بهذا الغد الزاحف .

ولو عقلوا لعرفوا أن الآخرة هى المستقبل الذى يجب على كل راشد أن يوفر فيه أسباب سعادته ، وأن يجعل حاضره من الدنيا تمهيدًا له ، وأن يجعل سعيه فى حياته غراسًا لا تنتظر ثمراته القريبة بقدر ما تؤمل عند الله عواقبه المذخورة .

إن نتائج أعمالنا فى الدنيا خطيرة جدًّا .

سنقضى سنوات احتواها كتاب مؤجل ، ثم تصير الدنيا ـ بعد أن نتركها كما كانت قبل أن نطرقها ـ صفرًا ، إلا مما تزودنا به منها .

ولو كان أكثر الناس وطيد الرجاء فى حياة مقبلة ما أرخص عمره ، وما احتسب وقته أهون ما لديه من متاع .

«ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل منهما بنون.

فكونوا من أبناء الدار المقبلة، ولا تكونوا من أبناء الدار المدبرة، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل» .

منكرو البعث وسُخف مزاعمهم

منذ العصور الخالية وأقطار الأرض منكوبة بصنف من الناس! يظنون أنهم مربوطون بأعباء الحياة ، كما تربط الحمير بعربات القمامة ، تظل تدور بها حتى يغلبها الإعياء ، وتدركها الشيخوخة ، فتموت حتف أنفها ، أو يطلق عليها الرصاص . . . ثم لا شيء!

يقولون : إن هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر .

وهؤلاء كثيرًا ما يشغبون على المؤمنين ، ويجادلونهم بالباطل! ويحاولون توكيد رأيهم السقيم بالإصرار والحلف !! الحلف بما لا يؤمنون ؛ ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾(النحل : ٣٨ ـ ٤٠) .

ومما يحفظ للمعرى فى ترجيح حياة المصدق بالآخرة ، وتقبيح حياة الإلحاد وما يكتنفها من فساد :

قال المُنجّمُ والطبيبُ كلاهما	**لا تُحشَرُ الأجسادُ قلتُ إليكما**
إن صحّ قولُكما فلستُ بخاسرٍ	**أو صحّ قولى فالخَسارُ عليكما**
طهّرتُ ثوبى للصلاةِ وقَبْلَه	**طُهْرٌ فأين الطُّهْرُ مِن جَسدَيْكُما**
وذكرتُ ربى فى الضمائرِ مُؤنسًا	**خَلَدى بذاك، فأوْحِشا خَلَدَيْكُما**
وبَكَرتُ فى البُردين أبغى رحمةً	**مِنه ولا تَرعَانِ مِن بُرْدَيْكُما**
إنْ لم تَعُدْ بيدى منافعُ بالذى	**آتى فهَلْ مِن عائدٍ بيَدَيْكُما؟**
بُرْدُ التّقِىِّ وإنْ تهَلْهَلَ نَسْجُهُ	**خيرٌ بعلمِ اللهِ مِن بُرْدَيْكُما**

***

وهذا الكلام من المعرى يصف من الموضوع ناحية جانبية فقط .

فإن الدين يحفظ القلوب أن تمرض ، ويصون الأعراض أن تخدش .

بل يقى الأبدان - بمسلكه النظيف - عوادى شتى تتمخض عنها الشهوات المنطلقة والأهواء العاصفة .

لكن هذه الثمار الجميلة ليست الدليل الفذ .

ويبدو أنها ذكرت فقط ، إغلاقًا لباب الجدل مع السفهاء .

روى أن واحدًا من أولئك المنكرين جاء إلى النبى ﷺ بعظم بالٍ وعرضه عليه ، يحسب المغفل أنه سيفحمه إذ يريه العظم ثم يتساءل : كيف يتحولُ هذا إلى بشر سوى؟

﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ** ﴾(يس : ٧٨) .

وهذا الاعتراض صفعة للسائل المستبعد ، ترده إلى مكانته التى يتطاول فوقها .

﴿ **قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ** ﴾ (يس : ٧٨ ـ ٨١)

نعم يحييها المبدع المنفرد فى شئون الخلق والإيجاد والتصوير .

ودلائل البعث ترجع - فى جملتها - إلى لفت أنظار الناس نحو حقائق بدهية مسلمة ؛ فالذى بدأ الخلق يستطيع - إذا أفناه - أن يعيده .

﴿ **وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا** ﴾(مريم : ٦٦ ، ٦٧) .

وهذا الخلق المعاد تتكرر تحت أعيننا صور شتى له كل يوم ، بل كل لحظة . فالرجل من حيث لا يشعر تصنع غدده الجنسية ألوف الألوف من الحيوانات المنوية ، فى واحد منها فقط أساس كامل لبشر كامل .

ولعل هذه الكثرة فى إيجاد أصول الحياة يقصد بها إلى الدلالة على أن الموجد على درجة من الغنى فى خلق أسباب الحياة ، تجعل إنشاء الناس أمرًا تافهًا بالنسبة إلى قدرته .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(الواقعة : ٥٨ ـ ٦٢) .

وعن أبى رزين العُقيلى : قلت يا رسول الله ، كيف يعيد الله الخلق؟ وما آية ذلك؟ قال : «**أما مررت بوادى قومك جدبًا ، ثم مررت به يهتز خضرًا؟**» . قال : نعم ، قال : «**فتلك آية الله فى خلقه ، كذلك يحيى الله الموتى!**»

والواقع أن الزروع التى تكسو وجه الأرض ، وتمشى فيها بالحياة والنماء ، ليست مما تصح الغفلة عن دلالته .

إن الفلاح يستودع ظلمات التراب حبة واحدة ، أو ساقًا واحدًا ، فإذا حقله يتحول - باسم الله - إلى جنان يانعة وثمار شهية وحصاد ميمون . . .

كيف تحول الكدر والقذر والطين إلى ثمار وأغصان ورياحين؟!

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾(الحج : ٥ ـ ٧) .

والمادة الميتة تتحوّل - فى كل غذاء نتناوله - إلى خلايا حية فى جسومنا ، يسرى فيها الشعور ، وتنتفض بالحركة .

فما معنى استنكار ما يقع شبيهه بيننا أبدًا؟ هل النشور إلا هذا؟!!

ثم ما ظن الإنسان بنفسه؟

إن الأرض ومن عليها خلق صغير متواضع بالنسبة إلى الوجود الضخم الذى يزحم الفضاء البعيد ويزخر به الملَكُوتُ الرَّحِيب ، وشأن الناس إلى جانب العوالم الأخرى قليل .

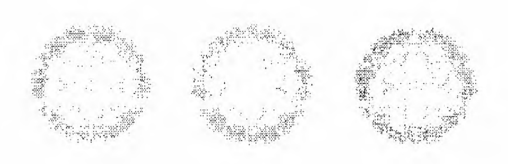
﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (غافر : ٥٧)

فكيف يُستكثر على مَنْ يقيم قصرًا منيف الشرفات ، سامق العمد أن يبنى كوخًا تافهًا بعد هدمه؟

إن البعث عقيدة فوق الشبهات ، فلنتهيأ له بالزاد الطيب ، من الهدى والتقى والعفاف .

خطب النبى ﷺ أول بعثه فقال : **«إن الرائد لا يكْذبُ أهلَهُ ، والله لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكُم ، ولو غَشَشْتُ الناسَ جميعًا ما غَشَشْتُكُم ، والله لَتَمُوتُنَّ كما تنامون ، ولَتُبْعثُنَّ كما تستيقظون ، وَلتُجْزَوْنَ بالإحسان إحسانًا ، وبالسوء سوءًا ، وإنها لجنةٌ أبدًا أو لنارٌ أبدًا!»** .

فإذا طلعت عليك شمس يوم من أيام الدنيا بعد نوم مستغرق ، فاذكر أن هناك يقظة ، سوف تعقب الهجعة المؤقتة فى القبر ، يساق بعدها أهل الشر إلى سقر ، ويساق أهل الخير إلى ﴿ **مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾(القمر : ٥٥) .



فهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة